الزير

أبو ليلى المهلهل بن ربيعة

صاحب الشعر المطرب المثير
والمعارك المريعة المهولة
في حرب البسوس ..
وما جرى له مع شيوخ القبائل
في عصره من وقائع وحوادث

تنسيق وتهذيب
عمر أبو النصر

مؤسسة المعارف
بيروت

مؤسسة المعارف
شارع الأمير أمين
بـــيروت

أبو ليلى المهلهل

الملقب بالزير في القصص الشعبية

نشأته وشعره وحيـــاته

من القصص العربية الشعبية.. قصة الزير وبطلها ابوليلى عدي بن ربيعة التغلبي .. خال امرؤ القيس بن حجـــر الشـــاعر الجاهلي المشهور وجد عمرو بن كلثوم لأمه، ولد ونشأ في قبيلة بني تغلب، وكانت منازلهم في الشمال الشرقي من نجد ..

والتاريخ العربي في الجاهلية غامض مليء بالاساطير والمبالغات ، ذلك ان العرب في ذلك العهد لم يدونوا تاريخهم ،ولا تاريخ بدون آثار وتدوين ..

كانوا يتناقلون اخبارهم وحوادثهم من طريق الرواية ، والرواية الكاذبة تسربت الى الاحاديث بعد الاسلام فكيف بها قبله ! خصوصا وقد كان من مصلحة القبائل العربية المختلفة بعضهـــا مـــع بعض أن تنسب لابطالها ولنفسها اخبارا وحوادث لا ينهض لها تاريخ ولا يؤمن بهـــا عقل ، فقد نسبوا مثلا الى اجسام بعضهم طولا مفرطا ، وعمروهم اعمارا لم يعشها انسان في عصر من العصور ، ونسبوا لهم من الاعمال مـــا لا يستقيم في عقل ، وما لا طاقة لانسان بمثله او اقله ..

وقد رأيت آثار هذا في قصة عنتر ، وقد اجريناها قبـــلا بأسلوبنا ناهجين التخفيف من المبالغة مع ابقاء الاثارة والتشويق ..

وفعلنا مثل هذا في قصة الملك سيف ، وهي أغرب واغنى من قصة

عنتر ، اذ لعبت فيها المردة والجن والسحرة فصولا لا تدخل في عقل ، ولا تقبل في زمان ..

وقد وصلنا الآن في اخراجنا للآثار العربية الشعبية القديمة الى المهلهل ابو ليلى ، عدي بن ربيعة التغلبي أو (الزير) كما يصفه ويدعوه القصاصون القدامى من العرب ..

والعرب ينقسمون الى شعبين كبيرين ، العدنانيين والقحطانيين ..

والعدنانيون ينقسمون الى فرعين كبيرين ، ربيعة ومضر، وكلاهما تفرع الى فروع كثيرة لا مجال لتعدادها الآن ..

وكان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قرونا طويلة ، يشتد احيانا ويهدأ احيانا اخرى حتى ان ربيعة تحالفت في بعض الحالات مع اليمنيين لمقاتلة المضريين.. واما اليمنيون أو القحطانيون فيقسمون ايضا الى فرعين كبيرين : فرع كهلان ، وفرع حمير . وكانت منازل هؤلاء في جنوب الجزيرة العربية ، بينما كان العدنانيون ينزلون شمالها، ويسكنون الحجاز وتهامة ونجدا .. وبعضهم سكن العراق والجزيرة ..

والعدنانيون يختلفون عن القحطانيين في كون اكثرهم بادية رحالة وقليل منهم من يعيش مستقرا كقريش في مكة ، واما القحطانيون فهم أهل حضارة وعمران .

ولليمن في عهدهم تاريخ مليء بالحضارة والعمارة ..

وكذلك اختلفوا في العبادات فقد كان لليمن في الجاهلية آلهة خاصة لا يشاركهم في عبادتها العدنانيون ..

كما اختلفوا في اللغة ايضا، فلغة قريش العدنانية غير اللغة القحطانية، ولقد سارت قبل الاسلام، واستقرت لها السيادة بعده ..

وقد تشعب العدنانيون شعوبا كثيرة ، وانقسموا الى قبائل عدة . واكبر فروع العدنانيين فرع ربيعة وفرع مضر، وكانت ربيعة ومضر أقوى الشعوب العدنانية في القرنين السابقين لظهور الاسلام ، وكان بين ربيعة

ومضر احداث كثيرة وحروب طويلة واحيانا بين قبائل مختلفة من ربيعة، واحيانا بين قبائل مختلفة من مضر •• واحيانا بين قبائل ربيعة وقبائل من مضر •

فمن الوقائع المشهورة بين قبائل ربيعة ، حرب (البسوس) بين بكر وتغلب •• وقد دامت فيما يقولون اربعين سنة ، ويذكرون في سبب ذلك ان كليب بن ربيعة كان سيد تغلب ، وبلغ من عظمته ان كان له حمًى في ارض تسمى العالية لا يطؤه احد الا باذنه، وكان لا يورد احد إبله مع ابله •• ولا يوقد نارا مع ناره • وقد تزوج كليب من شيبان — فرع من* بكر • والبسوس خالة جساس بن مرّة الشيباني كانت لها ناقة يقال لها (سراب) شاهدها كليب في حماه وقد كسرت بيض حمامة كان قد اجارها ، فرمى ضرعها بسهم ، فغضب جساس، وقتل كليبا غدراء فهاجت الحرب بين بكر وتغلب طوال تلك السنوات العديدة ، حتى افنى البطنان بعضهما البعض•

* * *

بطل هذه المعارك أبو ليلى •• عدي بن ربيعة ، شقيق كليب ، وقد لقب بالمهلهل لانه أول من هلهل نسج الشعر، أي أرّقه، وقيل لانه استعمل لفظة هلهلت في بيت له•• وهلهل الصوت أي رجعه الى ان احدث صدى•

وكان المهلهل جريء القلب، فصيحا ، جميل الوجه ، يقضي ايامه في اللهو ، والسكر ، والمقامرة ، ومحادثة النساء ، شأن امراء العرب في ذاك الزمان حتى سمّاه كليب « زير النساء » أي جليسهن • وكان لا يهتم بالغزوات والحروب لان كليبا كان يكفيه مؤونة هذه الاعمال • غير ان هذه المعيشة المخنثة لم تمنعه ان يكون شجاعا شديد البطش وقت الشدة ، وقد ذكر الرواة انه اشترك مع اخيه في وقعة السلان سنة ٤٨١ وابلى فيها البلاء الحسن• وكانت تلك الوقعة بين اليمنيين وقبائل معد، وامير هؤلاء كليب بن وائل• فالتقى الفريقان في مكان يسمى السلان،

موقعه جنوبي الحجاز ، وكان الظفر لبني معد فهزموا ابن عنق الحيـة وجموعه من بني قحطان .

(انظر الابيات ٢٣٩ ــ ٢٥٠)

وكان المهلهل لا يقول من الشعر الا بعض ابيات في الغزل والملاهي حتى فوجىء بنعي كليب فتغير ينبوع شعره . (١) .

بعد مقتل كليب (٤٩٤ ــ ٥٣١ ؟)

وصول الخبر

كان المهلهل رفيق همّام ابن عمه مُرّة ، ونديمه ، يقضي معظم اوقاته معه ، يعاقران الخمرة ، ويتقامران . وكان عنده ذات يوم، وقد عمل فيهما السكر عمله ، فأقبلت جارية لهمام تخبره ان جساسا قتل كليبا، وان اباه مرة ارسل له فرسا ليلتحق به . فسأل المهلهل هماما عـن شأن الجارية فأخبره . فقال : « يد جساس أقصر من ذلك ! » ثم أكب على الشراب حتى ذهل ، وهو يقول، فيما يزعمون ، « اليوم خمر وغدا امر ! » (٢) .

رجوعه الى الحي ــ الاستعداد للحرب

فلما ذهل من الشرب، رجع الى الحي فرآهم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم تحسرا على كليب، فقال : « ويحكم ! مـا الذي دهاكم ؟ »

فأعادوا عليه الخبر ، فقال : « لقد ذهبتم شر مذهب ! اتعقرون

---

(١) ــ فؤاد افرام البستاني في الروائع . وقد نشرنا مقدمة صديقنا الاستاذ فؤاد برمتها لانها افضل ما كتب في هذا الموضوع .

(٢) ــ قابل هذه الحالة بحالة امرىء القيس ، وهو ابن اخت المهلهل، اذ وصله نعي أبيه .

خيولكم حين احتجتم اليها ؟ وتكسرون رماحكم حين افتقرتم اليها ؟ »

فاتتهوا عن ذلك . واقبل المهلهل على النساء فنهاهن عن البكاء قائلا : « استبقين للبكاء عيونا تبكي الى آخر الابد ! »

ثم أقام يرثي كليبا ويتوعد مرة مدة طويلة حتى يئس قومه وقالوا انه زير نساء لا همة له للحرب ، وسخر منه بنو بكر وهمّ بنو مرّة بالرجوع الى مواطنهم. فتحرك عندئذ الى أخذ الثأر وجمع قومه ، وجزّ شعره ، وقصر ثوبه ، وهجر اللهو ، وحرّم على نفسه الشرب والطيب ومحادثة النساء حتى ينال ثأر اخيه وينتقم من خصومه ويمزقهم .

الحرب ـ المواقع ـ القتلى

وبعد ان حبطت مساعي من اراد السعي بالصلح ، نشبت المناوشات بين آل ربيعة ومن حالفهم ، وآل مرّة واحلافهم ، فدامت ، على قول الرواة ، اربعين سنة . حدثت فيها خمس معارك مهمة . اما ما سوى ذلك فكان عبارة عن مغاورات بسيطة يلقى فيها الرجلُ الرجلَ والرجلان الرجلين . واختلف الرواة في عدد القتلى فمنهم من بالغ الى ما وراء المعقول فعدهم بالالوف ، ومنهم من بالغ في عكس ذلك، فقال لم يتجاوز عددهم الاثني عشر : ثمانية من تغلب واربعة من بكر . ولعل العدد الحقيقي الى القليل أقرب !

وكان للمهلهل في جميع تلك المواقع، اليد الطولى، والبطش الشديد مما لم يكن يتوقع صدوره عن رجل قضى معظم حياته في اللهو والمسرّات كما قدمنا ..

موت المهلهل

واختلف الرواة ايضا في موت المهلهل فقال بعضهم انه خرج ، وهو شيخ ، الى اخواله من بني يشكر ضجرا من الحرب، وتطاول المدة ، فأقام

ما بينهم الى ان مات • وقال : ابن الكلبي ، بل قتل ، قتله عبدان كانا يخدمانه فملاّ منه، وكان قد أسنّ وخرف، فتخلصا منه كما ترى ذلك بالتفصيل في آخر حرب البسوس •

وجاء في الاغاني بعد الرواية الاولى ، ان المهلهل بقي زمنا في أسر عمرو بن مالك بن ضبيعة في بلاد البحرين ، وكان هذا يحسن معاملته حتى سمعه يوما ينشد شعره ويذكر أسره ، وكان قد شرب خمرا فقال :

طفلة شنتّة المخلخل ، بيضاء ، لعوب ، لذيذة في العناق

فغضب وحلف ألا يسقيه خمرا ولا ماء ولا لبنا • فمات المهلهل عطشا (١) •

آثاره

ولقد ذكر الحاج خليفة ، في كشف الظنون ، ديوانا للمهلهل (٢) فكان اول شاعر جمع له ديوان • لم نجد له أثرا ، ولم نر له الا القصائد المتفرقة في كتب الادب ، كالاغاني ، والحماسة ، وجمهرة اشعار العرب، وخزانة الادب • وكل شعر المهلهل في رثاء اخيه كليب ، وتوعد قاتليه، وذكر وقائع حرب البسوس • وقال الاصبهاني : انه اول من استعمل الغزل في شعره •

• • •

قيمته

ومن يدرس شعر المهلهل في رثاء كليب ، يرى فيه من رقة العواطف، وطبعية الحزن ، وحقيقة الالم ، وعدم التكلف في التعبير ، ما يجعله في أول الشعراء الغنائيين •

ونرى في درس حياته ان شاعريته لم تبرز وتنطلق الا بعد مقتل

---

(١) الاصبهاني : الاغاني ــ ج٤ ص : ١٤٧ .

(٢) ــ الحاج خليفة : كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون ــ درسعادت ــ ص : ٥٢٤ .

آخيه ، فكان هذا المتساب ينبوع شعور رقيق سال دون انقطاع • امـا الدافع الاصلي فهو حب الشاعر لاخيه ، واسفه على فضائله ، وليس الحنق على الجاني او الرغبة في الانتقام ، كمـا نشاهد ذلك عند البعض من شديدي التأثر ، وفياضي العواطف • ومن الشواهد على هذا الرأي اعتبار المهلهل لاخيه في ابياته، وطول مـدة حزنه ، وجملته السلسة ، وعاطفته المتناسقة ، ووزنه الهادىء ، لا تقطعه النبرة العصبية ، ولا يدفعه الغيظ الوقتي • وفي عرفنا ان اكمل مثال لذلك تلك القصيدة الجميلةالتي اتحدت فيها رقة الحاسة ، بهدوء الوزن ، برقة القافية المحزنة فقال :

كليب ، لا خير في الدنيا ، ومن فيها   ان انت خليتها ، في من يخليها !

ويؤلف المهلهل الحلقة الثانية بين المشهورين بالرثاء من الجاهليين، اذا مـا اخذنا مقياسا لهذا الترتيب، رقة العواطف والارتفاع من البكـاء الى الافكار العامة ، والنظرات الشاملة ، والحكم المعزية فيكون محله بين الخنساء ولبيد •

حرب البسوس

٤٩٤ – ٥٣٤ ميلادية

أسبابها ونتائجها

هذا هو المهلهل بطل القصة المعروفة بالزير وهي قصة يلعب فيها الخيال دورا عظيما كما يلعب في كل قصة شعبية سواء أكانت عربية أم غربية ..

ولحرب (البسوس) قصة وهذه هي القصة كما رواها الاستاذ فؤاد افرام البستاني في روائعه :

كان وائل بن ربيعة قد عز وساد في قبيلته ، فبغى بغيا شديدا ، واستطال على العرب حتى صار يحمي المراعي ، ويجير الوحش فلا يصاده وكان لا يمر بين يديه احد اذا جلس ، ولا يحتبي احد في مجلسه غيره . وبلغ من عزه وبغيه انه اتخذ جرو كلب، فكان اذا نزل منزلا به كلأ، قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى احد ذلك الكلأ الا باذنه . وكان يفعل هذا بحياض الماء ، فلا يردها احد الا بأمره . فضرب به المثل في العزة فقيل : « اعز من كليب وائل ! » وكان ان ألصق اسم جرو الكلب (الكليب) باسم وائل ، فعرف منذ ذاك ، بكليب .

وكان لمرّة بن ذهل بن شيبان ، عم كليب، عشرة بنين اكبرهم همام، واصغرهم عمرو الملقب بجساس . وكانت الجليلة ، بنت مرّة ، امرأة كليب .

فبينا كليب يطوف ذات يوم في حماه شاهد قنبرة على بيض لها. فلما رأته طارت ، فابتعد عنها كرما حتى عادت الى بيضها . فقال :

يـا لـك مـن قنبـرة بمحجـر خلالك الجو، فبيضي! واصفري!
ونقـري مـا شئـت ان تنقـري لا ترهبي خوفا ، ولا تستنكري
فأنت جاري مـن صروف الحذر الـى بلوغ يومـك المقدّر (١)

البسوس وسراب

وكان رجل من جَرْم من اخوال جساس ، يقال له سعد بن شمر بن قدامة ، قد نزل بأهله وماله على جساس وابيه واخوته، آل مرّة بن ذهل ابن شيبان . فأقام مع (الهيلة) خالة جساس ، وهي التي تلقب بالبسوس، ويقال فيها : « اشأم من البسوس ! » وكان للجرمي ناقة اسمها سراب، فخرجت مع ابل جساس ترعى في حمى كليب . وكان هذا لا يأذن في دخول الحمى الا لابل اولاد مرّة لما بينهم من المصاهرة : فلما طافت الناقة بالحمى ، وطئت عش القنبرة ، فشدخت ما فيه من البيض . ووافق ذلك دخول كليب الى الحمى ، فأنكر العمل ، ولم يعرف الناقة ، فنادى بجساس وسأله عن خبرها ، فأعلمه ، فقال :

ـ « والله ، لقد هممت بقتلها ! فلا تعد هذه الناقة في هذا الحمى ابدا بعد اليوم ! »

فظن جساس انه قال ذلك ليخرج ابله من الحمى ، فقال :

ـ « بالله ، لتعودن مرّة بعد مرّة . ولا تضع ابلي رؤوسها ، الا وهي معها ! »

قال كليب : « وأنصاب وائل ، لئن عادت لأضعن سهمـي فـي ضرعهـا ! »

---

(١) رويت هذه الابيات لطرفة ببعض التحريف .

وانصرف كليب الى اهله مغضبا حتى دخل على امرأته الجليلة ، اخت جساس ، فعرفت الغيظ في وجهه ، فقالت :

ـ « يا ابن العم ، ما اغاظك ؟ »

ـ « ويحك ! اترين احدا من العرب مانعا مني جارا؟ »

ـ « لا اعلم ! الا ان يكون العم او بنيه » تعني اباها واخوتها .

تدخل المهلهل والجليلة

ثم خرج كليب الى الحمى ساخطا لا يلوي على شيء ، وتبعه اخوه المهلهل ، وقد علم بما كان من امره وامر جساس ، فوعظه ، وعظم عليه الصهر والقرابة . فاستشاط كليب وقال :

ـ « انما انت زير نساء ! والله، لئن قتلت ، ما اخذت بدمي الا اللبن ! »

فقال المهلهل

أخ ، وحريم ، سيء ان قطعته ، وسنة عزم هدمها لك هادم

ففكر كليب في امره ، وعاد الى ابياته .

وخرجت الجليلة حتى دخلت على جساس ، فلامته على ما فعل ، فقال :

ـ « تبا لك يا جليلة ! اتعذلينني في منع جاري ؟ فان فعل ولم اقتله، فأمي مثل أمه ! »

وكانت أم كليب آمة . فقالت الجليلة :

ـ « اذن يسلمك قومك ، ويخذلك ابوك . »

ـ « وان خذلت ! »

ـ « لأظنك شر مولود في وائل ! »

ـ « نعم ، ان لم امنع جاري • فان منعته ، فخير مولود من منع من كليب ! » أ١٠

فذهب قوله مثلا • وخرجت الجليلة مغضبة وقالت :

ـ « تعس جساس ! »

مقتـل سـراب

واذ رجعت سألها كليب عن شأنها واين خرجت ، فسكتت • فالح عليها فأخبرته ، واتصل به قول جساس : « ان فعل ولم اقتله، فأمي مثل أمه ! » فخرج الى الحمى ، وترك قول المهلهل ، ورصد على الماء حتى وردت الابل • وكانت سراب قد عقلت خوف الفتنة ، فلا ترد الماء• فلما مرت بها ابل كليب، عركت العقال وتصرعت فيه ، حتى حلته ، ونبعت الابل ، ولم تكن ابل ترد الماء مع ابل كليب حتى تصدر هذه • فسارت الناقة حتى اختلطت بالابل ولا علم لاهلها بشيء • فلما وردت الماء،عرفها كليب وظن ان جساسا اطلقها كيدا له • فاتبعها لما صدرت وتعدّت الطريق حتى دخلت الحمى ، فأكلت من شجرة القنبرة التي اهلكت اولادها، اول مرة • فأنف كليب عند ذلك وغضب ، ورماها بسهم معتمدا ، فأصاب ضرعها ، فردت الناقة رأسها الى مناخها مذعورة يشخب ضرعها دما ولبنا، حتى انتهت الى مكانها بفناء البسوس ، ولها عجيج ورغاء شديدان •

الموثبـات

ولما سمعت البسوس عجيج الناقة ، طرحت خمارها وانبلت اليها مسرعة ، واذا السهم معتدل في ضرعها ، وطرفاه بارزان من جانبيه ، وعيناها تبتدران دموعا ، واخلافها تشخب دما ولبنا • فصكّت وجهها ، وصاحت : « واجوار جساس! واجوار همّام ! واجوار مرّة! واجوار بني ذهل بن شيبان ! »

فابتدرت اليها رجال الحي ، واقبل جارها الجرمي صاحب الناقة، ورأى ما حل بها ، فصاح بالويل والثبور ، وكان قد اشرك فيها البسوس. واقبل جسّاس على فرسه ، فقال : «ما دهاك يا خالة»

قالت : « هذا الباغي ، الذي حمى عليكم الماء والكلأ ، وسامكم الخسف ، عقر سراب ...

ثم جعلت تعنف بني مرّة وتقول :

لعمري ! لو اصبحت في دار منقذ لما ضيم سعد ، وهو جار لأبياتي!
ولكنني اصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد، لا تغرر بنفسك، وارتحل فانك في قوم، عن الجار، اموات
ودونك اذوادي اليك ، فانني محاذرة ان يغدروا ببنيّاتي
وسر نحو جرم ، ان جرما أعزّة ولا تك فينا لاهيا بين نسوات

والعرب تسمي هذه الابيات بالموثبات ، لان البسوس ، لما انشدتها، اوغرت الصدور ، وانف جسّاس واخوته ، واقبل على خالته فسكن روعها وقال :

ـ « اقصري يا خالتاه ! فسيقتل غدا جمل أعظم من ناقتك ! »

فسكتت. وكان عند كليب بعير من كرام الابل يقال له عليّان . فلما بلغه قول جساس ، ظن انه يريد ان يعقر ذلك البعير ، فقال :

ـ« ما يتمنى جسّاس من عليّان ؟ ودونه خرط القتاد في الليلة الظلماء ! »

ثم قتطع جساس ، الى خالته وجارها ، من ابله قطيعا يرضيهما .

مقتل كليب

وأقا، جساس ، بعد ذلك ، يتوقع خروج كليب الى الحمى حتى بلغه انه قدركب اليه . فخرج في طلبه ، وتبعه ابن عمه عمرو بن الحرث لينهاه عن لتعرض له . فرّكض جساس ، وعمرو في أثره ، حتى دنا من

كليب ، وقد دخل الحمى • فهجم من ورائه وطعنه في ظهره فصرعه • فلما تداءمه الموت قال :

ـ « يا جساس ، أغثني بشربة ماء ! »

فقال جساس :

ـ « هيهات ! تجاوزت شبيثا والأحصّ !» وهما منهلا ماء كانا لهم، فذهب قوله مثلاً• وكان مقتله بالذنائب عن يسار فلجة الى مكة ، وفيها قبره •

وانصرف جساس وابن عمه كليب وكان يجود بنفسه • وأقبل الرعاة بعد ذلك ، فكانوا كلما نظروا كليبا على تلك الحال ، يهربون عنه ، وكليب يشير اليهم بيده ان يسقوه فلم يسقه احد حتى مات • وكان ذلك سنة ٤٩٤ (؟) •

وصول الخبر الى قوم جساس

ولما انصرف جساس وابن عمه ، عمرو بن الحرث ، الى اهلهما يركضان ، كان مرّة بن ذهل، ابو جساس ، في نادي قومه• فنظر الى جساس يركض وقد بدت ركبتاه ، وكان فيهما بياض من أثر السرج، فقال لمن حوله : « ان لهذا الفارس شأنا ! واني لأظنه جساسا، فان يكن كذلك، فقد جاءكم بالداهية العظمى ! والله ما خرجت ركبتاه الا لأمر عظيم ! »

فلما انتهى اليهم قال ابوه : « ما وراءك يا جسّاس ؟»

ـ « ورائي أني طعنت طعنة ترقص لها عجائز وائل ! »

ـ « وما هي ؟ لأمك الويل ! اقتلت كليبا ؟ »

ـ « اي ، وأنصاب وائل ! وأي قتل ! »

فقال ابوه : « اذن نسلمك بجريرتك ، ونريق دمك في صلاح العشيرة ! والله ، لبئس ما فعلت ! فرّقت جماعتك ، وأطلت حربها ،

وقتلت سيدها في شارف من الابل • والله ، لا تجتمع وائل بعدها ، ولا يقوم لها عماد في العرب ! »

فأقبل قوم مرّة عليه وقالوا : « لا تقل هذا ولا تفعل، فيخذلوه واياك ! »

فأمسك مرّة ، وغمس يده مع ابنه في الحرب • قال جساس من أبيات :

واني قد جنيت عليك حربا تغص الشيخ بالماء القراح
مذكرة ، متى ما يصح منها فتى ، نشبت بآخر غير صاح
تنكل عن ذئاب الغي قوما وتدعو آخرين الى الصلاح

فأجابه ابوه مرّة وقيل اخوه فضلة ، من ابيات :

فان تك قد جنيت عليّ حربا فلا وان ، ولا رث السلاح
واني ، حين مشتجَر العوالي ، أعيد الرمح في أثر الجراح

ثم قال مرّة لبنيه : « اظعنوا بنا عن مجاورة القوم ، حتى ننظر ما يصنعون • » فظعنوا •

وصول الخبر الى المهلهل

وكان همّام بن مرّة ، اخو جساس ، والمهلهل متنادمين ، متآخيين، متعاقدين ان لا يكتم احدهما عن صاحبه شيئا • فلما ظعن مرّة بأهله ، ارسل الى ابنه همام فرسه مع جارية ، وأمره ان يظعن ويلتحق بقومه • فلما انتهت الجارية اليهما ، وهما معتزلان في جانب الحي، وثب همام اليها ، فسارّته ان جساسا قتل كليبا ، وان اباه قد ظعن مع قومه •• فأخذ همّام الفرس وربطه الى خيمته ، ورجع • فقال المهلهل :

ـ « ما شأن الجارية والفرس ؟ وما بالك ؟ »

ـ « اشرب ودع عنك الباطل ! »

ـ « وما ذلك ؟ »

ـ « زعمت أن جساسا قتل كليبا ! »

فضحك المهلهل وقال : « يد جساس أقصر من ذلك ! » ثم أقبلا على الشراب ، فجعل همّام يشرب شرب الخائف ، والمهلهل يشرب شرب الآمن ويقول : « اليوم خمر وغدا أمر ! » ثم انشد :

دعيني، فما في اليوم مصحى لشارب ولا في غد ما اقرب اليوم من غد

حتى سكر ، فركب همّام والتحق بأهله، متجها نحو اليمين .

وصول الخبر الى بني تغلب ـ رثاء الجليلة

وشاع قتل كليب في الحي ، فقامت عليه النوائح ، وخرجت العواتق من الخدور ، وصكت الوجوه ، وشقت الجيوب . وكان المهلهل قد عاد الى قومه وهو سكران ، فرآهم يعقرون خيلهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم . فقال : « ويحكم ! ما الذي دهاكم ؟ » فأعادوا عليه الخبر فقال : « لقد ذهبتم شر مذهب. أتعقرون خيولكم حين احتجتم اليها ؟ وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم اليه ؟ » فانتهوا عن ذلك. وتقدم المهلهل الى النساء ، فنهاهنّ عن البكاء وقال : « استبقين للبكاء عيونا تبكي الى آخر الابد ! »

فظن قومه ان ذلك على وجه السكر ، لأنه لم يكن يعرف بالشجاعة في الحرب . وكان كليب قد كفاه الحروب والغزوات، وكان يسميه «زير نساء» أي جليسهن لانه كان صاحب لهو .

ولما ناحت النساء على كليب، وخمشن الوجوه ، ونشرن الشعور ، خرجت اليهن امرأته ، الجليلة بنت مرّة ، تبكي معهن . فقلن لها : « أبعدي عنا فانك شامتة ، وقد حرّضت اخاك على قتل سيدنا » . فبكت الجليلة وقالت :

يا ابنة الأقوام ، ان لمت ، فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

فـاذا انـت تبينـت الـذي يوجب اللوم، فلومي واعذلي!
واذا أخت امرىء ليمت علـى شفق منهـا عليـه ، فافعلي !

• • •

جلّ عندي فعل جسّاس بنـا غمـة للدهر ، ليسـت تنجلي
فعل جساس ، على وجدي به ، قاطع ظهري ، ومـدن اجلي !
لو بعين فقئـت عـين سـوى اختها، فانفقأت ، لـم احفـل
يـا قتيـلا قوّض الدهر بـه سقف بيتيّ جميعا ، من عـل
هـدم البيت الذي استحدثته ، وانثنى في هـدم بيتي الاول
خصني قتـل كليـب بلظـى مـن ورائي ، ولظى مستقبلي
ورمـاني قتلـه مـن كثـب رميـة المصحي به المستأصل

• • •

يشتفـي المدرك بالثـأر ، وفي دركي ثأري ثكـل مثكلـي
انـني قـاتلة ، مقتولـة ولعل الله ان يرتـاح لـي !

ثم خرجت حتى لحقت بأهلها .

رثـاء المهلهـل

ولما اصبح المهلهل غدا الى أخيه فدفنه ، وقام على قبره يقول :

أهـاج قـذاء عينـي الادّكار هدوءا، فالدموع لها انحدار!

وقال في هذا الوقت اكثر مراثيه .

الحـرب ومواقعها
الاهبة للقتـال ـ حبوط مساعي المصلحين

وما زال المهلهل يبكي أخاه ويندبه ويرثيه ، ولا يفعل شيئـا سوى الوعيد ، حتى يئس قومه منه وقالوا : « انه زير نساء » ، وسخروا منه

بنو بكر وقالوا : «انما المهلهل نايحة ليس عنده خير ولا شر !» وهمّ بنو مرّة بالرجوع الى الحي .

وبلغ المهلهل ذلك فاتنبه للحرب ، وتوسط نادي قومه ، فجز شعره، وآلى على نفسه ألا يهتم بلهو ، ولا يشم طيبا ، ولا يشرب خمرا ، ولا يدهن بدهن ، حتى يقتل بكل عضو من كليب ، رجلا من بنى بكر ابن وائل .

فقال له اكابر قومه : « اننا نرى ان لا تعجل بالحرب حتى نعذر الى اخواننا . فبالله ، ما تجدع بحرب قومك الا انفك ، ولا تقطع الا كفك !»

فقال : « جدعه الله انفا ، وقطعها كفا . والله، لا تحدثت نساء تغلب اني أكلت لكليب ثمنا ، ولا اخذت له دية ! »

فقالوا : « لا بد ان تغض طرفك ، وتخفض جناحك لنا ولهم » .

فكره المهلهل ان يخالفهم ، فيغضبوا عليه ، فقال : « دونكم ما اردتم ! »

فانطلق رهط من اشرافهم، وذوي اسنانهم حتى أتوا مرّة بن ذهل . فعظموا ما بينهم وبينه وقالوا :

« يا قوم ، قد جنيتم امرا عظيما ، وقتلتم رئيسنا ورئيسكم في ناب من الابل ، وقطعتم الرحم والحرمة بيننا وبينكم ، ونحن نكره العجلة عليكم دون الاعذار . واننا نعرض عليكم احدى ثلاث لكم فيها مخرج ولنا مرضاة : اما ان تدفعوا الينا جساسا نقتله بصاحبنا . واما ان تدفعوا الينا هماما فانه ند لكليب . واما ان تقيدنا من نفسك ، يا مرّة ، فانك رضى للقوم . »

فسكت مرّة ، وقد حضرته وجوه بني بكر بن وائل . فقالوا : « تكلم غير مخذول . » فقال :

« اما جساس فغلام حديث السن ، ركب رأسه فهرب حين خاف . فوالله ، ما أدري اي البلاد انطوت عليه . واما همّام ، فأبو عشرة ،

واخو عشرة ، ولو دفعته اليكم لصيَّح بنوه في وجهي وقالوا : « دفعت ابانا للقتل بجريرة غيره • » واما انا ، فلا اتعجل الموت • وهل تزيد الخيل على ان تجول جولة فأكون اولقتيل ؟ ولكن هل لكم في غير ذلك : هؤلاء بني ، فدونكم احدهم فاقتلوه به • وان شئتم فلكم الف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل • »

فغضبوا وقالوا: «نحن لم نأتك لتؤدي لنا بنيك ولا لتسومنا اللبن!»

ورجعوا ، فأخبروا المهلهل ، فقال : « والله ، ما كان كليب بجزور نأكل له ثمنا ! »

تعبئة الرجال ــ اعتزال الحرث بن عبـاد

وتعاظمت الامور بين الحيين ، وأذن بعضهم بعضا بالحرب• وغضبت قبائل ربيعة لقتل كليب ، ورأوا ان بني شيبان قد ظلموهم اذ قتلوه فـي شارف من الابل ، فظعنت النمر بن قاسط ، وعقيل بن قاسط ، حتـى انضموا الى تغلب ، فصاروا يدا واحدة على بني شيبان • واعتزلت عن حرب التغلبيين ، قبائل من بكر منها يشكر ، وعجل ، وقيس بن ثعلبة ، ورأسها الحرث بن عباد ، فارس النعامة • وكان فارس ربيعة وشاعرها في زمانه ، فاعتزل عن الحرب في من اطاعه من قبائل بكر، ونزع سنان رمحه ، ووتر قوسه • ولما اعتزلت هذه القبائل ، أتتهم شيبان تستنصرهم، فقالوا : « يا بني شيبان ، ظلمتم قومكم ، وقتلتم سيدكم ، وهدمتم عزكم ، ونزعتم ملككم ، فوالله ، لا نساعدكم ! » وقال الحرث : « لا ناقة لي فيها ولا جمل ! » فأرسلها مثلا •

المواقـــع

١ : يـوم النهي

وقصد التغلبيون بني شيبان ، ثائرين كليبا ، حتى التقى الفريقان على ماء لهم يقال له «النهي» • فتجالدوا من الصباح الى المساء ، ورئيس

تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحرث بن مرّة • فأظهر المهلهل العجائب، وانتصر قومه في ذاك اليوم ، غير انه لم يقتل احد من اولاد مرّة • ويقال ان « النهي » كان ثاني أيامهم •

٢ : يوم الذنائب

ثم تفرقوا حتى التقوا « بالذنائب » ، وهو اسم الموضع الذي قتل فيه كليب، وكان هذا اليوم أعظم وقعة لهم فظفرت بنو تغلب ظفرا باهرا وقتلت بكرا مقتلة عظيمة • وكان من جملة القتلى شراحيل بن مرّة ، اخو جساس ، وجد الحوفزان ، البطل الذي اشتهر فيما بعد في معركة ذي‌قار• وقتل ايضا من بكر، تميم بن قيس بن ثعلبة وكان شيخا كبيرا ، قتله عمرو ابن مالك بن الفدوكس، جد الاخطل الشاعر• وقتل غير هؤلاء من رؤساء بكر • وفي هذا اليوم ، يقول المهلهل :

ولقد شفيت النفس من سرواتهم بالسيف ، في يوم الذنيب الاغبس

٣ : يوم عنيزة

وكان ثالث ايامهم يوم « عنيزة » وهي موضع قرب فلجة ، فتكافأوا فيه، وكانوا على السواء، لا لبكر ولا لتغلب • وفي ذلك يقول المهلهل :

غداة كأننا ، وبني أبينا ، بجنب عنيزة ، رحيا مدير

٤ : يوم واردات ــ مقتل همّام

ومر زمن على الفريقين حتى التقوا يوم « واردات » وقيل يوم « القصيبات » فاقتتلوا قتالا شديدا • فظفرت تغلب ايضا ، وكثر القتل في بكر • وكاد جساس يؤخذ في تلك المعركة ، ولكنه فر الى الشام فسلم • فقال المهلهل :

لو ان خيلي ادركتك ، وجدتهم مثل الليوث بشر غب عرين

وكان من جملة من قتل في ذاك اليوم ، عمرو بن سدوس الذهلي، وهمام بن مرّة ، أخو جساس ، ونديم المهلهل سابقا • وكان من حديث

قتله ، فيمـا ذكر الأغاني ، ان هماما وجد غلاما مطروحا ، فالتقطه، ورباه وسماه ناشرة • فكان عنده لقيطا • فلما شب تبين انه من بني تغلب • فلما التقوا ، جعل همام يقاتل ، فاذا عطش رجع الى قربة فشرب منها ثـم وضع سلاحه • فوجد ناشرة من همام غفلة فشد عليه ، فقتله، ولحق بقومه تغلب • وعظمت مصيبة همام في بني ذهل فحمل عباد بن الجهـم اليشكري ، على ناشرة، فقتله بين الصفين •

ثم مر المهلهل بهمَّام ، فلما رآه قتيلا ، بكى وقال : « والله، ما قتل بعد كليب سيد اعز علي منك ! وتالله لا تجتمع وائل بعدكما على خير ابـدا ! »

وقتل المهلهل في ذاك اليوم الشعثمين ابني معاوية • وكانا من سادات بني ذهل وفرسانهم ، وأسر ثعلبة بن عوف ، والمرقش الاكبر ، وهـو عمرو بن سعد بن مالك ، فقتل ثعلبة واطلق المرقَّش • فطلب المرقَّش بدم ثعلبة حتى قتل رجلا من بني تغلب، يقال له عمرو بن عوف •

وقال المهلهل ، بعد تلك المعركة ، قصيدته القافية ، يذكر فيها كليبا وغدر بني شيبان ، ويحرض قومه على متابعة القتال ، وهي التي يسميها العرب بالداهية •

تدخل الحرث بن عباد ــ قتل بجير

وبعد يوم واردات ، اجتمعت بكر الى الحرث بن عباد ، وكان قد اعتزل الحرب كما مر• فكلَّمته بشأن الصلح مع المهلهل• فحمل ابنه بجيرا على ناقة وارسل معه يقول الى المهلهل : « انك قد أسرفت في القتل ، واني حامل اليك ابني فاما ان ترضى بالصلح، واما ان تقتله بكليب فتكف عـن طلب غيره • »

فلما وصل بجير أدى الرسالة ، فبوَّأ المهلهل نحوه بالرمح ، بعد ان سأله عن نسبه • فقال له امرؤ القيس بن أبان ، وكان على مقدمة تغلب

في حروبها . « مهلا يا مهلهل ، فان اهل بيته قد اعتزلوا حربنا ، ولم يدخلوا في شيء ممــا نكره . والله ، لئن قتلته، ليقتلن به رجل لا يسأل عن نسبه . » فقال الغلام : « ان رضيت بهذا بنو تغلب، فقد رضيته ! » وبلغ الحرث قتل بجير ابنه فقال: « نعم الغلام اصلح بين ابني وائل ، وباء بكليب . » فلما سمعوا قول الحرث قالوا له : « ان مهلهلا لما قتله، قال له : « بؤ بشسع نعل كليب ! »

فغضب الحرث عند ذلك ، فنادى بالرحيل وقال :

قرّبــا مربط النعــامة منــي ! لقحت حرب وائل مــن حيال
لا بجير أغنى قتيلا، ولا رهط، ولا كليب تزاجروا عــن ضــلال
لم أكن من جناتها ، علــم اللــه لكني بحرّها ، اليوم ، صال

ثم دعــا الحرث بفرسه النعامة فجز ناصيتها ، وحذف ذنبها ، وكان اول من فعل ذلك من العرب فاتخذته العرب سنّة، اذا قُتل لأحدهم عزيز، واراد ان يطلب ثأره . وارتحل ببنيه ، وبني اخيه ، وقومه فضمهم الــى قبائل بكر ، فسروا بهم ، وقراهم الحرث بن همّام بن مرّة ، وكان رئيس بكر بعد أبيه .

٥ : يوم تحلاق اللمم ــ اسر المهلهل ــ فوز بني بكر

وزحف الحرث بن عباد في قبائل بكر طالبا ثأر ابنه بجير . فقطعوا رملات «خزازي» و «الرغام» ووردوا «ماء قضة» فشربوا . وكان رئيس التنوم ، بعد الحرث ، الفند ، وفارسهم جحدر، وشاعرهم سعد بن مالك ابن ضبيعة ، جد طرفة بن العبد . فالتقى القومان في قضة فكان يــوم عظيم يسمونه «يوم قضة» و «يوم التحالق» و «يوم تحلاق اللمم» لان بني بكر حلقوا رؤوسهم لتعرفهم النساء . وتفصيل ذلك انه لما التقــى القومان قال الحرث بن عباد للحرث بن همّام بن مرّة : « هل تطيعني فيما اشير به عليك ؟ » قال : «نعم!» فقال : «تعطون كل امرأة من نسائكم

هراوة ، وقربة ماء ، وتجعلونهن خلفكم اذا اصطففتم للحرب، وتحلقون رؤوسكم علامة لهن . فاذا جرح منكم رجل عرفنه بتلك العلامة ، فأقبلن عليه يسقينه ، ويأخذن بيده ، واذا مررن بجريح من الاعداء ، ضربنه بالخشب فقتلنه . » ففعل الحرث بن همَّام ذلك .

وانتشب القتال بين القوم فكان الظفر ، اول النهار ، لبني تغلب. ونظر الحرث بن عباد الى فارس من تغلب لا يدنو من كتيبة الا مزقها ، فدعا بعمامة وشد حاجبيه ، ووثب بالنعامة على ذلك الفارس فاحتضنه وأتى به الى قومه ، وهو يقول :

انی أرى ذا جلـد وبـأس تخاله البجـير اذ تقـاسي
فهـو بـه الوفاء دون الناس

وكان ذلك الفارس المهلهل بن ربيعة . الا ان الحرث لم يكن يعرفه لطول العهد بينهما فقال له :

ــ « دلني على المهلهل . »
ــ « ولي دمي ؟ »
ــ « ولك دمك ! »
ــ « ولي ذمتك وذمة ابيك ؟ »
ــ « نعم ذلك لك . »

فقال المهلهل وكان ذا رأي ومكيدة : « انا المهلهل ، خدعتك عن نفسي والحرب خدعة ! »

قال الحرث : « كافئني بما صنعت لك بعد جرمك ، ودلني على شريف من قومك اقتله بولدي بجير . فقال : « لا اعلمه الا امرؤ القيس ابن أبان ، هذاك علمه ! »

فجز الحرث ناصية المهلهل واطلقه ، وقصد قصد امرىء القيس فشد عليه فقتله . وقال :

لهف نفسي على عدي ! ولم اعرف عديـًا ، اذ أمكنتي اليـدان

طل م نطل في الحروب ولم أوتـر بجيـرا ، أبأتـه ابـن أبـان
فارس يضرب الكتيبـة بالسيـف وتسمـو امـامـه العينـان

وكان امرؤ القيس هذا هو الذي نهى المهلهل يوم قتل بجيرا وخوّفه من شؤم العاقبة ، فكان هو المقتول ولم يرع له المهلهل حرمة .

ولم ينته النهار حتى دارت الدائرة على بني تغلب فرجع القوم مهزومين ، واقبل النساء والصبيان يسألون المهلهل عن الحرب وعن اهلهم فيها فقال :

ليس مثلي يخبر النـاس عن آ بائهم قتلوا ، وينسـى القتالا !

واخذت من ذاك الحين شعراء بكر تفتخر « بيوم تحلاق اللمم » هذا . قال طرفة بن العبد :

سائلوا عنـا الذي يعرفنـا بقوانـا يـوم تحلاق اللمم

رحيل المهلهل الى اليمن ورجوعه ـ صلح موقت

وانتشر حديث المهلهل في امرىء القيس بن أبان ، في عشائر وائل، فقالوا : « لا بد من قتل المهلهل فنستريح » . فقامت فرقة من تغلب واكابرها فمنعوهم . وبلغ ذلك المهلهل فأنف وفارق قومه سائرا بأهله وماله نحو اليمن ، فاستجار بمذحج واقام فيهم زمنا .

وجاء اليه رجال من مذحج واشرافهم فخطبوا اليه ابنته سليمى ، فأبى ان يفعل . فأكرهوه فزوجها واحدا منهم . وسار من يومه حتى لحق بالنمر بن قاسط وهم احلافه وانصاره ، فأقام عندهم اياما يرثي كليبا ولا همّ له الا أخذ الثأر .

وكان قد بلغ قبائل بكر وتغلب زواج سليمى في مذحج ؛ وكان بين القوميين منافسة ونفور ، فغضبوا وأنفوا ، وقصدوا بلاد القوم فأخذوا المرأة وارجعوها الى أبيها بعد ان أسروا زوجها .

وملّت جموع تغلب الحرب فصالحوا بكرا ، ورجعوا الى بلادهم، وتركوا الفتنة • ولم يحضر المهلهل صلحهم •

ثم اشتاق الى اهله وقومه ، ولجّت عليه ابنته سليمى بالمسير الى الديار ، فأجابها الى ذلك ورجع نحو قومه ، حتى قرب من قبر اخيه كليب ، وكانت عليه قبة رفيعة • فلما رآه خنقته العبرة • وكان تحته بغل نجيب فلما رأى البغل القبر في غلس الصبح ، نفر منه هاربا ، فوثب عنه المهلهل وضرب عرقوبيه بالسيف وقال :

رماك الله مـــن بغـــل بمشحوذ مـــن النبل

رغبة المهلهل في الحرب ـ جلده

وسار بعد ذلك حتى نزل في قومه زمنا وما وكده الا الحرب، لا يهم بصلح ولا يشرب خمرا ولا يلهو بلهو ، ولا يحل لأمته ، ولا يغتسل بماء ، حتى كان جليسه يتأذى منه من رائحة صدأ الحديد •

فلما كان ذات يوم دخل عليه رجل من تغلب اسمه ربيعة بن الطفيل، وكان له نديما ، فلما رأى ما به قال :

ـ « أنا أقسمت عليك ايها الرجل ، لتغتسلن بالماء البارد، ولتبلّن ذوائبك بالطيب ! »

فقال المهلهل : « هيهات ! هيهات ! يا ابن الطفيل، هبلتني اذا يميني! وكيف باليمين التي آليت ؟ كلا او اقضي من بكر اربي • »

ـ « على رسلك ، ايها الرجل ، فلا ضير عليك • اما غلامك فينهض البيضة وهي مسدولة على عاتقك ، والآخر يصب الماء • واما انا فأبلّ مفارقك بالطيب • »

فقال المهلهل : « اما انا فلا آمرك ، ولا انهاك • انت من دوي رحمي كأخي كليب ، فافعل ما تريد • »

فهمّ ربيعة بذلك • فلما أهوى الغلام بيده الى البيضة لينهضها، اذا

بشيء يدب في البيضة . واحس المهلهل بذلك فقال :
« يا غلام، ردوها ! فبتربة كليب، لا تزول من مكانها حتى أفني بكرا أو أذوق الموت ! ولكن امدد يدك حتى تنال ظهري، فاني أحس شيئا قد أذاني . »

فأهوى الغلام بيده فاذا شيء ، فقبض عليه فأخرجه. فاذا هو قبضة قمل ، بدرت من تحت البيضة ، متراكمة . فلما نظر اليها المهلهل ، قال :
« وأبيك يا ربيعة ، ما نلت ثأري بعد ، او يرجع هذا القمل غقارب وأفاعي ! »

ثم تأوه ، وزفر ، وانشد :

ان في الصدر من كليب شجونا   هاجسات نكأن منه الجراحا

نقض الصلح ـ اسر المهلهل ـ اختلاف الرواة في موته (٣١ ؟)

وبلغت الابيات سادات بني بكر فأجابه الفند قائدهم من قصيدة :

وتركنا ديار تغلب قفرا   وكسرنا ، من الغواة ، الجناحا
وترى الزير يمعج القول فينا   بعد ما صار مفردا ، مستباحا.

فلما بلغت المهلهل ورؤساء تغلب هذه الابيات ، غضبوا ونقضوا الصلح وعادت المناوشات كما في الماضي. وارسل المهلهل الى بكر يطلب جساسا فلحق هذا بأخواله وكانوا في الشام . فأرسل المهلهل في طلبه ثلثين نفرا فأدركوه في الطريق فاقتتلوا ، فجرح جساس جرحا مات منه، وقيل لم يمت من ذلك ، بل قتله الهجرس ، فيما بعد، كما سيأتي .

ثم ان المهلهل اغار غارة على بني بكر فظفر به عمرو بن مالك بن ضبيعة ، فمكث المهلهل في اسره طويلا حتى سقاه خمرا فتغنى بقوله : « طفلة شتة المخلخل ... » كما ذكرنا في المقدمة ، فغاظه ذلك

فأقسم ان لا يذوق عنده خمرا ولا ماء ولا لبنا حتى يرد ربيب الهضاب (وربيب اسم جمل له كان اقل وروده في الصيف الخمس أي مرة كل خمسة ايام) فلم يرد ربيب حتى مات المهلهل عطشا • وقيل بل اشار البعض على عمرو ، عندما رأوا المهلهل يكاد يموت ، ان يرسل فيأتي بربيب قبل يوم وروده ، فيسقى ويتحلل هو من يمينه، ففعل • ولما تحلل من يمينه سقى المهلهل ماء موبوءا فمات المهلهل من فساد الماء لا من العطش •

هذا وهناك رواية ، واسعة الانتشار ، عن موت المهلهل لا نرى بأسا في ايرادها ، ونحن لم نحصر بحثنا في الحقائق التاريخية :

قيل ان المهلهل فدى نفسه بمائة من الابل من آسره عوف بن مالك• ومضى بأهله الى اليمن فقدمهم بين يديه في اول النهار • وتخلف بعبدين له يريد غرّة عوف بن مالك ليقتله • فلما لم يصادف غرّة له سار في اثر قومه حتى اذا كان في بعض الفلوات ، نزل في ظل شجرة ، فنام • وكان العبدان قد ضجرا منه لطول بلائه ، لأنه قد غزا بهما وهما غلامان، حتى وخطهما الشيب، ولم يزل على عزمه ، فوثبا عليه ، واخذا بيديه ، فاتبه وقال : « ما بالكما ؟ » قالا : « نذيقك ما اذقت العرب ! »

قال : « ا ذلم يكن بد من ذلك، فاذا اتيتما ابنتيّ ، فخصّاهما عني بالسلام وقولا :

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا   لله دركما ! ودر ابيكما !

قالا : « نعم ! » ثم طعنه احدهما • فقال المهلهل :

« ثكلتك امك ! لو اخذت البيضة عن رأسي لكفاك اخذها ، دون ان تضع يدك في سيدك • »

• فأخذا البيضة، فامتنعت عليهما • فاقتلعاها ، فخرجت أم رأسه، وبقي الدماغ ينتفض من تحتها • فقال احدهما : « لله درك من قتيل وفى لأخيه ، حتى اجابه بمصرعه كريما ! »

ثم دفناه ، ولحقا بالأهل يبكيان ويقولان : « وامهلهلاه ! واسيدنا! وافارس العرب ! »

فلما سمعتهما ابنته سليمى ، وكان قد تزوجها الهجرس بن كليب، قـالت :

— « ما وراءكما ؟ »

— « مات ابوك وتركنا عيلة على القوم ! »

— « فهل اوصاكما بشيء ؟ »

— « لا ! غير اننا سمعناه وهو يجود بنفسه ، يقول :

من مبلغ الاقوام ان مهلهـلا لله دركما ودر ابيكمـا !

ففكرت سليمى ومن حولها فلم يجدوا مخرجا لذلك . واذا ابنته الصغيرة تبكي وتقول : « واثكلات ! قتيل ، ورب الكعبة ، اوثقـوا العبدين . »

فأوثقهما فتيان من تغلب ، فاختلط كلامهما . فقالت : « أتدرون مـا اراد ابي ؟ » قالوا : « لا ، فماذا قال، يا ابنة تغلب ؟ » قالت : « ما اراد الا يقول :

من مبلـغ الاقوام ان مهلهـلا اضحى قتيلا في الفلاة، مجدلا!
للــه دركمـا ودر ابيكمـا ! لا يبـرح العبدان حتى يقتلا

فأمروا بالعبدين فضرب عنقاهما. وكان ذلك نحو سنة ٥٣١ م.

مقتل جسّاس (٥٣٤)

وبعد موت المهلهل خفت المناوشات حتى كادت الحرب تنتهي. وكان آخر من قتل فيها ، جساس بن مرّة ، مضرم نارها . وتفاصيل ذلك ، على ما رواه ابو عبيدة، ان جساسا كان قد قتل كليبـا وامرأته الجليلة حامل، فتحولت الى أهلها، كما ذكرنا، فولدت غلاما سمته الهجرس ، رباه جساس

فكان لا يعرف أبا غيره • فزوّجه ابنته • فوقع بين الهجرس ورجل من بني بكر كلام فقال له البكري :

ـ « ما انت بمنته حتى نلحقك بأبيك ! »

فأمسك عنه ودخل الى أمه كئيبا • فسألته عما به، فأخبرها الخبر •

فلما أوى الى فراشه ، تنفس تنفسة ارتعبت منها امرأته • فخرجت فزعة حتى دخلت على أبيها ، فقصت عليه قصة الهجرس • فقال جساس : « ثائر ورب الكعبة ! »

وبات جساس على مثل الرضف حتى أصبح ، فأرسل الى الهجرس، فأتاه ، فقال له :

ـ « انما انت ولدي ، ومني بالمكان الذي قد علمت ، وقد زوّجتك ابنتي وانت معي• وقد كانت الحرب في ابيك زمانا طويلا حتى كدنـا تتفانى، وقد اصطلحنا وتحاجزنا • وقد رأيت ان تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح ، وان تنطلق حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا وعلى قومنـا • »

فقال الهجرس : « انا فاعل• ولكن مثلي لا يأتي قومه الا بلأمته وفرسـه • »

فحمله جساس على فرس ، وأعطاه لأمة ودرعا • فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما ، فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا اليه من العافية • ثم قال :

« وهذا الفتى ، ابن اختي، قد جـاء ليدخل فيما دخلتم فيه، ويعقد فيمـا عقدتم ! »

فلما قربوا الدم ، وقاموا الى العقد ، اخذ الهجرس بوسط رمحه، ثم قـال :

ـ « وفرسي وأذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل ابيه وهو ينظر اليه ! »

ثم طعن جساسا فقتله ، ولحق بقومه . فكان آخر قتيل من بني بكر بن وائل .

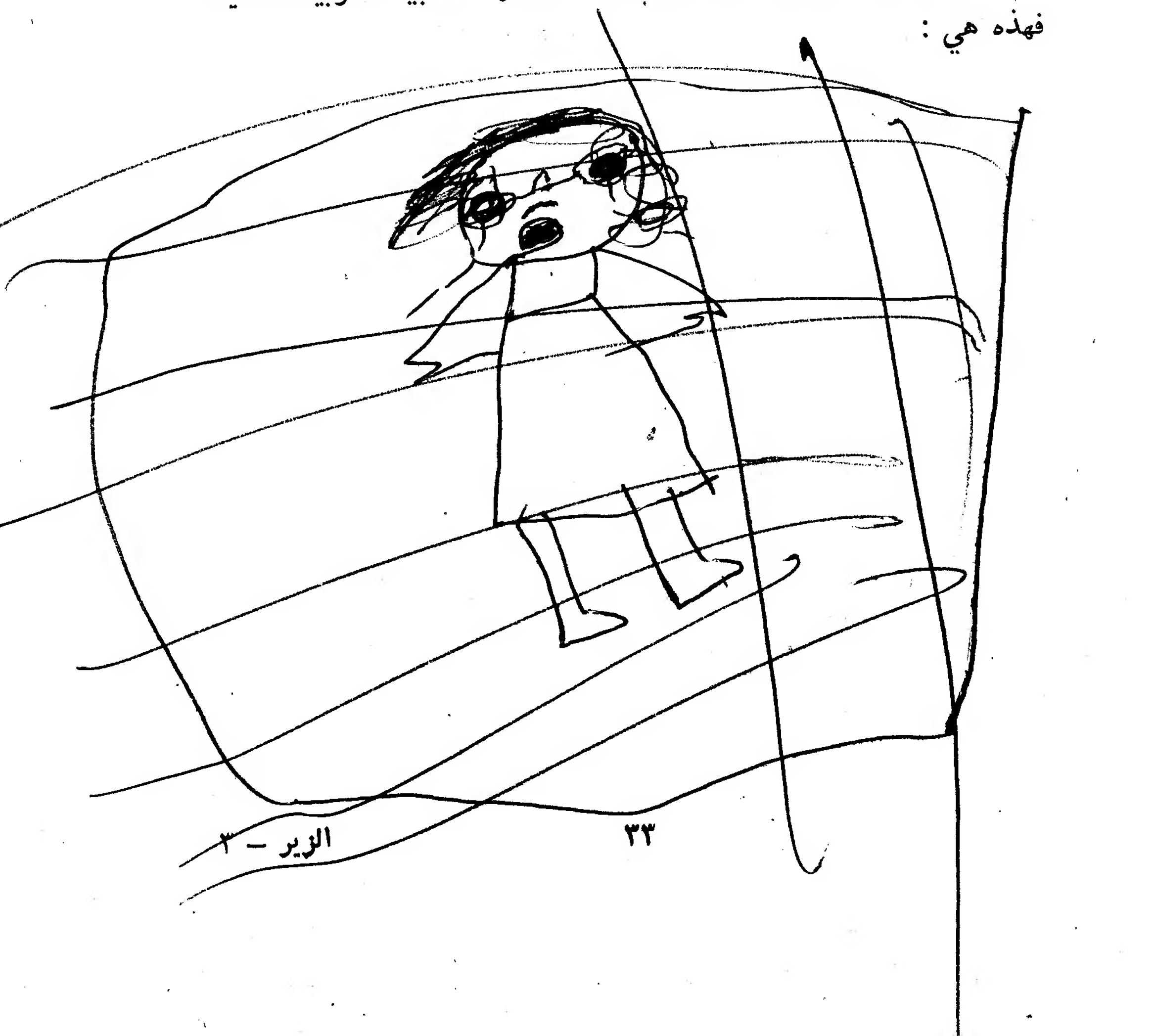
ولقد دامت الحرب اربعين سنة كمـا يقول المؤرخون .. حصلت في اثنائها خمس معارك فقط ، وبين الواحدة والاخرى سنوات ..

وفي هذه الفترات من الزمن كانت تحصل بعض الحوادث كأن يلقى الرجل الرجل .. والرجلان الرجلين فيلجأان الى السيف يحكم بينهما. وليست هذه حربا وانما هي مواقع شخصية محدودة النتائج والاثر .

وأخيرا وبعد موت المهلهل تدخل المصلحون وانتهت الحرب .

واما عدد القتلى طوال هذه السنوات فلا يزيد عن المئات بالتأكيد..

وأما قصة المهلهل كما نقلتها لنا المصادر الشعبية العربية القديمة فهذه هي :



بسم الله الرحمن الرحيم

خروج تبع

اما بعد حمد الله . والصلاة على رسله وانبياه . وبعد فهذه سيرة الاسد الكرار والبطل المغوار . الذي شاع ذكره في الاقطار ، واذل بسيفه كل صنديد وجبار . المهلهل بن ربيعة صاحب الاشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة . وما جرى له في تلك الايام . مع ملوك التبابعة وفرسان الصدام من الحوادث والوقائع التي تطرب القارىء وتلذ السامع.

وقبل الشروع في هذه السيرة العجيبة واخبارها المطربة الغريبة ، رأينا ان نذكر طرفاً من اخبار العرب أهل الفضل والادب ، افادة للمطالعين ، ونزهة للسامعين . فنقول وبالله المستعان : ان اصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والاوان ، من ولد نزار بن معد بن عدنان. وكان قد ولد لنزار المذكور اربعة اولاد من الذكور ، كل منهم بالفضل والبأس مشهور ، وهم مضر وانمار وإياد وربيعة فارس الطراد . ومنهم تشعبت قبائل الاعراب وملأت البراري والهضاب . فمن نسل اياد ملوك التبابعة الذين اخبارهم بين الناس شائعة ، ومن نسل ربيعة ومضر وانمار عرب الحجاز ونجد والعراق وسكان القفار .

وكانت العرب في ذلك الزمان منقسمة الى جزئين وهما قيس ويمن فسكان اليمن هم اليمنيون وباقي العرب هم القيسيون . وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد في البر الاقفر ، حتى اشتهرت العشائر والقبائل

وظهر الامير ربيعة واخوه مرّة ابنا وائل • وربيعة المذكور هو ابو الزير الفارس المشهور صاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة •

قال الراوي وكان ربيعة في ذلك الزمان من كبار امراء العربان •• وكان اخوه مرّة من الامراء والاعيان ، وكانت منازلهم في تلك الايام في اطراف بلاد الشام ، وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما بكر وتغلب • وولد لربيعة خمسة اولاد مثل الاقمار وهم كليب الاسد الكرار، وسالم البطل الشهير الملقب بالزير ، وعدي ودرعان وغيرهم من الشجعان•

وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الاسود والسباع اسمها (اسمى) وتلقب (بضباع) ، واما الامير مرّة فله عدة اولاد قد اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس منهم همام وسلطان ، وجساس ، وله بنت جميلة فاضلة نبيلة يقال لها (الجليلة)• فاتفق في بعض الايام ان الامير مرة دخل على اخيه ربيعة في الخيام وخطب ابنته ضباع لابنه همام •

فلما فرغ ربيعة من كلامه وشعره ونظامه فهم اخوه مرة وشكره ثم باشروا القوم بالعرس من ذلك اليوم ، وعقدوا عقد الامير همام على (ضباع) بنت الكرام، كما جرت عادة الملوك العظام ، فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح واطعموا كل آت ورائح • وما زالوا في سرور وافراح وبسط وانشراح ودق وطبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة ايام•• ثم زفوا ضباع على الامير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة ، حضر فيها كثير من سادات العرب واهل المناصب والرتب، ودخل همام على ضباع وحظي بحسنها وجمالها ونالت منه غاية امالها ، وسوف يلد لهما ولدان، هما : شيبون وشيبان سيأتي حديثهما بعد الآن•

هذا ما كان من خبر بني قيس المدعوين بالقيسية ، ولنتكلم الان عن اليمنية وما جرى لهم في تلك الايام من الامور والاحكام والحروب والاهوال في ميادين القتال فنقول وعلى الله الاتكال •

كان في قديم الزمان في بلاد اليمن ملك عظيم الشان صاحب جند

واعوان وابطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع اليماني، ولم يكن له بين الملوك ثاني، وهو اول اليمنية كما كان ربيعة أول القيسية .
وكان شديد البأس قوي الراس طويل القامة عريض الهامة لا يعرف الحلال من الحرام ولا يحفظ العهد والزمام وكان يحب النساء الملاح والمزاح معهن في المساء والصباح .

ومن اعماله الغريبة واصطلاحاته العجيبة كما ذكر اصحاب الروايات انه كان في كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك والسادات وكانت الملوك تخافه وتخشاه ، وتحسب حسابه وتترضاه ، وتحمل له الخراج وتعلل له الخاطر والمزاج .

وكان عنده من الابطال والفرسان الف عنان ، وهم عشر كرات مستعدين للحرب والغارات ، وكان يشرب المدام في الليل والنهار ، ولا يبالي في الاموال والاخطار ، وكان له وزير عاقل خبير قوي الجنان اسمه نبهان ... قد امتاز على الاقران بفعل الخير والاحسان ، وكان كثيرا ما ينهى الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان ... فاتفق في يوم من الايام ان التقى الملك تبع مع نبهان وقال له في الديوان بحضور الامراء والاعيان : هل سمعت ايها الوزير والعاقل الخبير عن ملك كبير عنده رجال كرجالي أو اموال كعدد اموالي ؟

فقبل الوزير الارض ووقف في مقام العرض وقال : اعطني الامان يا ملك الزمان وانا احدثك بأخبار ملوك الامم اصحاب البطش والهمم، وما عندهم من الجيوش والعساكر والمهمات والذخائر .

فقال : قل وعليك امان من نوائب الزمان .

فقال : اعلم ايها الملك العظيم ، انه يوجد مثلك في هذه الاقطار من الملوك الكبار اصحاب المدن والامصار ، ولكن يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة والاقتدار عددهم كثير وجيشهم غفير ، يقال لهم بنو قيس وسيدهم اسمه ربيعة ، ولهم في الحروب والغارات وقائع مهولة

مريعه ، وهم من اولاد مضر ، قد امتلكوا اكثر جهات الارض في الطول والعرض ، وهم اعظم منا واكثر واشد بأسا .

فلما انتهى الوزير من هذا الكلام وسمعه من حضر في ذلك المقام اغتاظ الملك وتأثر ، وكان عليه أشد من ضرب السيف الابتر ، فصاح على الوزير وزعق وقال له بكلام الحنق : هكذا تفضل علي بني قيس ، وما دام الامر كذلك لا بد من ان أقصدهم بفرسان المعارك واقتل ملكهم ربيعة، واوردهم موارد المهالك ، واخرب بلادهم وديارهم وامحو بالسيف اثارهم واتملك تلك الديار بالقوة والاقتدار. ثم انشد هذه الابيات على مسامع الامراء والسادات :

يقول التبعي اليمني المسمى ... بحسان فما للقول زورا
ملكت الارض غصبا واقتدارا ... وصرت على ملوك الارض سورا
وطاعتني الممالك والقبائل ... وفرسان المعامع والنمورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد ... شديد البأس جبارا جسورا
وقالوا انه يدعى ربيعة ... امير قد حوى مدنا ودورا
تولى الارض في طول وعرض ... فكم اخرب وكم شيد قصورا
فقصدي اليوم اغزوه بجيشي ... واترك ارضه قفرا وبورا
أسير بهم الى تلك الاراضي ... واملك للقلاع والقصورا
ويغنم عسكري منهم مكاسب ... وأعطيهم بنات كالبدورا
ويبقى الحكم لي برا وبحرا ... ويصفى خاطري بعد الكدورا

فلما انتهى (التبع) من شعره ونظامه وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه ندم وتكدر الرجل الذي اعلمه بهذا الخبر ولم يعد يمكنه الا الامتثال وتجهيز الفرسان والابطال الى الحرب والقتال، فنزل من الديوان وهو مقهور غضبان وأمر بدق الطبل والنحاس لاجتماع العساكر وباقي الناس. وكان هذا الطبل يقال له (الرجوج) وهو من اعظم الطبول وكان يدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التبابعة العظام ... وكانت

الناس نسمع صوته عن مسافة ثلاثة ايام. وكان الملك حسان اذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه واين ما ذهب يتبعه . ولم يزل هذا الطبل يتصل من ملك الى ملك حتى وصل الى يد الامير حسن سيد بني هلال المشهور بالاحسان والافضال . فلما دقت العبيد الطبل وسمعت صوته قواد الفرسان اقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه ومثلوا بين يديه ، وسألوه عن سبب دق الطبل الرجوج فحدثهم بقرار الملك بالمسير الى تلك البلاد للغزو والجهاد . ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح . ولم تكن الا مدة قصيرة حتى تجهزت المراكب . وتجمعت العساكر من كل جانب . وكان من جملتهم عشرة ملوك كبار كل ملك يحكم على آلاف الابطال فحضروا الى امام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الارض بين يديه . وقالوا له : ها نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك .

فشكرهم وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال الجزيل وبكل خير جميل ، ثم أمر الوزير بالاستعداد والرحيل على غزو بني قيس وتلك البلاد، وطلب منه ان يأتي بالعساكر من تحت القصر وهي نازلة الى البحر.. ليشاهد احوالها ويرى سلاحها واثقالها. فامتثل الوزير وفعل .. فانشرح صدر الملك عند رؤية العساكر والجحافل وهي في السلاح الكامل الاستعداد للحرب والقتل .

ثم نزلت العساكر والاجناد في المراكب مع الامراء والقواد ، وكان الملك حسان قبل خروجه من الاوطان قد سلم زمام ملك اليمن الى (الصحصاح بن حسان) وهو ملك كبير وفارس شهير كان يميل اليه ويعتمد عليه فأوصاه ان يجمع له المال في كل عام ويرسله الى بلاد الشام.

ثم نزل مع الوزير في مركب كبير واقلعوا من الاوطان وقصدوا بلاد الحبش والسودان . وعند وصولهم الى ذلك الجانب القوا المراسي ونزلوا الى البر بالقوارب ونصبوا الخيام والمضارب ، وفي الحال ارسل

الملك تبع وزيرا اسمه زيد بن عقبة بألف فارس منتخبة ليعلم ابن اخته الرعيني بقدومه الى تلك الاقطار ـ لانه كان ملك هاتيك الديار ـ ويأمره بسرعة الحضور وتقديم ما يلزم الى الجيش والعسكر. فلما علم الرعيني بذلك الخبر بادر في الحال بالفرسان والابطال والمهمات الثقال الى ان التقى به في الصيوان ومن حوله الوزراء والاعيان ، فدخل وسلم عليه وقبله بين عينيه وقدم له الذخائر والمهمات وسأله عن سبب قدومه تلك الجهات ، فاعلمه بواقعة الحال وانه قاصد غزو بني قيس وتلك الاطلال..

باتوا تلك الليلة في الخيام وفي الصباح امر الملك العشرة الملوك العظام ان يتأهبوا للرحيل الى بلاد الشام ، وان ينقسموا الى قسمين ويتفرقوا الى فرقتين فخمسة تسير الى اليمين وخمسة من على الشمال . واوصاهم ، كل ما اقبلوا الى مدينة يملكونها في الحال ، ويقيمون فيها نائبا من سادات الرجال ... فأجابوه بالخضوع والامتثال ... وعند ذلك دقت الطبول والزمور وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتفع الصياح ولمع السلاح وترتبت الكتائب وسارت المواكب في تلك البراري والسباسب . وكانوا كلما وصلوا الى مدينة او بلد امتلكوها بحد السيف المهند حتى ملكوا اكثر البلاد وأطاعتهم العباد . وما زال تبع يتقدم حتى أقبل الى مدينة الشام ... فأحاط بها من جميع الجوانب بالمواكب والكتائب ، وكان نائب الملك ربيعة في دمشق الشام يدعى زيد بن علام وكان ربيعة واخوه مرّة في وادي الانعمين، وهو مكان يبعد عن المدينة مسافة يومين . فأرسل الملك تبع الى نائب الامير ربيعة احد الوزراء يطلب منه الخضوع لامره وتسليمه ، فلما وصل اليه دخل عليه واعلمه بالخبر وما قال تبع وأمر .. فأجاب بالسمع والطاعة ونهض مسرعا في تلك الساعة واخذ معه الاموال والذخائر وخرج في جماعة من الاكابر حتى التقى بتبع في الخيام، فحياه بالسلام، فترحب به تبع غاية الترحيب وأمره

بالجلوس فجلس بمكان قريب منه. فقال تبع هل انت حاكم الشام ؟ قال : نعم ايها الملك الهمام ..

فسأله عن حكم ربيعة فقال له : ظالم على قومه وكل الرعايا تشكو من ظلمه وتتمنى له الاذى والضرر والموت الاحمر ، والحمد لله رب البرية الذي أعاننا بك حتى تتخلص من نير العبودية فسنخدمك خدمة مرضية ، ونصير لك من جملة الرعية . وما كان اقواله ذلك لتبع الا من الخوف والفزع .

فتبسم تبع من هذا الكلام وقال : ابشر ببلوغ المرام فانك ستكون نائبي في بلاد الشام وتحمل لي الخراج في كل عام .

فقال : سمعا وطاعة يا ملك الزمان .

ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع، وقال له : اذهب الان مع وجوه اهل المدينة وباشر في الضيافات والزينة فاننا سنحضر الى عندك بعد ثلاثة ايام وتتفرج على الشام ثم نرجع الى المضارب والخيام .

فقال : اهل وسهلا ، الارض ارضك والبلاد بلادك .

ثم ودع الملك وسار بمن معه من الاكابر والتجار وأخذ يسعى في أمر الوليمة .

هذا ما جرى لهؤلاء من الاخبار . اما ما كان من ربيعه وبني قيس الاخيار فانهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع الى تلك الديار وافتتاحه المدن والامصار أخذهم القلق ، وكان قد بلغ ربيعة قول زيد الى تبع حسان وكيف انه نسبه الى الظلم والعدوان مع انه كان من أعدل ملوك الزمان فأخذه الغضب والقلق وزاد به الحنق ، فجمع أكابر قومه وأخاه مرّة ومن يعتمد عليهم من أهل الشجاعة والقدرة وجعل يخاطب الامراء والسادات بهذه الابيات :

يـا قومنا اسمعوا وامتثلوا قولي   اتتم بنـو قيس ابطال وشجعان

كنـا بخير وكان السعد يخدمنـا　　نقري الضيوف ونكسي كل عريان
والجوخ والخز والسمور يأتينـا　　من سائر الارض والملبوس الوان
جانا من البحر ذا التبع يحاربنـا　　صعب المراس شديد البطش سلطان
حـاز البـلاد ومـا امير خـالفه　　الكل طاعـوه القاصي مع الدان
معاه عسكر كثير مـا لـه عـدد　　ابطال حرب وفرسـان وشجعان
أنـا بقيت كبير السن يـا عربـي　　ما لي جلد في اللقا في وسط ميدان
مرة اخوي بهـذا الرأي ساعدني　　همام يا ابن اخي ما كنت كسلان
ما يترك الكأس من يده ولا سـاعة　　الا بوقت اللقـا او بعض احيان
كيف العمـل ننهـزم او نقـابله　　شوروا الصواب اخواني وخلاني

فلما فرغ ربيعة من شعره قالت السادات والفرسان عن فرد لسان : ان هذا امر لا يطاق وعلقم مر المزاق ، وليس لنا غير الهزيمة والا حكم سيفه ومحانا عن بكرة ابينا ... وبعد مداولة طويلة وجلسة مستطيلة استقر رأي الجمهور على ان يذهبوا الى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبون لانفسهم الامان ، ويقدموا له التحف الحسان لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة . هذا ما كان من امر بني قيس .

واما الملك تبع فانه ركب في اليوم الثالث في وجوه قومه وتوجه الى مدينة الشام لاجل الزيارة كما تقدم الكلام ، فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والاكرام واجلسه في أعز مقام وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمة ، فأحسن اليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على أكابر اهل المدينة ثم رتب عليهم الخراج في كل عام ، وعاد الى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد منشرح الصدر ..

واما بنو قيس فانهم جمعوا التحف الحسان والاموال التي يكل عن وصفها اللسان : من عقود وجواهر ومهمات وذخائر وقماش فاخر وحملوها على ماية جمل . وركب ربيعة مع اخيه مرة في ماية بطل وسار

معهما جماعة من الامراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدّوا في قطع البراري والقفار حتى وصلوا الى تلك الديار• وعند وصولهم الى المضارب نزلوا عن ظهور الجنائب واجتمعوا بخزندار الملك تبع ــ وكان اسمه ثعلبة ابن الابشع ــ فقدموا له تلك التحف الحسان ليقدمها الى الملك تبع حسان ويعلمه بقدومهم الى الديار • فقدمها الخزندار واعلم الملك بمجيء القوم في ذلك اليوم وان مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ورجليه ويحصلوا على امانه ويكونوا من جملة خدامه واعوانه• فتبسم تبع والتفت الى وزيره نبهان وقال له : اين ملوك قيس العظام الذين قلت لي عنهم ما قلت من الكلام ، واني لاصلح ان اكون من جملة الخدام ؟ ها هم قد حضروا الان الى تقبيل اقدامي ليكونوا من جملة اعواني وخدامي •

فقال الوزير : وقاك الله من كل شر وضرر وجعل عاقبة هذا الامر الى خير •

فبينما هم في الحديث والكلام اذ دخل على الملك امراء بنو قيس الكرام فقبلوا الارض بين يديه ووقعوا على رجليه• فأخذ تبع ينظر اليهم ويتأمل فيهم، فحانت منه التفاتة فنظر الامير ربيعة واقفا في باب الصيوان وهو مثل الاسد الغضبان، وكان الامير ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك حسان لان نفسه لم تكن تطاوعه على الذل والهوان • فالتفت الملك تبع الى الترجمان وقال : من يكون هذا الانسان ؟ فاني أراه معجبا بنفسه غاية الاعجاب غير حاسب لي أدنى حساب •

فسأل الترجمان عنه فقالوا هذا سيد بني قيس الامير ربيعة المعظم•

فلما سمع تبع هذا الخبر شخر ونخر وتبدل عيشه بكدر واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر ثم ناداه فحضر• وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه فقال تبع :

ــ أأنت سيد بني قيس الكرام ؟

ــ نعم ايها البطل الهمام •

— ولماذا أسأت الادب واحتقرتني دون باقي امراء العرب الذين تمثلوا امامي وقبلوا ايادي واقدامي ؟ تقدم الان وقبل رجلي يا مهان والا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة بين الانام .

فقال ربيعة وقد استعظم ذلك الامر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر لانه كان من أشرفهم حسبا واعلاهم نسبا :

— اعلم يا ملك الزمان بأنني ملك صاحب قدر وشان ، ما ذللت نفسي لانسان وهذه هي بلادي وملك آبائي واجدادي وانا ما تعديت عليك وما اوصلت اذيتي اليك، بل انت شنيت علينا الغارة وامتلكت بلادنا والحقت بنا الخسارة ، وذلك بدون سبب من الاسباب فكفى الذي فعلته ايها الملك المهاب . وقد بلغت منا مقصدك، فلا انت تقبل يدي ولا انا أقبل يدك .

فلما سمع منه تبع هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال. وقال :

— يا من هو اذل من التيس . اني ما أتيت من بلادي بهذا الجمع المتزايد الا حتى اجعل زمام الدنيا في قبضة ملك واحد (ثم صاح بعد هذا الكلام على الاعوان والخدام بصوت كالرعد في الغمام) يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبير ومن معه من بني قيس الطناجير وقيدوهم في الجنازير .

فامتثلوا أمره في الحال وقيدوا ربيعة وباقي الرجال. وبعد ان قيدوه واوثقوه أمر الملك بشنقه فشنقوه . هكذا انتهت حياته وانقضت ايامه وساعته وبقي معلقا ثلاث أيام حتى جاء نائبه الامير زيد الى الشام فغسله وكفنه ثم واراه التراب ودفنه .. ثم جاء في باقي الرجال وارادوا ان يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الامير مرة من بين ايدي الفرسان وتقدم الى عند الملك تبع حسان وقال : الامان يا ملك الزمان ، نحن الان عبيدك وطوع يديك وجميع امورنا راجعة اليك فاعف عنا فقد صرت لنا ملكا ...

فلما سمع تبع كلامه وعرف قصده ومرامه عفى عنه واعطاه الامان • وكذلك صفح عن باقي الامراء والاعيان وجعلهم من جملة الرعايا والخدام يدفعون له الخراج في كل عام • وقال لمرة :

ـ قررت ان اتخذ مدينة الشام كرسي مملكتي بعد هذا اليوم ، فسر انت واهلك من هذه الديار وتفرقوا في سائر الاقطار وكونوا لأوامري طائعين ولحكمي خاضعين سامعين •

ثم انه قسمهم الى عدة فرق واقام على كل فرقة ملكا من سادات بني قيس الاعيان • فجعل الامير مرة علي الفرقة الاولى وامره ان يسكن مع قومه في نواحي بيروت وبعلبك والبقاع • وجعل الامير عبس على الفرقة الثانية وامره ان يقيم في بلاد السرور وعباد • وأقام الامير عدنان على الفرقة الثالثة وامره ان يقيم في بلاد العراق وتلك النازل ولاافاق • وكان الملك تبع قد شتت بني قيس بهذه الوسيلة خوفا من ان يقع منهم في حقه مكيدة او حيلة •

وكذلك تفرقت بنو قيس في البراري والتلال وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الاذى اليهم ، لانهم كانوا في ارغد عيش واهناه وفي عز وجاه ، كلمتهم بين الناس مسموعة ورايتهم فوق هام المجد مرفوعة لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم قلق ولا ضجر ، الى ان اصابتهم البلية وحلت بهم تلك الرزية فبكوا على تفرق بعضهم البعض وتشتتهم في اقطار الارض •

ومن غريب الاتفاق ما جرى للاربعة اخوة الذين اشتهروا في بني قيس بالحمية والنخوة •• ذلك انه كان لزوجة الامير ربيعة المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور اربعة اخوة من الذكور وهم جوشن ، وناجد وجودر والامير منجد ، وكانوا من اجود الناس قد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس ، فلما رأوا افعال (تبع) الشنيعة وكيف انه قتل صهرهم ربيعة ساءهم ذلك ••• وتوقد قلبهم من الغيظ بلهيب الجمر

لكنهم اخفو الكمد واظهروا الصبر والجلد ، فحملوا عيالهم وساقوا غنمهم وجمالهم وجدوا في قطع البراري والاكام حتى وصلوا الى بلاد الشام فنزلوا بقرب صيوان تبع حسان ، فسألهم : من تكونوا من العربان؟

فقال له ناجد : اعلم ايها السيد الماجد اننا من خيار العرب اصحاب الحسب والنسب ، وكان الامير ربيعة متزوجا باختنا جميلة وكنا على زمانه في نعم جزيلة والان قد امسينا في ذل وهوان ليس لنا قدر ولا شان ، وقد قصدناك واتينا اليك وجعلنا اعتمادنا بعد الله عليك لعلك ترحمنا وترثي لحالنا وتبلغنا غاية امالنا وتجعلنا لك من جملة الاعوان والعبيد والغلمان ، فتستقيم امورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع . فأعجبه كلامهم وبلغهم الملك تبع مرامهم وجعلهم من جملة وزرائه واكابر امرائه وكان يستشيرهم في اكثر الاوقات ويفضلهم على الرؤساء والسادات ، وكانوا يترقبون الفرص ليأخذوا بالثأر ويزيلوا عن قلوبهم الغصص . ولما بلغ تبع الغاية دخل الى مدينة الشام ونزل بالسراية، فأطاعته العباد وخضعت له جميع البلاد وشاع ذكره في الاقطار وتحدث به الملوك الكبار واستمر على هذه الحالة مدة ثلاثين سنة تهاديه الملوك الاكاسرة وتهابه الملوك القياصرة .

وكان قد بنى قصرا مرتفع البنيان مشيد الاركان وجعل ابوابه من الفضة والذهب ورصع حيطانه بالجواهر والدر المنتخب، فكان من عجائب الزمان .. لما فيه من التحف الحسان التي تدهش النواظر وتحير العقول والبصائر . فاتفق ذات يوم بينما هو جالس في الديوان ومن حوله الاكابر والاعيان وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتي اشتهرن بالفضل والادب والحسن والجمال واللطف والكمال اذ قال بعض الوزراء انه لا يوجد في هذا الزمان بين بنات العربان في المحاسن والاوصاف البديعة اجمل من الجليلة ابنة مرة اخي ربيعة . واخذ الوزير يطنب في اوصافها وآدابها والطافها ثم قال في آخر الكلام :

ـ هذه الصبية ، أو البدر التمام مخطوبة لابن عمها الامير كليب ومراده ان يتزوج بها في هذه الايام فهنيئا لمن كانت زوجته وقرينته وحبيبته.

فلما سمع تبع بذكرها وانها من اجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب الى ابيها مرة كتابا بالحال يأمره ان يرسل لـه الجليلة بدون اهمال لان مراده ان يتزوج بها ويكون صهره وبهـذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره . ثم ختم كتابه يتهدده بالانتقـام ان لـم يمتثل الى هذا الكلام ..

ثم أمر تبع وزيره نبهان ان يركب في جماعة من الفرسان ويقصد تلك القبيلة ويسلم الكتاب الى مرة ويأتيه بالجليلة . فامتثل الوزير أمره وجد في قطع القفار حتى وصل الى تلك الديار ، فرأى القوم في سرور وافراح وشرب مدام وانشراح لانهم كانوا يستعدون في تلـك الايـام لزفاف كليب بالجليلة بدر التمام . فلما سمع (مرة) بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع ، ونهض في الحال واستقبله احسن استقبال ثم أتى به الى الخيام واحترمه غاية الاحترام ، وأمر الخدام ان يأتوا بسفرة الطعام وآنية المدام فامتثلوا الى ما أمر وفعلوا كما ذكر . وبعد ان اكلوا وشربوا ولذوا وطربوا قال الامير مرة الىالوزير : اعلم ايها السيد الخطير، لقد زاد سرورنا الان وتزينت بقدومك الاوطان ..

ثم سأله عن سبب زيارته فقال : اتيتك بكتاب من تبع ملك الاعارب وبه يطلب ابنتك الجليلة امرأة له، وانت تعلم بطش هذا الجبار وفعله فقد قال المثل : لا تعاند من اذا قال فعل، وانا والله فيغايةالحياء والخجل، وليس لي ارادة بهذا العمل ولكنني اتيتكم في زي رسول لأعلمك بالخبر اليقين وليس على الرسول الا البلاغ المبين .

ثم اخرج الكتاب وسلمه اياه ففتحه الامير مرة وقرأه. ولما وقف على نتيجة فحواه انقطعت امعاه وضل عقله وتاه لانه : ان أبى وامتنع يقتله الملك تبع ، وان اجابه الى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه

الناس وتزدريه حيث كان قد انعم بزواج ابنته الى كليب ابن اخيه ! فانذهل وحار واخذه القلق والافتكار واشتعل قلبه بلهيب النار ، فأطرق رأسه الى الارض واخذ يتأمل في عاقبة هذا العمل فلم يجد سوى الخضوع والامتثال لاوامر تبع في الحال خوفا من العواقب وحلول النوائب.. فالتفت الى الوزير نبهان وقال له امام الامراء والاعيان ومن حضر في ذلك المكان:

ــ لقد اجبت الملك الى ما طلب، وبلغته من ابنتي غاية الارب، فليس لنا بعد الله سوى أمره ورضاه لانه الملك الاكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف الرفيع والحظ الاوفر .. وبعد ثلاثة ايام يكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ونحمله على ظهور الجمال مع باقي الامتعة والاحمال وتركب الجليلة في هودجها وتسير امامها الفرسان وتذهب انت معنا الى عند الملك تبع حسان ..

فانشرح صدر الوزير بهذا الكلام وايقن بالنجاح وبلوغ المراد والحصول على الخلع والانعام فبات تلك الليلة في امان وهو مسرور فرحان ..

هذا ما كان من الوزير نبهان . اما الامير مرة فانه اجتمع بكليب سرا اليه وقص ذلك الحديث عليه ، وقال :

ــ اعلم يا أعز من اولادي، ان الضرورة احوجتني الى ذلك خوفا من الوقوع في المهالك ، وقد اعلمتك بما جرى وتجدد فما رأيك ؟

فلما سمع كليب هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وقال :

ــ ارجوك ان تمهل الوزير ثلاثة ايام عن المسير حتى انظر في الامر العسير ..

وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق يدعى العابد نعمان وكان كثيرا ما يوعده بالبر والاحسان، فقصده تلك الليلة واخبره بما جرى وكان من امر الملك تبع حسان ... فقال له :

ــ الرأي عندي ان تجهز مائة صندوق يكون كل واحد منها

بطبقتين ، في الطبقة الواحدة تضع فارسا من ابطا لالمكافحة والمجادلة ، وفي الثانية جهاز الجليلة وانت تكون مهرجا لها امام سادات القبيلة، وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد • واعلم انه عند وصولك الى هناك تجد سلسلة من النحاس الاصفر معلقة فوق الباب الاكبر وهي مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من اراد الضرر للتبع حسان ، فتقع عليه بالحال وتذيقه الوبال • خذ لنفسك الحذر واتكل على اله البشر فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع اعاديك فاذا بلغت المراد •• وفزت بالسعادة بنيت مسجدي برسم العبادة وخذ لك هـذا السيف الخشب وبه تنال القصد والارب واشار يقول :

قال عمران يـا بن ربيعة	أتاك الخير وسعدك تم
روح لقومـك بشرهـم	وقول لعمك وابن العم
وبشـر المسمـى همـام	بأن الشمل اليوم يلتـم
وقول السعد أتى لقيس	واستوف ثأرك والـدم
تأخذ ثأرك مـن التبـع	وتسقيه الخمر بكأس السم
هذا السيف تقلـد فيـه	وفي كفك يا مير يتـم
اجعل عروسك في هودج	وقود بهـا زمـام وزم
وان واحد قلك ما تكون	فاعجل واعمل حالك صم
والعب وارقص واتهـرج	واحفظ مايخرج من الفم
عمـك مـرة والفرسان	باكـر لعنـدي تلتم
وانـا دبرت هذا الرأي	من خالف قولـي يندم
وسير لعنـده بالابطـال	قبل مـا يغضب وينسم
سلسلة معمولـة هنـاك	بعلم السحر مع الطلسم
تبين كـل اعداه سـاعة	احذر منهـا لا تعـدم
طيب قلبـك لا تغتـاظ	من ذا العايق لا تنهـم
سألت المولـى ينصركـم	ويزيـل عنكم كل الهم

فلما فرغ العابد من كلامه وعده كليب ببناء المقام على احسن نظام، ثم رجع على الاثر واعلم عمه بذلك الخبر وقال له :

ـ يجب ان نبادر باتمام هذا الشأن و ننتخب ماية فارس نضعهم في الصناديق على الجمال مع باقي الجهاز والاموال في صفة امتعة واحمال على عيون الرجال ، ويكونوا جميعا بالاسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة في هودجها وهي مزينة بالجواهر ويكون في صحبتها جماعة من السراري يدقون امامها بالدفوف والمزاهر ، وانا اجعل نفسي مهرجا لحضرتها وقائدا لزمام ناقتها وندخل على تبع بهذه الوسيلة ، فان تمت عليه الحيلة نلت المرام واخذت ابنه عمي بحد الحسام وأكون قد بلغت غرضي واخذت بثأر ابي، ومتى قتلت الملك تبع يقع في قلب قومه الخوف والفزع فنتمكن منهم على أهون سبيل ..

استصوب الامير مرة كلام كليب وعلم انه سينال المراد بدون ادنى شك ولا ريب .- فقال له :

ـ لقد تكلمت بالصواب فافعل ما تريد ايها الفارس الصنديد .

وكان قد امهل الوزير ثلاثة ايام حتى تمت هذه الامور والاحكام وقد اطلع مرة ابنته الجليلة على ما تقدم ذكره وعلى ما قصد كليب فعله، فلما كان يوم الارتحال انتخب كليب ماية من الابطال وقص على مسامعهم واقعة الحال ، ثم وضعهم في صناديق الاحمال وحملوهم على ظهور الجمال وكان من جملتهم الامير جساس .

ركبت الجليلة في هودجها وركب الوزير والامير مرة وجماعة من فرسان القبيلة وتقلد كليب بالسيف من تحت الثياب ، ولبس فروا من جلود الثعالب والذئاب ، وارخى له سوالف طوال من اذناب الكدش والبغال وركب على قطعة من قصب وحمل دبوسا من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة امام فرسان القبيلة. فلما رآه الوزير نبهان قال لبعض الفرسان : من يكون هذا الانسان، فان زيه عجيب وحاله غريب ؟ فقالوا :

ـ هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر ابن غسرة •

فزاد عجبه وتبسم • وهو لا يعلم انه الامير كليب• وكانت السراري تدق امام الجليلة بالمزاهر والدفوف والفرسان تلعب بالرماح والسيوف• وما زالوا يقطعون البراري والاكام مدة ثلاثة ايام حتى اقتربوا من مدينة الشام ، فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والاعلام وارسلوا رجلا من الاكابر ليعلم تبع بوصولهم الى البلد ، فسار واعلم الملك بذلك الخبر، ففرح الملك واستبشر وزال عنه القلق والضجر، واحضر الرمال وكان عنده رمال شاطر فحضر بين يديه فقال له : اضرب لي تخت الرمال • فجلس وضرب الرمل فرأى جميع ما فعلته بنو قيس وقال :

ـ الصناديق فيها رجال • واشار يقول :

قال الفتى الرمال صادق ... سقاني الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل منذ كنت طفلا ... وقلبته يمين مع يسارا
ولا احد مثلي بالرمل عارف ... ولا غيري يعرف كيف سارا
الا يا مير تبع يا ملكنا ... يا عز العذارى يوم غارا
اقول لك عن التقادير والجنايب ... وتحسب ان جابوا لك تجارا
جوايا ملك هم يقتلوك ... ويدعوا القصر بعدك دثارا
صناديق التي لك حملوها ... بها ابطال بالعدد امارا
يريدون قتلك يا ملك عاجل ... لهم ثأر عليك وأي ثأرا
هذا قد اعلمتك يا مسمى ... وبالدنيا يشيع لها خبارا

فلما فرغ الرمّال من كلامه وتبع يسمع نظامه نادى على العبيد فحضر ماية عبد فقال لهم :

ـ روحوا الى العمارة وكل صندوق تلاقون فيه رجال اكسروه •••

فانطلق العبيد الى العمارة وهم اسعد وسعيد وبقية الماية عبد، هذا في يده عصا، والاخر في يده بلطة، والثاني في يده دبوس حديد• ولما وصلوا الى العمارة ابتدوا بكسر الصناديق وكسروا الاول والثاني الى

العشرة فصاحت الجليلة : يا عبيد السوء لماذا تكسرون صناديقي ؟

ـ الرمال قال ان في هذه الصناديق رجالا •

ـ اسمعوا حتى افتح لكم اياها تروا الرجال الذين في الصناديق •

فتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش •

فقالوا : الرمال كذاب ••• وعادوا من حيث أتوا •

يرجع الحديث الى عجوز يقال لها حجلان وكانت رمالة وهي التي علمت الرمال فبان لهـا جميع مـا فعل بنو قيس وتبين لها ان الصناديق طبقتين في السفلى رجال وفي العليا قماش فافتكرت ساعة مـن الزمان وضربت ثاني رمل فرأت بني قيس يقتلون التبع لا محال ••• فقالت : «خير لي أن آخذ الوجه الابيض عند بني قيس» فقامت واخذت عصاها بيدها وسارت الى ان وصلت عند بني قيس وهم في ارتباك عظيم فقالت لهم : انا اتيت من عند تبع •

فقالوا لها : وما هو قصدك ؟ قالت : قصدي كشف الصناديق ، لان الرمال قال ان فيها رجالا• ففتحوا لها اول صندوق والثاني فقالت اني أرى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك وضربت على الطبقة السفلى • فلما رأوها عارفة قالوا : استري على ما ستره الله، وفتحوا صندوقا واعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت لهم :

ـ من الان وصاعدا اساعدكم على قتل تبع •

ثم ان العجوز طلعت الى عند تبع والرمال بين يديه وهو يضرب الرمل ••• لان العبيد عادوا واخبروا تبـع بما شاهدوا •• وكذلـك العجوز اخبرته كما اخبره العبيد فقال تبع : يا عجوز، الرمال كذاب ؟

قالت : لقد عمي من اكل الثوم والبصل •

فأمر الملك بضرب عنقه وتقدمت العجوز الى الملك على الاثر وقالت :

ـ أنا اصف حسن الجليلة وما اعطاها الله من الحسن والجمال :

تقـول العجـوز التـي شاهدت مليحة تريـح العنا والصـدود
يـا مير تبع يهنيـك فيهـا السعد واقبـل الخير لـك والسعـود
اتـوك بنـو قيس اهـل السماح وجابـوا لك الخيل ثم النقـود
وجابوا الجليلـة لشخصك حليلة بخديـن حمر وعينـين سـود
وقامـة طويلـة كعـود القنـا فوق الكتاف ترخـي الجعـود
بشـعر طويـل وشـعر كحيـل بـلا جر ميـل تصيـد الاسود
حواجب كما قوس ترمي الهمـوم وذات خزام الذهب علـى النهود
وذات شـفاف رقـاق نظـاف عقايـل طرايف تزيـل النكـود
ولهـا وجـه كبدر بليلـة قـدر ووجنـات حمـر كمـا الورود
وجسـم رقيـق وريـق رحيـق وسـنان لولـو سبت الـورود
لهـا عنـق كعنـق الغـزال وطـوق الذهب يوقـد وقـود
كتاف كالعـاج مثـل الزجـاج والنقش مواج فـوق الزنـود
وكفـين اطـرى مـن الياسمـين مـن قدر حواها ينـال السعود
وصـدر كاللـوح خلقـه الالـه وقد زيـن الصدر زوج النهود
قد زينـوا بنو قيس لـك عروسا تجلـي لاجلـك كل هم وقـود
للملـك حقـا قـد احضـروا مليحة خلالهـا يزيـل النقـود
فارسل وراءهـا وخلي المحـال واسمع كلامـي واجلي الصدود
وادخـل علـى بنت مرة وكـن لطيفـا بقطف ثمـار النهـود

قال الراوي فلما فرغت العجوز من كلامها والملك تبع يسمع نظامها طار عقله من وصف العجوز ونادى على الوزير يأمره ان يحضر الجليلة بالتبجيل والتكريم وخلفها السراري بموكب عظيم. فدخلت جليلة على تبع وكان جالسا علـى كرسي المملكة وعلى رأسه تاج مـن الذهب الفاخر مرصعا بأنواع الجواهر. فسلمت عليه ووقفت بين يديه فرد عليها السلام وآنسها بالحديث والكلام وقال :

ـ اهلا وسهلا بالسيدة الكريمة والدرة التي ليس يقدر لها قيمه .

ثم اجلسها بمكان قريب منه وترحب بها غايـة الترحيب وقد انبهر من فرط جمالها وعذوبة الفاظها وفصاحة مقالها لانها كانت متصفة بالادب ومن اجمل نساء العرب ، فأخذ يسألها عن اهلها وعشيرتها فقـالت له :

ـ اعلم ايها الملك المفضال ان اتصـالي بك وتشريفي بساحة بابك جعل لقبيلتنا اسما كبيرا وذكرا بين الناس شهيرا ، فانت ملك هذا الزمان والجوهرة الثمينة في هذا الاوان ، الله يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك واعاديك ، فان كنت تعظـم شأني وترفع مرتبتي علـى اقراني ... لا تترك ابي واعمامي وسادات اهلي واقوامي بعيدين عـن فضلك واحسانك لانهم قد صاروا من جملة اتباعك واعوانك .. وامر لهم بمكان ينزلون فيه الان ، وامر بصناديق جهازي وباقي الاحمال ان تحضر الى هنا في الحال لانها مملوءة مـن التحف والجواهر والقماش النفيس الفاخر ومع كل ذلك فنحن ابناء عم ..

فأمر الملك تبع وزيره نبهـان ان يذهب في جماعة مـن الاعيان ويعد الى الامير مرة والد الجليلة ومن معه من بني عمه قصرا من القصور الجميلة ، وان تنزل بقية الفرسان في غير مكان ويقدموا لهـم الطعام والشراب وما يلزم من الثياب .

فاجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعـل كما امره مولاه مـن تلك الساعة . وبعد ان انفذ الوزير الامر ووضع الصناديق في داخل القصر التفت الملك تبع الى مرة وقال له : يا عمي لم يبق من بعدي الا انت في مقامي ، فان غبت ، فأنت تحكم مكاني .

وبعد ذلك امر بالكاس والطاس وقال للجماعة حلت البركة فيكم.. فقعدت بنو قيس تشرب معه المدام وشرب الملك تبع الى ان سكر، وغنت البنات ورقصت .. وقال تبـع للجليلة :

ـ اعلمي يا سيدة الملاح اننا نفذنا ما طلبت فهل لك غرض آخر نقضيه ونفعل ما ترغبينه وتشتهيه .

وكانت الجليلة تفكر كيف تستدعي كليبا الى عندها وقد سمعت صوته عند القصر وهو يصرخ ويصيح من جوانب القصر ، لانه كان راكبا على فرسه القصب وبيده دبوس من الخشب ، وكان يرقص في البستان وينتقل من مكان الى مكان . فقالت :

ـ نعم لي غرض واحد ، لي نديم اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر حلو الصفات سريع الحركات يضحك الاحجار بفعاله ويزيل الهموم بغرائب اعماله قد احضرته هذه المرة في خدمتي ليسليني فان حسن لديك فسر بدخوله ليلعب بين يديك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول احزانك واتراحك ..

فضحك من كلامها ، واجابها الى مرامها وامر الخدام بادخاله ليرى طرفا من اعماله. وعند وصوله الى باب الايوان نظر السلسلة التي ذكرها العابد نعمان فامتنع عن الدخول واخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول :

ـ هذه الحبلة التي اراها انا خايف من شرها واذاها. فقال تبع : ادخل وماعليك من باس فماهي الا سلسلة من نحاس. فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع. ولما طال المطال التفتت الجليلة الى تبع في الحال وقالت له بكلام الدلال اعلم ان قشمر من اخوف البشر ... فان حسن لديك ولم يصعب عليك فمر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب..

فرفعوها واتوا بقشمر اليه . فلما صار بين يديه سلم عليه ودعا له بطول العمر والبقاء ... واخذ كليب يمزح امامه ويلعب بسيفه الخشب قدامه وهو في الثياب التي ذكرناها والصفة المضحكة التي وصفناها ، فكان تارة يحلق بعينيه ويرقص الارض بيديه ورجليه ، وتارة يقول اين الفرسان الفحول واين ابو عطبول ؟ واحيانا يرقص ويضحك بلا سبب وهو يركب فرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب ، بحيث كان من اعجب العجب . فاندهش تبع من اعماله وتولاه الذهول العظيم ..

ثم قال للجليلة : والله يا كاملة المعاني وشريكة عمري وزماني، لقد

اصبت في منادمة هذا البهلول الذي يدهش بافعاله العقول فانه من كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام في الجواب ..

ـ صدقت فيما نطقت فانني لم ار رجلا مثله بين الانام في الذلاقة وفصاحة الكلام، ومتى بقي عندك عشرة ايام يقوم بمنادمتك حق القيام ، يدعك مشروح الخاطر على طول الزمان ...

وقال قشمر للتبع حسان : ان كنت تريد الطرب الان فمر سيدتي الجليلة ان تغنيك بابيات من الشعر فان صوتها مليح ولفظها فصيح .

فقال لها : هل تحسنين الغناء يا سيدة النساء ؟

ـ أي وابيك فان كنت تريد مني ان اغنيك واطربك واسليك فمر قشمر ان يقفل الباب لئلا يسمعنا احد من الخدام والحجاب .

فاستصوب كلامها الملك تبع ... وامر قشمر بقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد ايقن ببلوغ الامل ... وانشدت الجليلة ابياتا من الشعر طرب لها تبع كل الطرب وزاد به الوجد والغرام وسكر من غير مدام ، وقال :

ـ مثلك من تكون من النساء فقد زاد سرورنا في هذا المساء .

فلما رآه كليب زاد به الطرب اخذ يرقص امامه ويلعب بالسيف الخشب .. فقال له تبع :

ـ عيب عليك يا قشمر ان ترقص بهذا السيف امام الملك الاكبر .

ـ اعطني اذن حسامك وانا العب به امامك .

فقالت له الجليلة : بحياتي عليك ان تبلغه الارب وتعطيه ما طلب فانك ترى منه العجب. فأمره ان يدخل الى قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجع بالعجل .. فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة أومأت اليه ان يسرع في العمل، فلما دخل الى المخدع وجد سلاح الملك تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج مسرعا بعد ان فتح صناديق

الاحمال واخرج الفرسان والابطال . فتبعوه الى ساحه الدار وقاموا لـه بالانتظار . وكان قد سل الحسام من غمده وهو يهزه في يده ثم دخل على الملك وقد احمرت منه عيناه وتذكر اباه فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الابطال في ساحة القتال • ثم تقدم من تبع وهجم عليه فعرفه تبع حينذاك فانقطع قلبه من الخوف وايقن بالهلاك فقال له :

ـ بالله عليك يا سيد الشجعان وفارس الميدان ان تعفو عني وتسمح عما فرط مني •

ـ لا بد من قتلك كما قتلت ابي وأكون قد أخذت ثأري وبلغت أربي •

ـ اذا كان لا بد لك من ذلك الشان فامهلني ساعة من الزمان حتى افيدك عن جميع الامور والاحوال التي تحدث الى آخر الاجيال فقد اتضح لي الحال ووقعت في شرك العقال • ثم انشد وقال :

• • •

يقول التبع الملك اليماني لهيب النار تشعل في فؤادي
امير كليب يا فارس ربيعة ويا حامي النسا يوم الطراد
اريد اليوم ان اعلمك شيئا لتعرف حال اخبار العباد
فموسى كان في الدنيا نبيا له التوراة اعطت للرشاد
وداود النبي قد جاء بعده يبشر بالزبور اهل الفساد
وعيسى بن مريم جاء ايضا بانجيل الخلاص لكي ينادي
وعندي قد تبين بالملاحم بأنك قاتلي دون العباد
وبعده شاعرة تنزل عليكم وتفتن بين قيس في البلاد
وانت برمح جساس ستطعن وعبدي يذبحك بين الجماد
وتكتب في دماك على البلاطة لمن بعدك لتشتيت الاعادي
ويأتي الزير ابو ليلى المهلهل فيصلي الحرب في كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد بضرب السيف في يوم الجلاد

وتأخذ الجليلة لك قرينة ... وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك ... يسمى (الجرو) قهار الاعادي
يقتل الى جساس خاله ... واما الزير تقتله الاعادي
وسيف ذو يزن بعدك يظهر ... وتصحبه السعادة في العباد
ويبقى ملكه سبعون عاما ... وبعد ذلك يطوى في الوهاد
ويظهر له ولد يدعوه دُمَّر ... شديد البأس مرفوع العماد
فيملك في بلاد الشام بعده ... يجيب الماء من اقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر ... يهين الضد في يوم الطراد
وبعده يظهر الهادي محمد ... يقيم الدين ما بين العباد
واصحابه معه عشرة كوامل ... كرام الناس سادات البلاد
أبو بكر وسعد مع سعيد ... وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلي ... وعامر مع حسين اهل الرشاد
يموت الهاشمي ويصير خلف ... على الاحكام بعده بالعباد
ابو بكر يموت بلسع حية ... وبعده عمر يقتل بالطراد
علي بالسيف يرديه ابن ملجم ... يتيما انتشى بين الولاد
وبعده بنو امية سوف تحكم ... واولهم معاوية ابن هاد
ومن بعده بني العباس تحكم ... سنين كثيرة ما بين العباد

فلما فرغ تبع من هذه الملحمة وسمع كليب ما فيها من الاخبار المتقدمة والمتأخرة تعجب غاية العجب وقال :

ــ لست اعفو عن اخماد انفاسك لانك افتريت وظلمت وتعديت ، ولهذا لا بد من قطع رأسك ولكنني اسألك : كيف قتلت ابي ، غدرا او بالميدان ؟

ــ اذا كان لا بد من ذلك يا فارس المعارك فامهلني ساعة حتى اخبرك عن سبب قتل ابيك واتودع من هذه الدنيا قليلا ... قتلت اباك لانه تكبر على الوقوف امامي كما وقف غيره من الامراء فكان لا بد من قتله حتى آمن شره ..

ـ لا بـد مـن قتلـك بحـد الحسـام ، حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك ••

ثم ضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه •• فوقع على الارض قتيلا وفي دمه جديلا •• فلما رأته الجليلة قد مات زادت بهـا الافراح •• واعتنقت ابن عمها وقبلته وقالت له :

ـ مثلك تكون الفرسان يا ليث الميدان ••

فشكرها كليب وهنأها بسلامتها وزاد في اعزازها وكرامتها ••

ثم خرج من المخدع واعلـم الفرسان بقتـل الملك تبع وقال لهم :

ـ بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد ••

فقالوا : نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ••

ثم انه وضع رأس الملك على رأس السنان وخرج بالابطال والفرسان وطافوا في شوارع البلد وضربوا من وجدوه بالسيف المهند وهم يقولون:

ـ هذا رأس سيدكم حسان قتلناه وارحنا الناس مـن شره فمن عصـى اهلكناه ، ومن أطاع ابقيناه في قيد الحياة وله منا الامان على طول الزمـان ••

فكانت اكثر اهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه لشره• فاجتمعت العساكر والاعيان وطلبوا من كليب الامان وأن يكونوا له من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان ، فأجابهم كليب الى ذلك الطلب • ورفع عنهم السيف ووعدهم بالجميل والخيرات وسمح لهـم بخراج عشر سنوات• فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر• ثم اجتمعت بنو مرة وأكابر العشائر واعيان الشام وقواد العساكر والبسوه تاجـا مرصعا بالجواهر ثم اجلسوه على كرسي المملكة وجلس بقربه وزيـر الميمنة وهو نبهان وزير تبع حسان •

ووقفت امامه الحجاب والامراء والنواب فحكم معاملا الناس بالجود والكرم ومنصفا المظلوم ممن ظلم• وفي الليلة الثانية اجتمعت سادات

القبيلة ، وزفوا عليه ابنة عمه الجليلة. وقد كنا ذكرنا في أول السيرة عن اوصاف هذه السيدة الخطيرة وما احتوت عليه من الحسن والجمال والفضل والكمال فاعتنقا اعتناق الاحباب وزال منهما الغم والاكتئاب وباتا في حظ وانشراح الى وقت الصباح. وفي اليوم الثاني وردت اليه المدائح والتهاني واشتهر ذكره في البلدان وهابته ملوك الزمان .

وكانت الجليلة قد طلبت من كليب ان يبني لها قصرا من اجمل القصور وينشيء فيه بستانا يحوي جميع انواع الزهور فأجابها الى ذلك ووعدها ببناء قصر لا مثيل له في جميع الممالك . ثم انه نزل الى الديوان وجمع الوزراء والاعيان واعلمهم بذلك الشان فقال له الوزير نبهان :

ـ يا ملك الزمان ، لا يوجد اليوم من يقدر ان يبني لك ذلك القصر طبق المرام سوى معمر المختص بالريان ملك مصر .. فهو ماهر ببناء القصور الحسان وهو الذي عمَّر قصر تبع حسان .

فأرسل كليب في طلبه واستدعاه اليه ولما حضر بين يديه قبل الارض وسلم عليه .. فقال له كليب :

ـ أريد منك ان تبني لي قصرا من القصور الحسان لا يوجد مثله في جميع المدن والبلدان ويكون له جنينة جميلة المنظر تحتوي جميع الاشجار والخضر، فان اتقنت الصنعة طبق المرغوب نلت المقصود والمطلوب .

فأجابه بالسمع والطاعة وباشر في بناء القصر من تلك الساعة...

. . .

ولما اشتهر قتل تبع في اليمن واتصل الخبر بصنعاء وعدن هاجت الرجال وكثر القيل والقال ، وكان للملك تبع ابن عم من الامراء المشاهير يقال له (عمران القصير) وكان شديد البأس قوي المراس . فلما بلغته تلك الاخبار صمم على غزو بني قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود ، وركب في مئة الف مقاتل وجدّ في قطع المراحل قاصدا بلادالشام بكل سرعة واهتمام. فلما بلغت كليب هذهالاخبار استعد

للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسان والابطال. ولما التقى الجيشان امر كليب ان تتقدم الفوارس الى ساحة الميدان واخذ ينشطهم بالكلام على قتال الاخصام ، فهاجت الشجعان وتبادرت للضرب والطعان وكان الامير كليب اول العسكر كأنه الاسد الغضنفر وعلى رأسه البيارق والسناجق.

ثم التقت الرجال بالرجال واشتعلت نيران الحرب والقتال حتى عظمت الاهوال، فلله در الامير كليب بطل الابطال وما فعل ذلك اليوم من الفعال ، فانه هجم هجوم الاسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب اقوى من الجلمود فبادر فرسان الكفاح وخطف المهج والارواح . وما زال الدم يبذل والرجال تقتل الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار ... فافترقت العساكر عن بعضها البعض وباتوا في تلك الارض .

وعند الصباح عادوا الى الحرب والكفاح فبرز الامير عمران الى ساحة الميدان فصال وجال وطلب براز الابطال ... فأراد كليب ان يبرز اليه فمانعه حجابه وقالوا ايها الملك :

ـ ان فينا ابطالا وفرسانا تستطيع ان تحاربه ..

ثم برز اليه فارس من الصناديد يقال له ميمون ابن الرشيد ، فالتقاه الامير عمران بقلب أقوى من الصوان ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى استظهر عمران على خصمه وطعن ميمونا بالرمح فوقع قتيلا ، فأخذ سلبه وحصانه ثم قوم سنانه وتقدم الى معركة الحرب وقال :

ـ اين فرسان الطعن والضرب ! اليوم تعرف شجاعة اليمنية والقيسية.

فبرز اليه آخر فاذاقه الموت الاحمر .. وما زالت تبرز اليه الرجال وهو يجندلها على بساط الرمال حتى قتل سبعة من الابطال ، وكانوا من أكابر السادات قد اشتهروا في الحروب والغارات ، واستمر القتال على هذا المنوال مدة تسعة ايام وهم في براز واقتحام .. وفي اليوم العاشر برز الامير مرة لقتال عمران ولما صار في الميدان تقنطر عن ظهر الحصان فأدركه ابنه همام . وجاء به الى الخيام. فعند ذلك برز الى عمران الامير

جساس وصدمه بقوة وقلب وشدة بأس غير انه لم ينجح في قتاله ورجع عندالمساء عن حربه ونزاله ... فوقعت هيبة الامير عمران في قلوب الفرسان والشجعان. فاستعظم كليب الامر واشتعل قلبه بلهيب الجمر وقال :

ـ ما لزيد الا عمرو ، فاذا كان الصباح بارزته في معركة الكفاح لانه قد طغى وتجبر وقتل منا كل اسد غضنفر .

وبات تلك الليلة وهو في غم وقلق شديد ما عليه من مزيد ... ولما اصبح الصباح ركب كليب الحصان واعتقل بالسيف والسنان وبرز لساحة الميدان لقتل الامير عمران الذي برز في ذلك اليوم وهو ينادي :

ـ اين الابطال الصناديد! لا يبرز لي الا كليب المحتال الذي قتل الملك تبع بالغدر والاحتيال ... فما أتم كلامه حتى صار الامير كليب قدامه وصدمه صدمة منكرة، فقال له عمران : من تكون من الفرسان ؟

ـ اعلم ايها التيس اني ملك على بني قيس ولسوف ترى مني ضربا يقد الحديد ويذهل ابصار الفرسان الصناديد .

ـ انت مسخرة النسوان واحقر من كل ذليل مهان ولو كنت من الفرسان لما غدرت بتبع بالحيلة مع ابنة عمك الجليلة .

ـ اما علمت يا قرنان بأن الرجال عند اغراضها نسوان ، واني ما قتلت الملك تبع الا لغدره وقلة حياه وكثرة شره ، فانه قتل والدي وكان عوني ومساعدي. هذا الذي اوجب ذلك ، واليوم سألحقك به واسقيك كأس المهالك .

فلما سمع عمران من كليب هذا الكلام اشتد بينهم الخصام فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران حتى انبهرت من قتالهما الفرسان واحدقت اليهما الابصار من اليمين واليسار ، واستمروا على تلك الحال الى ان قرب الزوال بحيث تعجب عمران من ثبات كليب امامه، لانه كان يظن انه لا يوجد في الدنيا من يقدر ان يقف قدامه. فعند ذلك قاربه وفاجأه وطعنه بالرمح قاصدا هلاكه وفناه. فحاد كليب عن الطعنة فراحت خايبة ثم هجم

كليب وقال : خذها يا عمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان • وضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قطعتين وحان عليه غراب البين ••• وبعد ذلك حملت على بعضها العساكر وتقاتلت بالسيوف والخناجر فكثر القتل والجراح وجرى الدم وساح وزهقت النفوس والارواح من ضرب السيوف وطعن الرماح •••

وبعد قتل الامير عمران تضعضعت عساكر اليمن ، فولوا الادبار وركنوا الى الهرب والفرار ، فتبعهم كليب بالعسكر وقتل منهم اكثر من عشرة آلاف نفر ، وغنم غنائم عظيمة • وما زال يتتبع آثارهم حتى دخل ديارهم فخرجت اليه اكابر البلاد طالبين العفو والامان . فأجابهم الى ذلك وارتد راجعا الى الشام بعد ان رتب عليهم خراجا يدفعونه في كل عام، فدخل الصقر بالعز والنصر ، واجتمع الى ابنة عمه (الجليلة) وباقي سادات القبيلة ••• وطاب له الوقت وزال عنه المقت •

وبعد عشرة شهور تم بناء ذلك القصر فكان من عجائب الزمان وغرائب الاوان لانه كان في غاية الاتقان ولا سيما البستان الذي كان كفردوس الجنان ••• فيه من جميع الاشجار والفواكه والاثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة ، فسر كليب به وانعم على بانيه ، وفرشه بالاثاث الفاخر الذي يبهر النواظر ويحير العقول والخواطر ، وجعل ابوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بأنواع الجوهر المنتخب ••• ثم نقل ابنة عمه الجليلة اليه، وكانت قد ولدت له سبع بنات مثل البدور الطالعات ، ربتهن بالدلال والعز والاقبال• واتفق ذات يوم من الايام ان لقي مرة ابن اخيه كليب في جماعة من بني الاعمام وبعد ان دار بينهم الكلام قال مرة :

ــ يا ابن اخي كثرت عليك الرجال والاغنام ، فمرادي الآن ان ارحل عنك بأنعامي ورجالي وباقي اموالي ولا شك بأننا في هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الاحوال ونحصل على راحة البال •

فقال كليب : افعل يا عمي ما تحب وانزل في أي مكان تريد من

الارض فان البلاد بلادنا ونحن ملوك الاقطار ..

فرحل الامير مرة بقومه ورجاله ونوقه وجماله ، ونزل في واد كثير النبات يبعد مسافة تسع ساعات ، وكان (مرة) قد شاخ وكبر في العمر فأقام الامير جساس على بني بكر فكان يحسن اليهم ويحكم بالانصاف بينهم ، فشاع صيته واشتهر أمره فكانت تقصده الشعراء والفرسان وهو يكرمهم ويخلع عليهم الخلع الحسان ، ولم تكن الا سنة من الزمان حتى صار يحكم على آلاف الفرسان .

كان كليب في هذه الاثناء وعندما يجد لديه فراغا يخرج الى الصيد والقنص فريدا في اكثر الاحيان لا يخشى شرا ولا يخاف احدا ، وكان له عدة اخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة منهم المهلهل الملقب بالزير ، وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب هذه السيرة والوقائع الشهيرة ، وكان في تلك الايام ابن عشرة اعوام وكان في الشجاعة كسبع الغاب ، لا يخاف من احد ولا يهاب ، فصيح الكلام منعكفا على شرب المدام وسماع الاصوات والانغام ينشد الاشعار البديعة ويأتي بالمعاني النفيسة الرفيعة ..

وكان كليب لحبه له لا يعترضه ويقابله بالفرح والسرور ، وكان الزير يتباهى بشجاعته امام اخيه وانه لا يوجد في الفرسان من يضاهيه، فقال له كليب في بعض الايام : اراك يا اخي مشتغلا بالملاهي وشرب المدام فقلبك خال من الهموم والاحزان ، كأنك لا تسأل عن تقلبات الزمان . من الواجب ان تحسب حساب العواقب لان الدهر دلاوب سريع الانقلاب اذا اضحكك يوما ابكاك سنة وليس على احد جميل ، ولا حسنة .

فقال المهلهل : ما دمت انت في الوجود وانا في خير فاني لا احسب أي حساب للغير، ولكن ان جار عليك الزمان واحاطت بك الحسان والخوان فانا إرد عنك الاثقال واجندل امامك الابطال ، انا الاسد الغالب فارس

الكتائب والمواكب، قهار الاعادي اذا نادى المنادي .

فتبسم كليب من كلامه وتركه مشتغلا بشرب مدامه وارتد راجعا الى الديوان وقد راق له الزمان ..

واتفق بعد بايام ان اولاد مرة اجتمعوا مع بعضهم في الخيام وضربوا تختا من الرمل ليروا ما هو مخبأ لهم . فبان لهم ان جساس مقدر له ان يقتل الامير كليب ويظهر الزير ويأخذ ثأره بدون ريب ، ويقتل منهم كل امير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار . فاعتراهم القلق والكدر واجمع رأيهم على ان يقتلوا الزير قبل ان يكبر . وقد وافق الجميع حالا وركبوا خيولهم وخرجوا من القبيلة قاصدين اختهم الجليلة . وكانوا يعدون ثلاثة واربعين ولدا . ولما وصلوا الى قصر اختهم دخلوا سلموا عليها . فتلقتهم بالترحاب والاكرام واقاموا عندها ثلاثة ايام ثم قالوا لها بلسان واحد ظهر لنا في الرمل بانه سوف يظهر للزير شان واي شان فيقهر الابطال والشجعان وتهابه ملوك الزمان ويعاملنا بالجور وسوء الادب وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب فاتفق رأينا على قتله قبل ان يكبر واتينا لنعلمك بالخبر فما هو رأيك في هذا ؟

ـ اذا قتلتموه وانكشف الامر اخذ كليب بثأره منكم فيزداد الشر وما دام الامر كذلك ، فانا اجعل كليبا يلقيه في المهالك .

شكرها اخوتها على مساعدتها لهم وركبوا خيولهم وراحوا في حال سبيلهم . وصبرت الجليلة الى وقت العصر حتى حضر كليب الى القصر وكانت قد شقت جميع ما عليها من الثياب واظهرت الغم والاكتئاب فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الاحوال لانه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمة لحسنها وجمالها وغنجها ودلالها .. خصوصا وانها من لحمه ودمه . فقال لها :

ـ علامك يا جليلة ما لي اراك في هذه الحال ؟

فبكت من فؤاد متبول واجابته بهذه الابيات تقول :

مقـالات الجليلـــة بنت مرة ... كليــب انت قيــدوم السرايــا
وتحكم في القبائــل والعشائر ... وفي كـــل المدائـــن والقرايــا
وحكمك نافذ في كــل ارض ... وتخدمــك الملوك مــع الرعايــا
وانــي بنت عمك يــا مسمى ... ومثلــي ليس يوجد في البرايــا
اتاني الزير أخــوك في غيابك ... يريــد فضيحتي بــين الصبايــا
قبضت عليه مــن عنقــه فولى ... وراح بسرعــة وسط الخلايــا
الا يــا مير قول لي كيف تعمل ... فاقتلـــه واورديـه المنـايــا
وان لــم تقتله حــالا فانــي ... اروح اليــوم في وسط الخبايــا
وتبقى النـاس تشتم في قفانا ... ونبلــى بالدواهــي والرزايـــا
وهــذا الامر لا يصلح لمثلــك ... كريــم الاصل عكــار المطايــا
فاقتلــه واخلص مــن بــلاه ... ولا تخشــى اثامــا ولا خطايــا
فقتل الزير اصوب من حيــاته ... لانـــه خــائن دون البرايـــا

فلما سمع كليب منها هذا الشعر والنظام غاب عن الصواب وارسل احد ارحال ليأتيه بأخيه الزير في الحال . فذهب الرسول واستدعــاه فامتنع عن الحضور لانه كان في ذلك الوقت يعاقر الخمرة مع جلسائه وهم في فرح وسرور ... فرجع الرسول علــى الاثر وحدث الامــير كليب بالخبر فازداد كدرا على كدر . وارسل الرسول اليه ثانية فما حضر . فعند ذلك سار كليب اليه وقد عظم الامر لديــه . فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه . فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثياب الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وارسله مع الرعيــان . ليرعى النوق والجمال . ورجع الى الجليلة واعلمها بما فعل مع اخيه المهلهل . فلما رأت انها لم تبلغ مرادها زادت غما وكدرا واخذت تدبر على هلاكه بحيلة اخرى . فقالت ذات يوم الى كليب : أما تخشى من الفضيحة والعيب. اما في رأسك نخوة وناموس ؟

فقال لها : ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام؟
قالت : بلغني من بعض الغلمان الذين يديرون مع الرعيان بانهم فعلوا معه القبيح ، وانت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبر وقد تحدثت فيك جميع البشر، ثم شرحت له واقعة الحال بهذا الشعر والمقال :

تقول الجليلة يا محفوظ — اتاني عليم بحال اخوك
وشاع العلم بكل القوم — غني الناس مع الصعلوك
وصار الناس بقيل وقال — وكل البدو عليك ضحوك
انت امير كبير القوم — وقيس وجمير قد هابوك
فكيف يكون اخوك الزير — وقومك من اجله يجافوك
كيف بقى لك رأس يقهوم — والرعيان قد عابوك
فاقتل اخاك في سيفك — والا قومك قد لاموك
فكل العالم تحكي فيه — يقولوا الزير بقى مهتوك
فهذا الاخ ومثله الف — بيوم الضيق فما عانوك
اخاف يقولوا كل اهله — مثله والعالم يشكوك

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر ووقف كليب على حقيقة الامر التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب ، واخذته الحمية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية ، وقد صمم النية على ان يقتل أخاه ويسقيه كأس المنية فقالت الجليلة : لا تقتله بيدك يا أمير لان كلام الناس كثير ، الاوفق ان تأخذه الى وادي العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمورة والاسود فتقتله هناك وتعود ، فتفترسه الوحوش والآساد وتتخلص من كلام العباد .

فقال : هذا هو الصواب ، وحالا ركب جواده واعتد بآله حربه وجلاده واستدعى الزير اليه فلما مثل بين يديه قال له : مرادي ان اذهب الى الصيد والقنص لازيل ما بقلبي من الغصص فسر امامي ...

فامتزل الزير امره وسار، وجد في قطع البراري والقفار حتى وصلا الى

الوادي المذكور . وهو مكان مهجور . وما زالا سائرين وصارا في وسط ذلك المكان ، واذا بجواد كليب قد شخر ونخر وضرب بحافره الارض وتأخر واذا بسبع من بطن الوادي قد ظهر . فلما رآه كليب هجم عليه بالجواد ورماه بالرمح فاخطأه فتبعه الاسد ، فانهزم كليب من امامه خوفا من العطب ... فلما رأى الزير اخاه قد هرب تقدم نحو الاسد بقلب أقوى من الحجر . وطعنه بخنجر كان معه فقده قسمين. ثم أخرج قلبه فأكله وصاح باخيه : ارجع يا اخي ولا تخف ...

فرجع كليب وهو يتعجب من افعال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصفا له قلبه وقال في سره : من يكون له اخ مثل هذا لا يفرط فيه .. وان عاش هذا الغلام سيكون من عجائب الايام ... ثم رجع معه فلما رأته الجليلة قالت : لماذا لم تقتله ؟ فأخبرها بواقعة الحال وكيف انه قتل الاسد وقال : الذي يكون مثله لا يستحق القتل بل يجب له الاكرام والتقدير ..

فلما سمعت الجليلة قالت وهي تبكي : ما دام الامر كذلك فسأذهب نهار غد الى بيت اهلي واعلمهم بما ظهر من الزير في حقي فلعلهم يقتلونه لاني لست أأتمنه على نفسي اذا بقيت عندك ، ولا بد ان يغدر بي لان عيونه محمرة علي وانت بعد كل هذا ليس لك نخوة ولا ناموس .

فقال : اذكري الله يا جليلة ودعينا من هذا . كيف اسمح بقتل اخي وهو من لحمي ودمي ولا سيما وهو شديد البأس ومن اشجع الناس . فاذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث في مذمتي الناس ..

— لا بد من قتله على طريقة، خذه الى بير صندل السباع وتدليه بحبل على نية ان ينشل الماء وحينئذ تقطع الحبل فيسقط في البير ويموت ولا يعلم به احد .

. . .

وكان كليب يحب (الجليلة) محبة عظيمـــة ولا يخالفها في شيء فلما ألحت عليه وافق اكراما لخاطرها • ونهض في اليوم التالي وركب جواده واخذ معه الزير ومائة من الفرسان وسار بهم الى بير صندل السباع وعند وصولهم قال كليب : يا سالم خيولنا قــد عطشت الآن فمرادنا ان ننزل ونسقيها وانت تنزل الى البير فتملأ لنا كم دلوا من الماء •

فقال : حبا وكرامة يا اخي •

فدلوه في حبل واخذ يسلي الادليـــة وهـــم ينشلوا ويسقوا حتى ملأوا الارض التي على باب البير وجاؤوا بالخيل ليسقوهــا فتزاحمت على بعضها البعض واخذت بالصهيل والازدحام• فعجز كليب وجماعته من ردها عن بعضهــا البعض . فسمع الزير وهو في البير صهيــل الخيل وجعيرها فصرخ عليها صوتا مثل الرعــد القاصف ارتجت له الوديـان واضطربت منه قلوب الفرسان • فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها • فلما رأى كليب ما فعله اخوه سالم تعجب غايـــة العجب وندم على ما فعل ، وحالا اخرجه من البير وازدادت محبته له ورجع به الى الديار • فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت لكليب

ــ بارك الله فيك أهكذا تم الاتفاق ؟

فقال : والله يا جليلة من كان هذا الفعل فعله يحرم قتله •

ثم حدثها بما جرى وكان وانشد يقول وعمر السامعين يطول :

يقــول كليب مــن شعر نفيس	قصيــد مــا نظمــه قط قائــل
جليلة اسمعـــي يــا بنت عمي	ارى عقلك بهذا اليــوم زائــل
أأقتلــه ليشفى اليــوم قلبــك	ومنــه قــد ظهرت لنــا فعايــل
سباع الغاب هابت مــن لقــاه	كذاك الخيــل صيرهــا جفـايل
ثلاث الوف يلقــاهم بصـــدره	مــن الشجعان فرسان القبائــل
تقولي اقتلــه وارتــاح منــه	فقولك جهل مــا هو قول عاقل
فانــي لا ابيعــه بألف مثلــك	ولــو مهما قد جرى منــه فعــايل

اراك تطلبـــي قتلـــــه سريعـــا فقولـــك عنـــه ليس لـــه دلائل
فقولك يـــا جليلة قول باطـــل فحاش الزير ان يتبـــع رزائـــل
فقلي مـــن كلامك لا تعيـــدي ايـــا بنت الامـــاجد والاصايـــل

فلما فرغ كليب من شعره ونظامه وفهمت الجليلة فحوى كـــلامه اغتاظت في الباطن ، ولكنها اظهرت السرور وقالت : ان قصدي امتحانك لارى هل انت تحبه او تبغضه فهو فصيح اللسان ومن اشد الفرسان ..

واخذت تمازح كليب حتى صفا قلبه وراق ، ثم انهـــا صَبرت مدة ايام وبعد ذلك اظهرت على نفسها بانها مريضة فرقدت في الفراش وقالت لكليب : ان لي حاجة اليك ولا يقدر عليها سوى أخيك الزير . فقال : وما حاجتك ؟ قالت اريد مقدار كاسين من حليب السباع لانه يقوي الاعصاب وانا في غاية الضعف والعنا ، وقد وصفت لي دايتي هذا علاجا لمرضي وقالت ان هذا الدواء سوف يأتي لي بولد .

فلما فرغت الجليلة مـــن شعرهـــا ونظامها صدق كليـــب مقالهـــا وارسل في الحال يطلب الزير. فدخل وسلم عليه وقبل يديه وسأله عمـــا يريد منه ؟ فأعلمه كليب بغرضه وقال : اريد منك يا اخي ان تأخذ هذا الحق الصغير وتملأه من حليب لبوة .

فقال : على الرأس والعين لكن يا اخي اعطني سيفا اتسلح خوفا من هجوم السباع .

فقال كليب للجليلة ان تعطيه السيف فقالت له : ألا تستحي يا زير ان تطلب سيف وانت في هذه الشجاعة . فخجل واطرق برأسه وسار من وقته وساعته، وقد تأكد عنده انها تريد هلاكـــه وضرره. وما زال يسير حتى وصل الى غابة كبيرة كثيرة الاشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصا فبينما هو ينظر من خلف وقدام واذا باسد قد ظهر امامه وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر ..

فلما اقترب منه قبض عليه الزير من ذيله ونشله بقوة ساعده وزنده

ولولحه بيده مثل المقلاع، ثم خبط به الارض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا حتى قتله ، واراد ان يجز رأسه واذا بلبوة قد اقبلت عليه ومن خلفها سبعة اشبال فلما رأت ذكرها قد مات احمرت عيناها ؛ فاراد الزير ان يلاعبها قليلا ، فتظاهر بالخوف وركض امامها فتبعته . وكان قد وصل الى شجرة كبيرة فطلع اليها وبقيت هي تنظر اليه وتهمهم. ثم اقبل اشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها. فوجد الزير لها ثديا مثل الحق، فقال هذا الذي طلبه مني اخي ثم اراد النزول ... وخشي ان تفترسه ان فعل فرمى نفسه من الشجرة فجاء راكبا عليها وقبض عليها من رقبتها والقى رجليه على بطنها بقوة وعزم شديدين حتى منعها من الحركة ثم سحب السكين ونحرها كما ينحر القصاب الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع رأسها ورأس الاسد بعد ان ربط اعناق اشبالها بالحبال وساقها امامه كالكلاب . فلما اقبل الى الحي ولاقته فرسان العرب واصحاب المناصب والرتب استعظموا ذلك الامر ، واعتراهم العجب . وعند وصوله الى القصر سمعت الجليلة الضجة فطلت رأسها من الشباك ، فرأت الزير وهو مقبل على تلك الحالة فالتهب قلبها بنار الغضب لانها كانت تظن انه سوف يموت ويهلك ، ثم دخل الزير على الجليلة وكان كليب يجلس معها فسلم عليها ورمى الروس امامها وقدم الحق لامرأة اخيه وقال لها

— هل تجدين شيئا آخر حتى اقضيه .

فقالت بارك الله فيك يا سبع الرجال فانك تستحق المدح والثناء .

وكان كليب لما رأى رؤوس السباع تعجب من قسوة قلبه وشدة بأسه ... وقال له : كيف تعلمت ذلك فراح الزير يقول :

يقول الزير قهار المواكب ... رماني الدهر في كل المصائب
فلا تسمع اخي قول الاعادي ... لان الضد شوره ليس صائب
يشوروا عليك في رأي وخيم ... ليسقوك يا أخي كأس المتاعب
فاهل العقل لا تسمع لانثى ... لان كلامها لا شك كاذب

فاعلم يا اخي في ما جرى لي بهذا اليوم في وادي الثعالب
وجدت السبع وسط الغاب دائر كأنه جائع للصيد طالب
فلما شافني حالا اتاني وكشر عن اسنانه والمخالب
فصحت عليه صيحة جاهلية فقدم يا اخي هاجم وطالب
حزت بخنجري رأسه فاهوى على وجه الثرى للارض قالب
اتتني بعده لبوة مغيرة فلما شفتها وليت هارب
رأيت اشبالها سبعة وراها فداروا جهتي من كل جانب
فلما شفتهم جاؤوا لنحوي طلعت لشجرة ذات الشناغب
فداروا حولها فرميت نفسي فصرت لظهرها بالحال راكب
حزت لرأسها وملأت حقي حليبا بعد ان نلت المآرب
ورأس السبع واللبوة قطعته علامة للاغارب والاقارب
وسقت اولادها السبعة امامي فلما صرت في وسط المضارب
فلاقتني جميع رجال قومي وحياني الأباعد والاقارب
هذا ما جرى لي في نهاري وما قاسيت من هول المصائب

فلما فرغ سالم الزير من شعره ونظامه واخوه كليب مع الجليلة يسمعون كلامه غضبت الجليلة من كلام الزير وكيف انه لمح في شعره عليها فقالت في سرها : لا بد لي ان اعمل على قتله ... وبعد ذهابه قالت لزوجها كليب : كيف يعلم اني ساعية في قتله لو لم يكن عارف بما فعله معي، فوالله ان الموت ألذ عندي من الحياة ... فلا بد لي ان اشنق نفسي واستريح من جور اخيك القبيح .

ثم انها صارت تبكي فقال لها كليب : اخزي الشيطان ودعينا من هذا الكلام الآن .

واخذ يتلطف بخاطرها ويقول كم مرة رميناه بالاخطار وهو يرجع سالما كاسبا غانما .

فقالت الجليلة : مرادي ان تسمع مني ما اقوله لك الآن . ولن

تسمع مني غير هذه المرة ••• وهو ان تجعـل نفسك مريضا وترقد في الفراش فاذا اتاك اخوك الزير حتى يراك فتقول له اصابك مرض شديد ووصف لك الاطباء شربة ماء من بير السباع ••• فاذا سمع منك هذا الكلام تأخذه النخوة والغيرة ويذهب في الحال لقضاء حاجتك فاذا راح لا يعود يرجع ابدا من كثرة وجود السباع في ذلك المكان •• والكثرة تغلـب الشجـاعة •• لانني كلمـا تذكـرت اعماله اريد ان اخنق حالي والعرض عند الحر غالي •

فلما سمع كلامها اجابها الى مرامها وانقطع عن الديـوان ومقابلة الناس وجعل نفسه مريضا واقام بالفراش بضعة ايام ••• ولما شاع هذا وعلم به الزير تشوش خاطره لانه كان يحبه محبة عظيمة فدخل عليـه فرآه راقدا في الفراش وهو يئن مـن قلب حزين ••• فقـال له : سلامتك يا اخي ••• ثم جلس بقربه وهو يتوجع عليه ويتأسف ويسليه بالكلام ، فقال له كليب : اعلم ان مرضي شديد وانا خائف منه وقـد وصفت لي الاطباء شربة ماء من بير السباع فمتى شربتها شفيت مـن هذا الداء ، وليس لي غيرك يا اخي يأتيني بها • فان كنت تحبني فعليك يـا فارس الفرسان وقاهر العدا في ساحة الميـدان ان تذهب الى ذلك المكـان ، وتأتيني بالمطلوب والمقصود من بير الاسود •

فقال الزير : ابشر يا امـير ••• ثم نزل من عنـده وجاء بقربتين فحزمهما على حمار ثم سار وجد في قطع القفـار الى ان وصل الى بير السباع . وكانت السباع في ذلك الوقت تسرح في البرية سوى سبع واحد كان راقدا على حافة البير ، قد وضع يديه علـى فمـه • فقـال الزير في سره : هذا نايم وعيب علي ان اقتله غدرا •

فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجليه ونزل البير من الدرج، فملأ القرب• واتفق انه عند نزوله ان نهق الحمار ، فوعي السبع، ولما رأى الحمار هجم عليه وضربه بمخلبه فقتله وجعل يأكله• فلما خرج

الزير من البير ووجد السبع قد قتل الحمار وهو يأكله اغتاظ جدا ، فوضع القرب على الارض وقصد السبع بقلب كالحديد وقال : ويلك يا مشؤم كيف تأكل حماري ، اما علمت ببطشي واقتداري ؟ وحق ذمة العرب لا بد من تحميلك القرب .

وكان الاسد قد وثب عليه ونهض على رجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على رأسه فدوخته فوقع على الارض طائشا، فجاء الزير بالحبل ولجمه لجاما قويا ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع عليها القرب ورفس الاسد برجله فنهض مثل السكران فقال الزير : يا قليل الادب، الذي يأكل حمير العرب عليه ان يحمل القرب .

ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكان كلما عرج عن الطريق يضربه الزير بالعصا على رأسه حتى اطاعه قهرا وجبرا . وما زال على هذا الحال حتى اقترب من الديار وهو راكب على ظهر الاسد غير مبالي باحد بعد ان فعل فعالا تعجز عنها فرسان العرب ... ولما دخل الحي جفلت الخيل والجمال واندهشت النساء والرجال لما رأوا الاسد على تلك الحال وكثرت الضجات وتصايحت الاولاد والبنات ، وسمع كليب والجليلة الضجة فطلا برأسيهما من الشباك فوجدا المهلهل مقبلا راكبا اسدا وهو يسوقه بعصاه ، فبكى كليب وقال لابنة عمه الجليلة : هل نسخى بهذا البطل ان يقتل وقد جاء بالاسد وعلى ظهره القرب وهذا من أعجب العجب !؟

فاشتعل قلبها والتهب من شدة الغضب حتى كادت تموت قهرا... ثم نزل كليب اليه وقبله بين عينيه وقال له : لله درك يا فارس الميدان وزينة الشبان ..

ولما فرغ كليب من كلامه انزل الزير القرب عن ظهر الاسد ، ثم ضربه بالسيف فالقاه قتيلا ثم قطع رأسه امام اخيه وقال : الله اكبر لقد اخذنا بثأر الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار .

فامر كليب الخدم ان يدخلوا الزير الى الحمام ، فدخل واغتسل ولبس حلة من الارجوان وذهب لعند اخيه في الديوان فقام له على الاقدام واكرمه غاية الاكرام واجلسه في أعلى مقام . فزاد اعتباره عند الخاص والعام ، وارتفعت منزلته عند الامراء والاكابر واشتهر اسمه بين القبائل والعشائر .

. . .

وقال كليب للزير ذات يوم : اطلب يا اخي مهما تريد فان شئت مدينة وهبتك اياها او امرأة جميلة ازوجك بها ، فمالي جميعه بين يديك فلا ابخل بشيء عليك لانك اليوم ساعدي وزندي وانت هو الحاكم من بعدي .

فقال الزير : لا اريد سوى سلامتك، وان تأمر لي بصيوان يكون كبيرا مفروشا بالفرش الفاخر عند بير السباع وعندي جماعة من الخدم يقدمون لي ما احتاجه من الاكل والشراب ... لأني اريد الانفراد عن باقي الناس واكون وحدي خصوصا من كيد النساء وعندما تشتاق الي فانك تزورني .

فقال كليب : ما هذا العمل فوالله ما عاد لي صبر على فراقك يا مهلهل ولا عدت اسمع فيك كلام الاعادي اللئام فابقى عندي في العز والاكرام .

فقال : يا اخي قد صممت النية على الارتحال فان الانعزال افضل للرجال الاحرار ولا سيما بعد ان صار لي على السباع ثار ولا بد لي من قتل جميع الاسود او يرجع الحمار ويعود .

فضحك كليب من كلامه وتعجب وامر له بما طلب وقدم له جوادا من اطيب الخيول وجميع ما يحتاج اليه من السلاح والنصول والمشروب والمأكول ، وارسل معه عبدين يخدمانه . ثم ودعه الزير وسار حتى وصل الى بير السباع فنصبوا له الصيوان واقام في ذلك المكان يأكل ويشرب

المدام ••• وهو في كل يوم يلبس عدته ويركب جواده ويده الاسوده وكان كلما قتل اسدا يقول : يا لثارات الحمـار ! وما زال تلك الحال حتى افناهم وبنى لنفسه قصرا من رؤوسهم فلما طال عليـه الزمان اخذه القلق والضجر لانفراده عن البشر وكان بينه وبين همام ابن مرة محبة عظيمة ووداد• فزاره الامير همام في بعض الايام ففرح بقدومه عليه وقال : اهلا وسهلا يا ابن العم ••• وترحب به غاية الترحيب ••• وقال له : لقد ضاقت نفسي من الوحشة والانفراد فوالله ما عدت ادعك تذهب من عندي ابدا •

واصبح همام يصرف اكثر اوقاته عنده فينادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الاشعار في الليل والنهار • ومـا زالا كذلك وهم في بسط وانشراح وطرب وافراح وشرب المدام وسماع الانغام مدة ثلاثة اعوام •

حرب البسوس

ان اعجب ما اتفق وتسطر من الاحاديث التي تروى وتذكر ، هو حديث العجوز الشاعرة اخت الملـك تبع حسان الذي قتله كليب ••• وهي المرأة التي ذكرها تبع لكليب في ملحمته بانهـا سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبائل وبسببها يقتل كليب وائل ••• وتثور الحرب بين بكر وتغلب وباقي عشائر العرب ، وكانت هـذه العجوز مـن عجائب الزمان وغرائب الاوان ذات مكر واحتيال وخداع، ساحرة ماكرة• وكان لهااربعةاسماء، سماها أبوها (سعاد) لانهافييوم ولادتها وردت اليه اموال السبعةاقاليم••• وامهاسمتها (تاج بخت) لانهاكانت تأكل الكثير من جوز الهند، وكانت جميلة المنظر فصيحة الكلام شديدة البأس• ولما كبرت وصارت بنت عشرين سنـة اخـذت تركـب الخيـل فـي الميـدان وتبارز الابطال والفرسان وشـاع صيتها في كل مكان ، وتوارد اليها الخطاب من جميع المدن والبلدان فكانت تقول انى لا اتزوج بانسان .

الا من يقهرني في الميدان، فاقتصر عنها الخطاب وتباعد عنها الطلاب • وكان قد سمع بخبرها ملك عظيم اسمه سعد اليماني ، وكان ملك بلاد السرو وابن عم اخوها تبع ، وبطـل اروع وليث صميدع ، صاحب مدن وبلدان وجيش وفرسان فهام قلبه في حبها ، فركب في جماعة من ابطاله وسار قاصدا ديار ابن عمه تبع ليخطب اخته سعاد ، فلما وصل الى تلك البلاد رحب به الملك تبع واضافه ضيافة عظيمة لانه ملك وامره نافذ في القبائل ، فلما كانوا في اليوم الثالث قال سعد للتبع : اعلم يا ابن العم باني حضرت من بلادي لاخطب اختك سعاد الدرة المصونـة والجوهرة المكنونة فلا تردني خائب• انها ابنة عمي ومن لحمي ودمي وانا احق بها من كل احد •

فقال تبع : انا موافق غير انها لا تتزوج باحد مهما كـان الا من يقهرها في الميدان •

فقال : اني ما اتيت الا على هذا الشرط •

فعند ذلك دخل عليها اخوها واخبرها بقدوم الامير سعد ابن عمها، وانه قد جاء ليخطبها ويتزوجها بعد ان يبارزها ويحاربها ، فأجـابته الى ذلك• وفي اليوم التالي اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركبت على ظهر جوادها وبرزت الى الميدان وكان الامير سعد قد ركب حصانه وبرز الى الميدان• والتقاها بقوة قلب وجنان، واخذا يتقاتلان نحو ساعة من الزمان• وكان الامير سعد صاحب نخوة وحمية ، ومن اشد فرسان الجاهليـة فحاربها حتى اتعبها ثم اقتلعها من فوق سرجها فاقرت له بالغلبة ، وبعـد ذلك تزوجها واقام حفلة دامت سبعة ايام ثم عاد بها الى بـلاده ، وقد حملت معها جميع ما تملكه من امتعة واموال وعبيد وغلمان • واقامت مع زوجها في ارغد عيش وهناء مـدة عشرة سنين الى ان عمي وفقد البصر، فصارت تحكم مكانه • وقد اطاعتها العرب وعظم امرها واشتهر ذكرها • وما زالت على تلك الحال وهي في ارغد عيش وانعم بال ، الى

ان قتل كليب اخاها تبع. فلما بلغها الخبر اخذها القلق والضجر ، وتنغص عيشها وتمرمر ، وقالت : لا بد لي من المسير الى تلك الديار وقتل كليب الغدار ، فاذا قتلته انطفت ناري واكون قد أخذت بثأري ...

اقامت مكانها وكيلا يحكم بالنيابة عنها وركبت هي وزوجها وبناتها واخذت معها عبدين. وما زالت تقطع البراري والآكام حتى وصلت الى بلاد الشام ، فسألت عن حلة بني مرة فارشدوها اليها. فلما صارت هناك قصدت الامير جساس دون باقي الناس. ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الامراء والاعيان فتقدمت اليه وسلمت عليه ودعت وترجست وبأفصح لسان تكلمت وقالت له : ادام الله ايامك ورفع على ملوك الارض قدرك ومكانك وبلغك اربك ومناك ونصرك على حسادك واعداك .

فتعجب جساس من فصاحة مقالها ... وأثنى عليها وسألها عن حالها .. فقالت : انني شاعرة اطوف القبائل والعشائر وامدح السادات والاكابر وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك ، فقصدت دارك حتى اعيش في جوارك واكون مشمولة بانظارك ...

قال لها جساس : مرحبا بك .. الارض ارضي والديار دياري وانت نزيلتي وفي جواري فكل من تعدى عليك قتلته .

فدعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء وقالت في سرها : لقد نلت المراد بعون رب العباد ... واقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في اكرامها. وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم في محبة وموالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة ، فضاق صدرها واخذت تلقي الفتنة والفساد بين الامراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال ، ولما اشتد الامر اجتمع اكابر الناس عند الامير جساس واخذوا يشكون من بني تغلب ومن سوء معاملتهم، وانهم يتعدون عليهم في اكثر الاوقات بدون سبب . وهذا كله من يوم ما قتل

كليب التبع اليماني وامتد ملكه في الاقطار فابتدأ يجـور ويظلم ولا يحسب حساب احد • وهكذا قومه ايضا تفعل فعله • وكان مرادهم بهذا الكلام ان يحمسوا الامير جساس ويهيجوه على قتـال كليب ، لكنـه لم يصغ اليهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم : انه من الصواب ان اجتمع اولا مع ابن عمي كليب واعلمـه بتعديات قومه وجورهم علينـا فان وجدت كلامه قاسيا كان هو المسئول في تقويتهم ، وان أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا •••

• • •

وما زالت الفتنـة بين الفريقين تمتـد وتشتد حتى اتصل الخبر بمسامع الامير كليب وبلغه ان بني مرة هـم اصل ذلك الخصام • فضاق صدره وتكدر ، وارسل اعلم جساس بذلك الخبر طالبا منه ان يبادر الى قصاص المذنبين وتوقيف حركات البكريين واخراج العجوز من القبيلة التي كانت سببا لهذه الورطة الوبيلة ، فاغتاظ جساس مـن ذلك وتأثر وتأكد عنده كلام قومه وعلم ان اصل ذلك البلاء كله من كليب فلم يجبه بجواب ولا بخطاب• واخذ جساس من ذلك اليوم يجمع الجموع ويفرق على قومه السلاح ويقويهم بآلات الحرب والكفاح ، فبلغ ذلك الامير كليب فازداد كدره واحتار في امره واحس بزوال ملكه ، وكان قد تذكر اخاه الزير الفارس النحرير فركب من يومـه في جماعة مـن الفرسان وقصده الى بير السباع فوجده جالسا على سفرة المدام مع ابن عمه الامير همام وهما يتناشدان الاشعار ويتحادثان بالاخبـار ، فنهضا له علـى الاقدام واجلساه في أعلى مقام• وفرح الزير بقدوم اخيه لانه كان له مدة طويلة غائبا عنه ••• وبعد ان جلس قليلا قال كليب للزير : اعلم يا اخي ان سبب مجيئي اليك، اولا ه ولتوقي اليك ، وثانيا حتى آخذك الى القبيلة واقيمك ملكا مكاني • فأنا قد طعنت في السن ولم يعد لي طاقة

على معاطاة الحكم والسلطان بعد ان تغيرت الاحوال ووقع بين القبيلتين النزاع والجدال فاشتغل مني القلب والبال . قم معـي الان يـا سيد الفرسان .

فقال الزير : والله لقد شغلت بالي بهذا المقال فانشد كليب وقال :

اخـي سالم اسمع ما اقول لك ففكرك ديـره والذهـن ليـا
اراك اليـوم فـي زهو ولهو ولا تدري بما قـد حـل فيـا
بنو قيس قـد وقعـو بخلف رجـاس نـوى يركب عليـا
فقوم وشـد عزمك يـا مهلهل لانـك انـت جبـار عتيـا
والا راحـت البلـدان منـي وصرنـا مهزلة عنـد البقيـه

فلما فرغ كليب من شعره ضحك الزير حتى استلقى علـى ظهره فقال كليب لماذا ضحكك ؟

قال : لقلة عقلك .

قال انا قليل العقل ؟ قال نعم لو لم تكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد ان نظرت هذا القصر الذي هو امامك .

قال وما يكون هذا القصر قال المهلهل هذا قصر قد بنيته من رؤوس السباع التي قتلتها بثأر الحمار . ومع كل ذلك انت ملك عظيم وصاحب ولايات واقاليم ، فكيف تقول انك خائف وفزعان واخوك الزير فارس الفرسان ؟ كن في امان واطمئنان من نوائب الزمان ، فان كنت بثارات الحمار الذي ليس له قدر ولا مقام قد بنيت قصرا من رؤوس السباع... الا ابني من رؤوس الاعادي بضع مدائن وضياع وقلاع وحصون . اذهب بالسلامة و لاتخف ثم اجابه على شعره يقول :

يقـول الزير ابو ليلى المهلهـل انـا لي في الحرب عزما قويـا
سباع الغاب خافت مـن قتالي وتخشانـي ولـم تقـدر علـي
فاذهب يـا كليب ولا تبـالي واحكـم بالقبائـل بالسويـه
فان جـارت بنو بكر وخـانت فلا اترك منهـم اخـي بقيـه

فلما سمع كليب شعره احتار من فعله وندم على مجيئه ثم كرر عليه السؤال ، وطلب منه ان يسير معه خوفا من حدوث امر من الامور.. فقال الزير : سر انت اولا ، وانا سأتبعك فيما بعد .

فقال له : لماذا لا تسير الان ؟

ـ لا خفاك ، لما حضرت الى هذا المكان قتلت جميع السباع ما عدا سبعين او ثلاثة فمتى قتلتهم ادركتك في الحال الى الاطلال .

فعند ذلك ركب كليب جواده وسار وسلم امره للواحد القهار ، الى ان وصل الى الديار وهو في قلق وافتكار .

اما سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فانها لما اثارت الفتنة بين القوم وصار لها عند بني مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول، اخذت طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر وخفقت الجميع في بعضه البعض ثم عمدت الى ناقتها الجربانة واخذت تطلي اجنابها وتدهنها بذلك الطيب. وامرت بعض العبيد ان يأخذها الى المرعى ويمر فيها بقرب صيوان جساس في الصباح والمساء واوصته اذا سأله احد عنها وعن سبب رائحتها يقول له لا اعلم وانما مولاتي تعلم. فأخذ العبد الناقة ومر من ذلك المكان فعبقت رائحة الطيب واستنشق جساس الرائحة وكانت ذكية جدا فتعجب ، وكان قد نظر الى العبد وتلك الناقة ، فأمر باحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ، فلما حضر واذ رائحته كريهة جدا فسأله عن تلك الرائحة من الناقة فقال : لست اعلم يا مولاي انما مولاتي سعاد تعلم السر ...

فقال جساس هذا امر غريب ... ثم استدعى العجوز اليه فحضرت فسألها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت : اطال الله عمرك وابقاك ، ان هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خصائص غريبة يا ابن الاجواد فان بعرها من المسك وعرقها من الزباد .

فتعجب جساس غاية العجب وقال في نفسه : تبارك الله رب العالمين فلا بد لي من اخذ هذه الناقة فافتخر بها على جميع الملوك . فقال لها : هل تبيعيني اياها يا حرة العرب وانا اعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب ؟ فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت والله هذا الحساب الذي كنت أحسبه ، فاني ما هجرت بلادي الا لأجل هذه الناقة ، وكلما نظرها امير او ملكُ يطلبها مني وما دام الامر كذلك فاني سأرحل من عندك . ثم بكت من قلب حزين .

أخذ جساس يستعطف بخاطرها ويقول لها : ان كلامي معك هو على سبيل المزاح ، فناقتك مباركة عليك وانت المعزوزة عندي .

— من حيث ذلك اريد ان تجعل ناقتي دون باقي النوق والجمال لانها قد تربت بالدلال ... واريد لها مرعى يليق بها ...

— أرسليها الى المراعي مع نوقي وجمالي .

— انها لا تأكل الا من الرياحين وزهر البساتين .

— انه ليس لنا كروم ولا بساتين .

— وهذه الكروم التي أراها بجانب القبيلة من هو صاحبها ؟

— هي لابن عمي كليب زوج اختي الجليلة . وهمام . متزوج اخته ضباع .

— ما دام انكم أهل وأقارب وأنت ملك نظيره ، فلماذا يكون كليب أعظم منك .

— انه من بعد قتله الملك تبع ... عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاعته العباد .

فلما سمعت هذا الكلام قالت : والله لقد اخطأت وبئس ما فعلت، فاني تركت البحر وجئت الى الساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس.

فاغتاظ جساس وقال : ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب ، فانك قد خرجت عن دائرة الصواب وباديتينا بقلة الآداب ... أهذا جزاء المعروف والاحسان ؟

ـ لا تغضب ولا تغتاظ وما قولي هذا الا من سبيل المحبة ، فكيف يكون ابن عمك وصهرك وزوج اختك ويملك على هذه الاراضي العظيمة وانت ليس لك قدر ولا قيمة ، أهكذا يكون الاهل وابناء الاعمام أيها الملك الهمام ؟

ـ وذمة العرب وشهر رجب لقد تكلمت بالصواب ، وأنا من الآن وصاعدا لست أحسب له أدنى حساب ، لأنه قد اعتز وتمرد ولا عاد يحسب حساب لاحد ، أنا لا بد لي أن أطالبه ان يقاسمني على املاك المملكة والا ألقيته في التهلكة فروحي واطلقي ناقتك لكي ترعى في أحسن البساتين والمراعي .

فرحت العجوز وانشرح صدرها بما سمعت منه، فقبلت يده وخرجت من عنده وقالت لعبدها : خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحمى كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الاشجار وتأكل الاغصان واذا اعترضكم العبد فاشتموه وسبوه، واذا اقتضى الامر اقتلوه، ولا تخافوا .

فقالوا سمعا وطاعة. ثم أخذوا الناقة وساروا بها الى ذلك المكان وكان يشابه روضة الجنان كثير الاشجار والفواكه والاثمار ، وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن منتزهات الدنيا، وكان لا يسمح لاحد بدخوله سوى هو وعياله فقط. فلما أخذت العبيد الناقة دخلوا بها ذلك بعد ان هدموا الحائط وصاروا يقلعون الزهور ويكسرون اغصان الشجر، وكانت الناقة تأكل العرايش واثمار الكرم . وكان كليب قد أقام

حارسا يحرس المكان اسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك الفعال هجم على العبيد بالعصا وقال :

ـ اخرجوا يا كلاب من البستان قبل ان يحل بكم الهوان •

فشتموه وسبوه ثم ضربوه فهرب من بين ايديهم ، وجاء الى كليب واعلمه بواقعة الحال ، فاغتاظ غيظا شديدا وجاء الى هذا المكان ومعه اربعة غلمان • فرأى العبدين احدهما جالس على سريره الذي كان يجلس عليه وقت النزهة، والاخر يدور مع الناقة بين الكروم والزهور ، وهو يسب الامير كليب ويشتمه • فعند ذلك تراكض غلمان كليب على العبيد لتقبض عليهما فتركا الناقة وهربا، فاحضرت الغلمان الناقة امام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان • وكانت عبيد العجوز تراقب عن بعد ما يجري على الناقة ، فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجعوا على الاعقاب واعلموا مولاتهم بما جرى وكان ، وكيف ان غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان • فقالت : الآن بلغت مرادي وأخذت ثأري من الاعادي •

ثم أمرت العبد ان يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها اليها • وقامت من وقتها ووضعت التراب على رأسها وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجوارها وأخذت جلد الناقة وسارت بها الى الامير جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الاكابر والاعيان وصارت تندب وتبكي، ثم ألقت الجلد بين يديه فقال لها : أيتها العجوز وما الذي أصابك ••

فحدثته في القصة وقالت له في آخر الكلام : لو كنت اعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتي ترعى في حماه حتى يذبحها • اني اعتمدت على كلامك نظرا لعلمي برفعة مقامك بين أهلك

وأقوامك حتى جرى ما جرى بسببك ..

فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس الامر وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية ، وقال للعجوز : اذهبي بأمان فأنا أعرف شغلي .

فذهبت الى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها . ثم التفت الامير جساس الى من حوله من الامراء وأكابر الناس وقال : انظروا ما فعله ابن عمنا في حقنا ... وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل ، وأنا لا بد لي ان استعد لقتاله من هذا اليوم، فأما ان اقتل او ابلغ الامل ..

فقالت له أكابر العشيرة: تمهل يا أمير، فانه لربما لم يعلم انها ناقة نزيلك ومن الصواب ان ترسل له كتابا على سبيل العتاب، وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه، فان ارسل الثمن واعتذر كان خيرا وان أبى وامتنع فحينئذ تفعل ما تريد . فاستصوب جساس هذا الرأي وكتب كتابا الى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وارسل الكتاب مع عبده أبو يقظان. فأخذ ابو يقظان الكتاب وفي طريقه مر على تلك العجوز وأخبرها بالقصة فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب فعند ذلك فتشته في ثيابه حتى عثرت الى الكتاب فقرأته فوجدته كتابا بسيطا خاليا من التهديد والوعيد فمزقته وأضافت اليه كلاما مليئا بالشتائم والتهديد .

ثم طوت الكتاب ووضعته مكانه . وقام العبد فنهض وركب جواده وسار حتى وصل ديوان الامير كليب فنزل ودخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب فأخذه وقرأه ، ولما وقف على معناه اغتاظ غيظا شديدا واراد ان يقتل العبد ، ولكنه كان رجلا عاقلا موصوفا بالحلم والعزم فأطرق رأسه الى الارض وتفكر قليلا ثم قال في سره : لعل الامير جساس

كتب لي هذا الكتاب وهو في حالة سكر غائب عن الصواب، فمزق الورقة وأمر بضرب العبد فضرب وقال له : اذهب يا ابن اللئام الى عند مولاك بسلام، والا سقيتك كأس الحمام •

فقام وهو على آخر رمق وركب حصانه وسار الى عند جساس وقال له انه بحال ما قرأ الكتاب مزقه وأمر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي تم وجرى •

فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضيا في عينه كالظلام فنهض في الحال ودخل الى خزانة السلاح ولبس آلة الحرب والكفاح وركب ظهر حصانه وانحرف امام صيوانه وصاح على ابطاله واخوته وفرسانه ، فجاؤا اليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال، وقال لهم : استعدوا لقتال بني تغلب الانذال •

فلما سمع قومه كلامه لم يطاوعه احد منهم وقالوا له : هل يجوز يا امير لاجل ناقة حقيرة ان نقاتل ابن عمنا الامير كليب، ونرفع في وجهه السلاح بعد ان صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع حسان . واستولى على الاقاليم والبلدان وجعل لنا ذكرا عظيما في قبائل العربان على طول الزمان ، فان كان لك عليه دم أو ثأر فدونك واياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة ••

فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز • ولما اجتمع بها قال لها:

ــ جئت اليك لارضيك بالعطايا خوفا من ازدياد الشر ووقوع البلايا فاطلبي ثمن ناقتك لاعطيك اياه ولو كان مهما كان •

ــ اريد واحدة من ثلاثة أشياء •• اما ان تملأ حجري بالنجوم . أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم ، أو رأس كليب بالدماء يعوم •

ــ اما ملء حجرك من النجوم او ان الناقة تعيش وتقوم فهـــذا لا يقدر عليه الا الحي القيوم، أما رأس كليب فابشري به •

ثم قوّم السنان واطلق العنان قاصدا حي بني قيس فقالت العجوز لعبدها سعد : خذ هذا السكين والمنديل الابيض واتبع جساس من وراه فاذا رأيته قتل كليبا فاسرع في ذبحه والطخ هذا المنديل من دمه فمتى فعلــت ذلــك اصبحـت حــرا لوجـه اللـه تعــالى ••• أما جساس فلم يزل سائرا حتــى وصل الــى قصر كليب وسأل عنـه فقالت له اخته الجليلة : ركب الان ليطبع مهره في وادي الحصا والجندل• فقصده حتى التقى به وهو يطبع المهر وكان كليب بدون سلاح، ولم يكن معه سوى خيزرانة فقط ، وكان كليب دائرا ظهره الى جساس لانه كان من عادته ان لا يلتفت في أيام الحرب الى أقل من مائة فارس• فأراد جساس ان يغدره من قفاه فما طاوعته يده على ذلك مهابة ووقارا • فلما وصل سلم عليه فرد عليه السلام • ورآه مسربلا بالسلاح فاستعظم كليب الامر وقال:

ــ ما بك يا ابن عمي أراك بالسلاح الكامل •

ــ مرادي الصيد والقنص لكنني لما التقيت بــك عرجـت اليــك لاسألك سؤالا واحدا واعاتبك على ما فعلت فهل كان لك بساتين وكروم ونحن ما لنا شيء، أتت لعندنا عجوز شاعرة مع بعل لها أعمى ورعت ناقتها في بستانك على جاهنا فكيف تقتلها، اما لنا عندك قيمة ولا اعتبار بهذا المقــدار •

فضرب كليب كفا على كف من شدة الاسف وقال : والله يا ابن عمي ما عرفت انها ناقة نزيلك • ثم ذكر له عن سوء أدب الرعيان وما فعلوا من الضرر في البستان ومع كل ذلك فأنا اعوض عليها واعطيها اربعمائة ناقة

واذا اردت أكثر فأعطيها ولا يكون ذلك سببا للنزاع والخصام بيننا فاننا اولاد أعمام واصهار .

فقال جساس على سبيل الخداع سأحاول ارضاءها ... وهو يريد قتله ثم قال له : مرادي ان ألعب معك سباقين بالجريد .

– يا جساس انت راكب ظهر القميرة وانا راكب مهرا جاهلا .

– أنا أسوق امامك والمهر يسبق الفرس .

وتبعه كليب حتى حكمه تحت يمينه وضربه بالجريدة فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره .

فقال كليب قم يا ابن العم فان كنت لا تريد ان تلعب غير هذه الجريدة فاسرع واضربني بها فينتهي الحال. ثم نزل كليب عن ظهر المهر ومشى امامه . اما جساس فقد تألم بهذا القدر حتى لم يعد يمكنه القيام واذا بعبد العجوز أقبل اليه وجذبه من يده فأوقفه وقال : والله انك من احقر الرجال. ثم أعلمه بحاله وكيف ان العجوز ارسلته خلفه لأجل تلك القضية.

فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب وهز في يده الرمح وطعنه في صدره حتى خرج يلمع من ظهره . فوقع كليب على الارض يختبط بدمه فبكى كليب ماء عينيه ودمعه يسيل على خديه. فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم اليه وقبله في لحيته وعارضيه وضمه الى صدره ووضع رأسه على ركبتيه وقال :

– سلامتك يا ابا اليمامة فقدحلت بي الندامة، فوالله اني فعلت بدون عقل ولا تمييز فسامحني على هذا القبيح .

– هذا حكم الاله المتعال ما كان أملي منك ان تباديني بهذه الفعال وتشمت

في الاعداء والانذال ، وتفرق بيني وبين اليتامى والاطفال، وما بكائي على مال ولا نوال وانما بكائي على اليتامى ، لكن لهم رب لا يغفل ولا ينام• وابكي ايضا على غدرك فانك قتلتني بالغدر والعدوان ، ولست من افراني في الميدان ولا في ملتقى الفرسان• لكن سيجازيك العادل الديان وسوف، ترى ما يحل بك من الهوان ولا أظن بأنه يصفي لك الزمان بعد الان • فقم واذهب الى الخيام واقري الايتام مني جزيل السلام ولكن اسقني قبل رواحك شربة ماء لان قلبي قد احترق من الظمأ• ثم انشد يقول :

يقول كليب اسمع يا بن عمي ... ايا جساس قد اهرقت دمي
أيا غدار تطعنني برمح ... ولست انت في الميدان خصمي
واشمت الاحاسد والاعادي ... وباتت اخوتي تبكي وامي
على ناقة أتقتل ابن عمك ... امير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك ... .ويردي الضد في يوم النزال

فلما فرغ كليب من شعره خاف جساس واصفر لونه وارتعش قلبه وقال : والله يابن عمي لا يعرف الانسان ماذا مقدر عليه •

ثم رفع رأسه عن ركبته وأتى له بماء فأسقاه ثم ركب وتركه وراح يركض ويلتفت وراه قاصدا أهله وحماه • واما عبد العجوز فانه بعد ذهاب جساس تقدم ليذبح كليب كما أمرته العجوز، فلما اقترب منه رآه يجود بنفسه . وهو على آخر رمق، فتأمله فوجده ذا هيبة ووقار . فتأخر عنه وخاف منه• فنظر اليه كليب بعد ان افاق من حلاوة الروح وقال له :

ـ من انت وما هو قصدك ومرامك ؟ أعلمني بحالك •

ـ لا خفي عنك انا عبد التبع اليماني ، فلما قتلته انت حضرت اخته سعاد العجوز الساحرة الى هذه البلاد لتأخذ بثأره منك وتطفي لهيب

نارها ، وهي التي ألقت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وارسلتني لاذبحك وآخذ لها أثرا من دمك ..

ـ لقد صدقت يا هذا ، فقد ذكر لي تبع هذا الكلام ونفذ قوله الآن بالتمام وهذا تقدير رب الانام ، فأريد منك يا عبد الخير قبل ان تذبحني أن تفعل معي هذا الجميل وهو ان تلقيني بالقرب من هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير حتى اكتب وصيتي الى أخي سالم الزير وأوصيه بأولادي ومهجة كبدي، وبعد ذلك افعل ما تريد . فسحبه العبد الى قرب البلاطة والرمح غارس فيه والدم يقطر من جنبه. فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل على ما أصابه ويتحسر حتى العبد دمعت عيناه ورثى لحاله ... ثم تنفس كليب الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من حلاوة الروح : اين الاحباب اين الأعوان والحجاب اين جندي ودولتي اين ملكي وصولتي؟ تبا لحكم مصيره للزوال فيا ويل الذين يتجبرون على الاله المتعال .

ثم قال للعبد : بالله عليك ان تمهل علي قليلا حتى أتودع من دار الدنيا واكتب لاخي ايضا هذه الوصية فقال العبد اكتب يا مولاي رحمك الله ثم أخذ العود وكتب يقول من فؤاد متبول :

يقول كليب من ربيعة	فدمعي فوق خدي كالقناه
جفاني الدهر وارماني سقيم	فهذا الدهر كم مثلي فناه
خرجت انا على مهري أسير	فليس معي أنا الا العصاه
فاذا ابن مرة جاء خلفي	يريد قتلي وابليس طغاه
ضربته بعصاي فوق ظهره	تقنطر راح من فوق الوطاه
أتى من خلفه عبد غريب	سريعا اركبه وركب حداه
فاستعد وجاني في سرعة	وناره بالحشا زادت لظاه
قال لي دير وجهك يا ابن عمي	يريد الغدر مني بالقناه

فاحكم طعنه فيّ سريعا ... وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يا مهلهل ... عشر أبيات تفهمها الذكاه
وأول بيت أقول استغفر الله ... اله العرش لا يعبد سواه
وثاني بيت أقول الملك لله ... بسط الارض ورفع السماه
وثالث بيت توصى باليتامى ... واحفظ العهد ولا تنسى سواه
ورابع بيت أقول الله أكبر ... على الغدار لا تنسى أذاه
وخامس بيت جساس غدرني ... انظر الجرح يعطيك النباه
وسادس بيت قلت الزير اخي ... شديد البأس قهار العداه
وسابع بيت سالم كون راجل ... لأخذ الثأر لا تعطي ونساه
وثامن بيت بالك لا تخلي ... لا شيخ كبير ولا فتاه
وتاسع بيت بالك لا تصالح ... وان صالحت شكوتك للاله
وعاشر بيت ان خالفت قولي ... انا واياك التي قاضي القضاة

ولما انتهى كليب من كلامه التفت الى العبد وقال له : افعل الآن ما تريد . فقال يا امير ما تستحق والله الا كل خير وان يدي لا تطاوعني على ذبحك. فقال اذبحني لاني في ألم شديد وعن قريب تأتي اخوتي وباقي الرجال والحريم . فعند ذلك اخرج العبد السكين وانحنى عليه وذبحه من الوريد الى الوريد ولوث المنديل بدمه ورجع الى عند سيدته فأعلمها بقتل كليب وأراها دمه. ففرحت فرحا شديدا وصبرت الى الليل ، ثم حملت بمن معها وسافرت من تلك القبيلة سرا حتى لا يعلم بها أحد وقالت : لقد أخذت الآن ثأري وطفيت لهيب ناري ... وأما جساس فانه لما قتل كليبا وولى هاربا سار حتى وصل الى قومه وهو في خوف عظيم مصفر اللون متغير الكون ، فقال له ابوه الامير مرة : أين كنت ؟

ـ كنت في البرية فالتقيت بابـن عمي كليب فقتلته وزال همي وغمي .

فلما سمع مرة هذا الخبر تبدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه حتى كاذ ان يخرج روحه من بين جنبيه. وقال :

ـ يا عديم الذمام ويا أخبث الانام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لاجل ناقة حقيرة وصاحبتها سائلة فقيرة ؟ ماذا تقول العرب يا غدار اذا سمعت عنك ؟ فقد جلبت علينا الاذى والضرر وفضحتنا بين البشر .

وما زال يوبخـه بالكلام ويلطمه مـن خلف وقدام حتى جاءت اخوته اليه وخلصوه من بين يديه وهم يعنفونه ويسبونه، ويشتمونه ، ما عدا الامير همام فانه كان عند الزير في تلك الايام ... وهما يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهذه الامور والاحكام. ثم التفت مرة على اولاده فقال لهم : لقد حلت بنا المصائب من كل جانب فماذا الذي عاد يخلصنا من الزير ليث الوادي وقهار الاعادي فوالله سوف يقطع اثارنا ويعجل دمارنا. ثم انه بعد هذا الكلام أشار يقول:

يقول امير مرة مـن قصيـد ... ان العـار مـا يمحوه مـاح
جنيت اليوم يـا جساس حربا ... علينـا في المساء وفي الصبـاح
وقدت النار في بكر وتغلـب ... يعـم لهيبهـا كـل النواحـي
أيا جساس تقتل ابـن عمـك ... كليب البرمكي ليـث البطـاح
أمير مـا كـا نلـه مثيـلا ... شديد البأس في يوم الكفـاح
أيـا جساس من قتل ابن عمه ... يبيت الليـل يسهـر للصبـاح
فسوف ترى بما يجري علينـا ... اذا بـرز المهلهـل للكفـاح
فيسلب مالنـا قهـرا وغصبا ... بأطراف العوالـي والرمـاح

فلما فرغ من هذا النشيد أجابه جساس بهذا القصيد وعمر السامعين زيـد :

تأهب مثلي للقتل وللكفاح | فان الامر زاد عن التلاحي
فاني ان جلبت عليك حربا | فاني ليث حرب في الكفاح
فكف عن الملام فلست أخشى | بيوم الحرب من طعن الرماح
واني حين تشجر العوالي | أعيد الرمح في أثر الجراح
تعدت تغلب ظلما علينا | بلا ذنب يعد ولا جناح
ومالي همة ابدا وقصد | سوى قتل العدى يوم الكفاح

فلما فرغ جساس من كلامه قال له أبوه : سوف ترى ما يحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل فارس الخيل • ثم صار يبكي ويتأسف ويلطم كفا على كف ثم قال لاولاده : ان الرأي عندي ان نكتف جساس ونرسله الى الزير واخوته ليقتلوه بثأر كليب، وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتنطفي النار وتزول الاحزان والاكدار ، فان المصيبة عظيمة وعاقبتها ذميمة وخيمة •

فقال اولاده : ما هذا الكلام يا أبانا فهل بعد كليب غير جساس يليق ان يكون ملكا ! فان كنت تحسب حساب المهلهل ، فما هو الا كالاهبل وليس له هم الا الاكل والشراب •

فقال مرة : العياذ بالله من كيد الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم قال لاولاده : ان أخاكم همام له عند الزير مدة ايام فنخاف ان يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه ••

وكان لهمام جارية اسمها رباب، فاستدعاها الامير مرة وقال: اقطعي البقاع وسيري الى بير السباع واعلمي همام سرا بما جرى وتجدد وقولي له ان يرجع بالعجل خوفا من ان يقتل• فسارت الجارية حتى وصلت الى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما يأكلان ويشربان المدام ويتحادثان فلما رآها همام وثب اليها وقال لها : ما دهاك ؟

ـ شر طويل وحزن وعويل ... ثم أعلمته سرا بواقعة الحال وطلبت منه السير الى الاطلال. فلما وقف على حقيقة الاحوال اعتراه الذهول وغاب عن الصواب، وتبدل انشراحه بالحزن والاكتئاب .

فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج الزير من بين الاطناب كأنه أسد الغاب فوجدهما يتكلمان سرا ويوميان اليه فعظم الامر لديه فسل الحسام وقال : ما الخبر يا همام فاني أراكما في قلق واهتمام ؟

فحدثه همام بما سمعه وبمقتل كليب فأجابه المهلهل بأن لا علاقة له هو بهذه الجريمة وعليه فلا يلومن نفسه ... وقال لهمام :

ـ انت من دون بني مرة نديمي وصديقي وزوج اختي ورفيقي وليس عندك علم بهذا الخبر المنكر ، فلا تخف ولا تفزع .

ـ لقد جرى القلم يا ابن العم والذي مضى ما بقى يرجع، فأما ان تقتلني عوض أخيك أو تأخذ منا ما يرضيك وترفع عنا الحرب والقتال وتتركنا نبقى في الاطلال، فلقد صعب عليّ هذا الامر ، والتهب قلبي بنار الجمر لما سمعت بهذا الخبر المهول .

ـ وحق من يعرف الغيث وروح أخي وحبيبي كليب اني لا أرفع السيف عنكم حتى اشفي غليلي منكم ثم اقتلكم عن بكرة أبيكم، واهتك النساء والبنات واجعلكم مثلا بين الكائنات ، ولو لم تكن زوج اختي وسميري ما كنت اعلمتك بما في ضميري، بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال، فسر الان الى الاطلال ولا غدت تريني وجهك في الحرب والقتال .

فلما سمع همام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان وأومأ الى ابنه شيبان الذي كان معهما في ذلك المكان ان يسير معه الى تلك الاوطان ، فامتنع عن المسير وقال : سأبقى مع خالي الزير .

فسار همام وقد عظم عليه الامر وهو ينفض غبار الموت عن منكبه حتى وصل الى حلته، واجتمع بأبيه واخوته وأخذ يلوم جساس على فعلته وكيف انه تجاسر على كليب وقتله، واعلم قومه بما عزم عليه الزير فخاف الكبير والصغير وأيقنوا بالهلاك. واخذوا يستعدون من يومهم للحرب والكفاح والدمار ويجمعون السلاح من هنا وهناك .

اول البلاء

هذا ما كان على بني مرة ، وأما الزير صاحب الشجاعة والقدرة فانه بعد وصوله الى الديار اشتعل بقلبه لهيب النار واعتراه الاصفرار فصار يلطم وجهه في يده، وقد عظم الامر عليه حتى رقصت شعـرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة واحدة . وكان يردد : وحق رب العباد لا بد ان افتك ببني بكر الاوغاد واقتل الشيوخ والاولاد .

ولما طال المطال وهو علىهذا الحال قال له شيبان بن همام : دع عنك الكلام واشرب المدام فانك عاجز يا خال عن هذه الفعال ، فمن أنت مـن الابطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتباهى على الامراء وأكابر الناس كأبي همام وعمي جساس .

فغضب الزير منهذا الكلاموامسك به فضرب بهالارض فمات، فقطع رأسه وارسله الى اهله ، على جواده ..

فسارالجواد حتىوصل الىالقبيلة وسار الىبيت مولاه، فلمارأت أم الولد جواد الغلام ، وهو في تلك الصفة قالت للجارية : دونك جـواد سيدك .

فتقدمت الجارية وأخذت المخلاة فوجدت فيهـا رأس شيبـان فاستعظمت ذلك الشأن واعلمت مولاتها بواقعة الحال .. فطار عقلها ولما نظرت رأس ابنها مقطوعا ضجت بالبكاء والنواح والعويل والصيـاح

فاجتمع عليها نساء الحي من كل مكان ••• ولما سمع همام الخبر طار من عينيه الشرر فبكى واشتكى وقال لزوجته : أرأيت ما فعل أخوك، يا ضباع؟ فوالله لم يبق لي غريم سواه •

فشقت ثيابها وسارت الى عند أخيها المهلهل ولامته على ما فعل وقال له أتقتل ابن اختك بثأر اخيك ثم اشارت تقول :

تقول ضباع يا سالم علامك ... بجاه كليب ما سويت بابني
بثأر كليب تقتل ابن اختك ... وتحرق مهجتي وتزيد حزني
حزنت على كليب وما جرى له ... وحزني في صميم القلب مبني
ولكن قد حكم ربي مراده ... وربي ما كتب لي هو يصبني

فأجابها الزير بهذه الأبيات :

يقول الزير من قلب حريق ... بقتل كليب زاد اليوم حزني
ألا يا أخت قلبي من بكاك ... ولا تخشين من أمر يعبني
فوالله ثم والله ثم والله ... اله العرش مذ ادعو يجبني
فلا بد لي من حرب الاعادي ... واقتل كل جبار طلبني

فلما فرغ الزير من كلامه قالت له ضباع : لله درك يا سالم يا قهار الاسود القشاعم لقد زالت لوعتي الان وخففت عني الاحزان، لما سمعت شعرك يا فارس الفرسان وعرفت ما انت مقبل عليه من الحرب والطعان وأخذ الثأر وكشف العار •

ثم رجعت الى الديار وهي في قلق وتفكير عظيمين •

ولما انتشر قتل كليب ووصل الخبر الى ابياته وعلم بذلك جميع أهله وبناته مزق الجميع الثياب واكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملاح ووقع في الحي العويل والصياح ، وكسرت الفرسان السيوف والرماح ، وخرجت بنات كليب من الخدور وهن مهتكات الستور ناشرات

الشعور حافيات الاقدام يقطعن السهول والاكام وقدامهن اختهن اليمامة، وكأن ذلك اليوم مثل يوم القيامة. ولما وصلن اليه وجدن الطيور حائمة عليه فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حواليه. ولما قرأن ذلك الشعر الذي كتبه على الصخرة زادت احزانهن وأخذن يلطمن على وجوههن. ثم أقبلت اخوة كليب الى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والابطال والفرسان والسادات والاعيان يرثونه بالاشعار واجروا دموعهم كالانهار . واما ابنته اليمامة، فعلمت انه لا يوجد من يأخذ بثأرها ويطفي لهيب نارها سوى البطل الاوحد والسيف المهند والشجاع الشهير الذي ليس له في ذلك العصر نظير ، وهو عمها الملقب بسالم الزير، فسارت هي واختها اليه وتواقعت عليه وقالت : والله يا عماه ما كأنك حزنان بما جرى علينا وكان من طوارق الزمان بقتل أخيك كليب ملك العصر والاوان ثم القت نفسها عميانة في حجره فضمها الى صدره وقد حار في أمره. ولما أفاقت اشتدت عليها الحسرات فانشدت هذه الابيات :

مات ابي يا عم في طعن القنـا ... غدر به جساس الكلب المشوم
وانت اليوم جالس في صفاك ... يا مهلهل بالعجل انهض وقـوم
يا مهلهل ضاقت الدنيا علـي ... وسقاني البين كاسات السمـوم

فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهـل الاوجاع والآلام ، فنهض على قدميه كأنه سبع الاجام وصار النهار في وجهه مثل الظلام ، وقال لبنات أخيه : سوف ترين ما افعله واجريه .

ثم اعتد بآلة حربه وجلاده وركب ظهر جواده وسار مع البنـات يقطع الاراضي والفلوات حتى وصل الى ذلك المكان فوجده مملـوءا بالابطال والفرسان والبنات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحـون ويندبون . فلما رأوا المهلهل قد أقبل فتحوا له طريقا حتى دخل فوجد أخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه .

فألقى نفسه عليه وهو يبكي وينتحب ويقول : سلامتك يا ابو اليمامة يا صاحب الجاه والكرامة ، فقد احرقت قلبي بفقدك فلا كان من يعيش بعدك .

ولما اشتد عليه الامر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر فقرأها وقال وحق الاله المتعال اني لا أصالح الى الابد ما دامت روحي في هذا الجسد .

ثم بكى وتنهد ورثاه بهذا القصيد امام الساداتواكبر العمد، وهي من أجود مراثي العرب واحسن اشعار أهل الفضل والأدب :

كليب لا خير بالدنيا وما فيها ... ان انت خليتها من يبق واليها
نعى النعاة كليبا فقلت لهم ... مالت بنا الارض ام مالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وحالت الارض فاندكت أعاليها
الناحر النوق للضيفان يطعمها ... والواهب المئة الحمرا براعيها
الحلم والجود كانا من طبائعه ... ما كل الطافه يا قوم نحصيها
أضحت منازل بالخلان قد درست ... تبكي كليبا نهارا مع لياليها
كليب أي فتى زين ومكرمة ... تقود خيلا الى خيل تلاقيها
تكون اولها في حين كرتها ... وانت بالكر يوم الكر حاميها
غدرك جساس يا عزي ويا سندي ... وليس جساس من يحبو تواليها
لا اصلح الله منا من يصالحهم ... حتى يصالح ذيب المعز راعيها
وتولد البغلة الخضرا خدالجة ... وانت تحيا من الغبرا تلبيها
وتحلب الشاة من أسنانها لبنا ... وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

فلما فرغ الزير من هذه المرثية الغراء وسمعتها السادات والامراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وقالوا : والله لقد جاد سالم الزير وفاق على الشعراء المشاهير بهذا الكلام الذي هو كالدر النضير.

ثم اجتمعت الامراء المقدمين وقالوا للعرب المجتمعين انه مـا عاد ينفع البكاء والانتحاب وان اكرام الميت دفنه في التراب ، ثم أتوا بكليب الى الديار ودفنوه بكل احترام واعتبار واحتفال ووقار ورثوه بنفـائس الاشعار، وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالفضة والذهب فكانت من العجب في بلاد العرب، زخرفوها بالنقش الفاخر وكتبوا عليها اسماء الاله القادر ... واخيرا دفنوا كليبا في قبره الذي حفروه له .. وذبح الزير على قبره النوق والاغنام وفرق المال والطعام على الارامـل والايتام ، ثم جلس في الديوان وجمع الاكابر والاعيان والابطال والفرسان واخوته الشجعان وقال لهم : اعلموا أيها الامراء والسادات الكرام ان جساسا اهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا لأخذ الثأر وكشف العار من بني بكر الاشرار .

فلما سمعوا منه هذا الكلام أجابوه الى ذلك وقالوا بلسان واحد : اننا بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ... لان الامير كليب لا ينسى ولم تلد مثله النساء ... ثم انهم تحالفوا معه وعاهـدوه ، وعلى كرسي المملكة بايعوه وأجلسوه . فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة فسارت الى بيت أبيها مع أهلها وجواريها . وكانت حاملا بولد ذكر سوف يأتي عنه الخبر واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الاقسام بأنه لا يشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثأره بحد الحسام وينتقم من بني بكر أشد الانتقام او انه يموت تحت ارجل الخيل ولا يبالي بالويل. ثم أمر الرؤساء والقواد بجمع العساكر والاجناد وان يكونوا في استعداد للحرب فامتثلوا الى أمره فـي الحـال وتجمعت الفرسان والابطال حتى امتلأت الروابي والتلال. وكانت قد انضمت اليه عدة قبائل وأمدوه بالعساكر والجحافل حتى صار في اربعمائة الف مقاتل . ولما بلغ بني بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وحلول النوائب ، فجمعوا المواكب والكتائب وسار بهم الامير مرة الى الذئـاب

وهو مكان شهير يبعد ثلاثة أيام عن قبيلة الزير • وهناك انضمت اليهم بعض قبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثماية الف اقاموا في ذلك المكان • ولما سمع الزير برحيل مرة واولاده الى تلك الديار، قال : لا بد ان اقتفي أثرهم وأفني الكبار والصغار• وامر رجاله بسرعة المسير فامتثلوا بما امره•• وفي الحال دق طبل الرجوج فارتجت منه السهول والمروج • وكان الطبل لتبع حسان ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى ركبت الابطال والفرسان وركب المهلهل متسربلا بالسلاح كأنه ليث الغاب وعلى رأسه الرايات والبنود ، ومن حواه القواد والجنود فعند ذلك سارت المواكب قاصدة (الذئاب) حتى اشرفوا على تلك الديار ، في اليوم الثالث عند نصف النهار • ولما قرب وانكشف للعيان ورآه الامير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا وحق الاله القدير المتعال لقد أقبل علينا سالم الزير بالجموع والجماهير والفرسان المشاهير واليوم تباع الارواح بيع السماح • وفي عاجل الحال انتخب الامير مرة مائة الف من الابطال وارسلهم لملاقاة الاعداء في تلك البيداء وكان المقدم عليهم ابنه الامير جساس وجماعة من عظماء الناس فسار ذلك الجحفل طالبا جيش المهلهل ثم اعطى مائة الف اخرى وقدم عليها ابنه همام ، وحثهم على الحرب والصدام ••• واقام هو بباقي العسكر على الجانب الايسر حتى اذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان ••

ولما شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والابطال قسم عسكره الى ثلاثة اقسام وتقدم • ولما اقترب القوم بعضهم من بعض وانتشرت الجموع في الارض حملت الفرق على الفرق، وهجم الجيش على بعضه وانطبقوا ، قصد المهلهل فرقة الامير مرة بعشرة آلاف من أهل الشجاعة والقدرة واشتبك معهم بالقتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وارتجت الوديان والتلال من قعقعة النصال فكان يوما مريعا وحربا فظيعا

يشيب منه رأس الغلام قبل الفطام، فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غايرة ... فلله در المهلهل وما فعل في ذلك اليوم من العمل ... فانه هجم هجوم الاسود وفرق المواكب والجنود ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار ونمرود ، وكان كلما قتل فارسا يقول : يا لثأرات كليب ملك العرب ... ويلقي نفسه في مهاوي العطب املا بالنصر وبلوغ الارب ...

وما زال على هذا الحال حتى قتل خمسمائة من الابطال. ولما اشتدت الاهوال تأخرت عنه الرجال خوفا من الهلاك والوبال ، وهويجول ويدور ويهدر كالاسود والنمور ويقول : واكليبا قتيل الجور أين عيناك ، اليوم تراني وتشاهد حربي وطعاني فيا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك ..

وكانت نيران المعامع والحرب والوقائع مشتبكة في ثلاثة مواضع واستظهرت جيوش المهلهل على أعدائها وبلغت غاية مناها. وفعلت باقي الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذه الحال من الظهر الى غروب الشمس وكان قد قتل من بني بكر المئات ومن جماعة المهلهل مثلهم فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا في الخيام والمضارب ، ورجع المهلهل وهو قاهر غالب كأنه ارجوان مما سال عليه من ادمية الفرسان . فاجتمع بالسادات والاعيان في الصيوان فهنأوه بالسلامة ... وقالوا : مثلك تكون الشجعان يا زينة الاكوان وجوهرة هذا الزمان. فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والانعام. ثم أكلوا الطعام وأخذوا يتذاكرون في أمر الحرب والصدام .

وكان للمهلهل صديق يركن اليه ويعتمد في أموره عليه قوي الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس ابن أبان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العلية ... قاتل معه في ذلك اليوم وفتك في صناديد القوم وكان لا يفارق الزير في القتال ويحمي ظهره من غدر الرجال فقال

له المهلهل أمام الفرسان : ما هو رأيك يا ابن ايان في الهجوم على الاعداء اللئام تحت جنح الظلام فاني والله كلما أذكر مصرع كليب تتوقد بقلبي النيران وليس لي عنه صبر ولا سلوان ..

فقال : تمهل يا أمير مهلهل فان النهار قد اقترب ولا بد لنا من بلوغ الأرب لأن القتال في الليل يجلب علينا الهم والويل فتختلط الاحـزاب بالاحزاب ولا نعود نعرف الاعداء من الاحباب ، لأن الظلام يحجبنا عن بعضنا البعض وتتشتت في هذه الارض. فاستصوب الزير المقال ، وهكذا أشارت فرسانه .

وبات الجيشان يتحارسان حول النيران ... وكان بنو بكر وباقي قبائل العرب في شدة وتعب . وأيقن الأمير مرة انه سيغلب ويقهر مـن سيف الزير الاسد الجسور . ولما اصبح الصبـاح وأضاء بنوره ولاح تبادرت العساكر الى ميدان الحرب والكفاح واصطفت الفرق الى صفوف وترتبت المئات والالوف وتأهب المهلهل للحرب واستعد للطعن والضرب فركب ظهر الحصان وتقدم الى معركة الطعان وتبعه امرؤ القيس ابن ايان وباقي الابطال والفرسان بقلوب أقوى من الصوان ، وكذلك ركب الامير مرة ورجاله واعتقلوا بالسلاح والدرق ، وعند ذلك دقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رؤوس الأمراء والسادات من جميع الجوانب والجهات. وهجم كل فريق على فريق وتقاتلوا بالسيوف والمزاريق والتقت الامم بالامم ، وقامت الحرب على ساق وقدم. وما مضى ساعة من النهار حتى اشتد لهيب النار وطلع القتام والغبار واندل الجبان وحار. وارتفع الصياح وعلا وارتجت اقطار الفلا ولبست الارض من الدما حللا ، وعظم بينهم البلا والويل وعاد بياض النهار كسواد الليل. وقال المهلهل في ذلك اليوم وما قصر وفعل فعالا تبقى وتذكر ، اذ اقتحم صفوف الاعادي كأنه ليث الوادي، وجال على الميامن والمياسر وطعن فيها طعنا يذهل النواظر

ويحير العقول والبصائر وهو يقول : يا لثأرات كليب مهجة فؤادي ومن كان سندي واعتمادي • ولما طال المطال اشفى غليله من قتال الابطال أنشد وقـال :

نرفض الصلـح أو تردوا كليبـا   أو نبيـد الحيين بكرا وذهـلا
نرفض الصلـح أو تردوا كليبـا   أو تعـم السيوف شيبان قتـلا
نرفض الصلـح أو تردوا كليبـا   أو أذيـق الرجـال قهـرا وذلا

وما زالت الحرب تعمل والدم يبذل والرجال تقتل الى ان ولى النهار وارتحل ودخل الليل وأقبل ، فعند ذلك رجع الامير المهلهل بباقي الجيش والجحفل وجميع أكابر عشيرته وأهله واخوته يتحدثون فيما سوف يجري ويكون ، فاستقر الرأي على سرعة الانجاز والجهاد في الحرب والبراز قبل أن يطول الامر وتفوتهم الغلبة والنصر ، ثم انهم أكلوا طعامهم وباتوا في الخيام • ولما طلع النهـار واشرقت الشمس بالانوار تأهبوا للحرب والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيول وتقدمت الفرسان والابطال الى ساحة القتال• كذلك فعل الامير مرة والامير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر بالعساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر ، وكان الامير المهلهل في أول الجحفل فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب أقوى من الجبل وهو يهدر كالاسد ويضرب فيهم بالسيف المهند ويقول : يا لثارات كليب ليث الصدام وزينة الليالي •

وكان كلما قتل فارسا يعيد هذا الكلام ، فقصدته الابطال من اليمين والشمال وهو يضرب فيها الضرب الصائب ولا يبالي بالعواقب حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الالوف بتواتر طعناته وما تنصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار ، وكان من الابطال والفرسان المذكورة • كذلك فعل امرؤ القيس بن ابان وباقي القواد والشجعان • وما زالوا على تلك الحال الى ان ولى النهار بالارتحال فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا الى

المضارب والخيام ، وكان قد قتل من عرب جساس في ذلك النهار عدد كبير ومن عرب المهلهل أقل منهم. ولما اصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيول وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول كأنه الغول وهو ينشد ويقول :

هلموا اليوم نلقى آل مرة — ولو كانوا ثلاثين ألف كرة
وسيف المهند يقطع في يميني — فلا تخشى المهالك والمضرة
فاحموا يا بني عمي لظهري — فتحظوا بالاماني والمسرة
فكل الناس ترهب من قتالي — اذا ما جلت في الميدان كرة
وسوف أبيد جساسا وقومه — واسقيهم في حربي كأس مرة

وما زال القوم في حرب وصدام وقتل وخصام مدة ثلاثة شهور، حتى شفى الزير غليله من بني بكر وقتل منهم كل سيد جليل وفارس نبيل ، وكان عدد من قتلهم في تلك الوقائع المئات ما بين فارس وراجل. وقتل من جماعة الزير نحو اقل منهم عددا . فلما رأى جساس ما حل بقومه من النوائب خاف من العواقب وعلم انه اذا ثبتوا امامهم يهلكون للابد ، ولا يبقى منهم أحد. فولى وطلب لنفسه الهرب مع باقي طوائف العرب . اما الزير فغنم غنائم كثيرة واموالا غزيرة ثم عاد بمن معه من الفرسان الى المضارب وهو في أحسن حال وأنعم بال ونزل في قصر أخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهاديه وكان يترقب الاوقات للحرب والغزاة. فشكرته اليمامة على ما فعل وقالت: لا عدمتك أيها البطل، فانك أخذت الثأر وأطفأت لهيب النار ورجعت بالعز والانتصار .

فشكرها على هذا الكلام وقال : وحق رب الانام لا يشفى فؤادي ولا يطيب لذيذ رقادي حتى أقتل الامير جساس واجعله مثلا بين الناس وهذا الامر سيتم عن قريب باذن الله السميع المجيب .

. . .

وبينما هو يترقب الاخبار ويتحرى عن الآثار ، دخل عليه العابد نعمان ـ وكان من أصحاب الزير واصدقائه المشاهير ـ فسلم عليه ومثل بين يديه ، فنهض له على الاقدام وأكرمه غاية الاكرام . وبعد أن جلس بقربه قال للزير : اعلم يا أمير لقد أتيت اليك من مكان بعيد أولا لأهنيك بالانتصار وأعزيك على فقد ذلك البطل الكرار ، وثانيا لأعلمك بأنه ظهر لي في المنام من مدة عشرة أيام رؤيا عجيبة تشير الى أحوال غريبة وهو انه قادم عليك سبعة سنين منحوسة وأيامها عليك معكوسة . اياك من هذا النهار أن تحارب احدا من ملوك الاقطار بل تتجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاحا في الوطن فمتى تمت هذه الليالي رافقك السعد والاقبال باذن الاله المتعال ، فان حاربت انتصرت وان قاتلت ظفرت وقهرت . فشكره الزير على ذلك الاهتمام وغمره بجزيل الانعام . ومن ذلك اليوم أخذ لنفسه الحرز وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف أيامه بشرب المدام وأكل الطعام واشتهر الخبر في القبائل ان الزير أوقف الحرب مدة سبع سنين كاملات ..

وكانت قبيلة بني مرة قد هامت في الاقطار خوفا من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم على قتل كليب ... وما زال هو وقومه في خوف وحذر من عواقب الامور الى أن بلغهم خبر وقف القتال فزالت عن قلوبهم الهموم والاهوال ، ورجعوا الى الاطلال ...

هذا ما كان من بني مرة وجساس ، اما الزير فانه استمر على تلك الحال وهو في أرغد عيش وانعم بال الى ان كانت نهاية السنة السادسة فركب الى الصيد والقنص في جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة أيام . ومن الاتفاق الغريب أن جساس رأى حلما خلاصته انه شاهد حوض ماء بالقرب من صيوانه وقومه تشرب منه ... واذا بذئب كاسر جاء الى ذلك الحوض وهو بصفة جمل كبير وله ثمانية أنياب ، اخذ يشرب من الماء ويضرب الحوض بنابه فيشق من جانبه ويتبدد الماء ، حتى كاد

قومه يهلكون من شدة العطش والظمأ • ثم رأى النساء والاولاد بثياب السواد والدم جاري مثل المجاري والجمال تنهش بعضها البعض ودماءها تسيل على الأرض • فاستيقظ جساس خائفا من هول ذلك المنام واستدعى اليه اخوته وبني الاعمام وقص عليهم ما رأى وابصر فاستعظموا ذلك الامر وقالوا لا يوجد من يقدر على تفسيره سوى أحد المنجمين ••• فان حسن عندك استدعينا عمار الرياحي فانه يفسره لك على يقين •

فأرسل اليه وحضر وقص عليه ذلك الخبر فضرب الرمل ورسم الاشكال فبانت له حقائق الاحوال ، والتفت الى جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم : هذا المنام من عجائب الايام ، وهو يدل على شر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم الزير بوقت قصير ، وقد ظهر لي ايضا بأن المهلهل عنده مهر أدهم اسمه (عندم) قوي العصب والحيل، عديم المثال في الخيل• وسعد الزير مقرون بهذا الحصان وبه ينتصر في الحرب والطعن ، فاذا ملكتم هذا الجواد نلتم المراد وأسرتموه في القتال والطراد •

فلما سمع جساس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام وقال لهم : قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما في الحي غير النساء والحصان موجود في الدار ، هذه أوقات الفرصة وازالة الغصة •

ثم انه أرسل رجلا ليكشف له الخبر فسار ثم رجع وأخبره بصحة ما سمع• فركب جساس عندئذ في ثلاثة آلاف وطرق ديار المهلهل على عجل وأحاط بساحة الدار من اليمين واليسار ، فاستعظم بنات كليب ذلك الامر، فطلت اليمامة رأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس : ما الداعي يا خالي لقدومك الى الحي بالابطال والحي خالي من الرجال••

ــ جئنا بطلب المهر الادهم المدعو بعندم •

ـ اهلا وسهلا فيك مهما طلبت فلا نمسكه عنك غير انه لا خفاك بأن المهر خاصة بعمي فلا يمكننا السماح ..

• فلما سمع جساس كلامها أجابها يقول بهذين البيتين :

تعالوا اسمعوا قـول اليمـامة تقـول المهر لا أعطيـه غـالي
فاني قـاصد آخـذه سريعـا ولا أخشى العـداة ولا أبـالي

فضحك من جوابها ونزل عن ظهر الفرس ودخل الى الاصطبل فوجد المهر ، وضع عليه العدة وركبه وقال لليمامة : قد أخذت الحصان وغدا اطاردكم على ظهره .

ثم سار وهو فرحان حتى وصل الى الاوطان فقال لأخيه : قد أتيت بالحصان ومرادي أجربه في الميدان ..

فاتنخبوا ثلاثين رأسا من جياد الخيل الصوافن ، فاركبوها واكمنوا في عشر مكامن وانا أمر عليكم بأسرع من الريح ... فاتبعوني ... فان سبق هذا الجواد بلغنا منه المراد في الحرب والطراد .

فأجابوه الى مراده وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان أخـو جساس القميرة، ووقف في آخر كمين. وركب جساس ذلك الحصان وأطلق له العنان فسار به في تلك القفار بأسرع من الطير اذا طار ، ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعها ما عدا القميرة . ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وأمر العبيد أن يربطوه الى جانب صيوانه ووكل بهماية عبد وقال : لقد أقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد ..

• • •

هذا ما كان من جساس واما الزير فانه عند رجوعه من الصيد افتقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد الى القصر وسأل اليمامة وأشار يقـول :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل بدمع قد جرى مني بداد
يمامة رحت أنا للصيد قانص وقومي واخوتي ثم الجناد
لنا عشرون يوما في فلاة ودرنا من بلاد الى بلاد
وصدنا طيورا ووحوشا كثيرة وزدينا رجعنا للبلاد
وجيت لمهر أخي فما لقيته شرد عقلي وعني عاد غادي
فأين المهر قوطر يا يمامة عدم صبري وفارقني رشادي
أمات المهر أم أحد أخذه من الاوباش والناس الاعادي

فلما سمعت اليمامة شعر عمها أجابته تقول :

تقول اليمامة يا عم اسمع الا يا عم جاؤونا الاعادي
أتى جساس أخذه غصب عني أنا حرمة ومالي من جلادي
فقلت تأخذه يا خال تندم يجوكم غدا على خيل جياد
فقال غدا الاقيكم بعزمي وقد زادت غمومي بازدياد
فقم يا عم شد الخيل واركب بعسكر مثل هجمات الجراد
وميل على بني مرة بسيفك واحصد جمعهم مثل الحصاد

فلما فرغت من شعرها ونظامها أجابها الزير يقول :

يقول الزير قهار الاعادي انا السبع الجسور بكل وادي
غدا لا بد اجري في لقاهم واحصد جمعهم يوم الجلاد
وآخذ ثأرنا من آل بكر واطفي النار من طي الفؤاد
وآخذ مهرنا المدعو بعندم ويظهر ذكرنا بين العباد
فمن يذهب يقول لاولاد مرة أتاكم اليوم ذباح الاعادي
أتاكم مهلهل مع آل تغلب أسود الحرب في يوم الطراد
الا يا آل مرة سوف اشفي بقتل اسيادكم فرحة فؤادي
ولا يخفاكم يا آل مرة بقتل كليب صرتم لي أعادي

فلما فرغ الزير من شعره دخل وجلس في الديوان وجمع اخوته والامراء والاعيان وأخبرهم بواقعة الحال ، وقال لهم :

ــ ما رأيكم في استرداد الحصان ؟

ــ الرأي رأيك ونحن طوع يديك •

ــ متى كان الصباح تركبون في ثلاثة آلاف فارس وتكمنون في وادي الهجين ، وانا أكمن في وادي المعلا ••• وكان هذا المكان يبعد عن بني مرة مسافة ميل •

ثم قال لأخيه عدية : وانت ، قم الان وغير ثيابك وزيك والبس ثياب ممزقة حتى لا أحد يعود يعرفك ، واذهب لحي بني مرة فاجلس بقرب صيوان جساس فاذا سألوك عن بلادك ومهنتك قل لهم : اني من بلاد الصعيد ومهنتي هي سياسة الخيل ، وأنا قد بلغني ان جساس من محبته في الحصان كل يوم يسلمه الى سايس فاذا قال لك هل تريد أن تخدم عندي وتسوس هذا المهر فقل نعم حتى اذا تمكنت منه تركب ظهره وتلحقنا الى ذلك المكان فمتى صرت هناك ••• فلا تخف ولا تحسب لهم أي حساب ولو كانوا بعدد التراب، فاني سأبيد جمعهم بعون رب العالمين وآخذ ثأرنا من جساس اللعين •••

فاستصوب أخوه رأيه ولبس ثيابا ممزقة وتعمم بعمامة والتحف بحرام عتيق وغير زيه وتنكر ، وسار يقطع البر الاقفر الى ان دخل حي بني مرة فقصد صيوان جساس وكان قد أقبل الليل ، فرقد بين اطناب الخيام• ولما كان الصباح جلس الامير جساس واجتمعت حوله أكابر الناس ثم وضعوا موائد الطعام ، وأخذوا يتذاكرون بالكلام ، فبينما هم كذلك اذ حانت من جساس التفاتة فرأى (عدية) وهو على تلك الصفات فقال لبعض غلمانه : أطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته •

فأخذ الغلام صحن الطعام اليه وسأله عن بلاده ... فقال انني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة خيل الاماجيد ... فقد جار عليّ الزمان فأتيت من الاوطانْ قاصدا أهل الفضل والاحسان الى ان وصلت الى هذا المكان .

فطيب الغلام خاطره وأعلم مولاه بحاله ، فقال جساس : اذا كان من بلاد الصعيد فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد ، فدعوه يسوس لنا عندم المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد ، وان وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلي وجعلته رئيس اسطبلي ... فلما قال له الغلام ذلك الكلام دعـا لجساس بطول العمر ثم انه تحزم وتقدم الى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال له هذا يومك يا جوادي فقد بلغت الآن مرادي .. وكان المهر لما رأى صاحبه عرفه فمال اليه وآلفه ، فتعجب جساس وباقي الناس لأن الجواد كان لا يألف احدا من العبيد الموكلين عليه ، وكان كل من قاربه ضربه بيده ورجله فقال جساس : وحق رب الانام ان هـذا السايس يستحق الانعام والاكرام .

وكان عدية لما تمكن من المهر ركب على ظهره ثم لكزه برجليه وصاح فسار مثل هبوب الرياح وجد في قطع البطاح كأنه طير بلا جناح ... فلما رأى جساس تلك الحال تغيرت منه الاحوال ، وعلم انها حيلة قد تمت عليه فلطم خده ووجهه وصاح على الابطال والفرسان وقال : دونكم هذا الشيطان فقد احتال علينا بالمقال وخدعنا بالمكر والاحتيال ... حتى نال طلبه وبلغ قصده وأربه .

فعند ذلك ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتبعوه في تلك السهول وهم يصيحون وراءه، ويجدون في قطع الفلاة الى ان وصل (عدية) الى ذلك الوادي والغدير، فوجد أخاه الزير كامنا في جماعة من الأبطال الفرسان ، فأعلمه بواقعة الامر وقال له :

ـ خذ حذرك الآن فقد أتتك الفرسان من كل جانب ومكان ...

فتبسم المهلهل وقال : سوف ترى ما أفعل .

ثم انه نزل عن ظهر حصانه واعطاه لأخيه. وأخذ المهلهل الأدهم ووضع عليه عدة جواده ثم ركب وتلملم واذا بالخيل والموكب قد أحاطت به من كل جانب ، فصاح عليهم وحمل بقلب أقوى من الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه ليث الآجام ، فطير الرؤوس عن الاجسام وفتك فيهم فتك الذئاب بالأغنام . وفي أقل من ساعة أدركته بقية الجماعة الذين كانوا كامنين في وادي الهجين فانصبوا عليهم كالشواهين من الشمال واليمين وكان قد وصل الخبر الى جساس فأخذه القلق والوسواس فركب بباقي الابطال ومن يعتمد عليهم من الرجال وقصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وكثر القيل والقال وتزلزلت الارض من شدة القتال. وكانت واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة ... انهزم فيها جساس أقبح هزيمة وغنم المهلهل غنيمة جسيمة لها قدر وقيمة ... ورجع الى الديار بالعز والانتصار فالتقته النساء بالدفوف والمزاهر ... ولما دخل الى القصر وهو منشرح الصدر شكرته بنات أخيه على ما فعل وقلن : لله درك من بطل ، فقد أخذت الثأر وطفيت من القلوب لهيب النار فالله يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك وأعاديك ..

فشكرهن على ذلك الكلام، وبعد ان خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام ثم دخلت أمه فقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصار وطلبت منه ان يرفع عن بني مرة السيف البتار ... فاستقبلها بالوقار والاعتبار وقال

ـ والله اني لا أصالحهم يا أماه حتى يعود كليب الى قيد الحياة .

ثم تذكر تلك الواقعة وما جرى له في ذلك اليوم مع القوم فأنشد يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل وقلب الزير قاسي ما يلينا
وان لان الحديد ما لان قلبي وقلبي من حديد القاسيينا
تريد أميه أن أصالح وما تدري بما فعلوه فينا
فسبع سنين قد مرت عليّ أبيت الليل مغموما حزينا
أبيت الليل أنعي في كليب أقول لعله يأتي الينا
أتتني بناته تبكي وتنعي تقول اليوم صرنا حائرينا
فقد غابت عيون أخيك عنا وخلانا يتامى قاصرينا
وأنت اليوم يا عمي مكانه وليس لنا بغيرك من معينا
سللت السيف في وجه اليمامة وقلت لها أمام الحاضرينا
وقلت لها ما تقولي أنا عمك حماة الخائفينا
كمثل السبع في صدمات قوم اقلبهم شمالا مع يمينا
فدوسي يا يمامة فوق رأسي على شاشي اذا كنا نسينا
فان دارت رحانا مع رحاهم طحناهم وكنا الطاحنينا
أقاتلهم على ظهر مهر ابو حجلان مطلوق اليمينا
فشدي يا يمامة المهر شدي واكسي ظهره السرج المتينا
وهاتي حربتي رطلين وأزود وحطيها على عدد متينا
ونادي على (عدية) وكل قومي صناديد الحروب المانعينا
ونادي اخوتي يأتوا سريعا لنلقى جيش بكر أجمعينا
فنادتهم أتوا كأسود غاب وقالوا قد أتينا يا أخينا
وباتوا يحرسون الليل كله وقضوا الليل كله شاهرينا

فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره الجميع على مقاله وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح • ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ، أمر الزير قومه بالاستعداد للحرب ••• فركب ظهر الجواد وتبعته الفرسان

والفواد وقصدوا بني مرة بقلوب قوية وهمم علية ، فالتقاهم جساس مع اخوته وأهله وعشيرته واشتبك بينهم القتال وعظمت الاهوال وابتلت بني مرة بالبلا والويل ، وكان الزير يحصد فيهم بالنهار والليل. واستمر القتال بين الفريقين مدة سنتين حتى فقد من بني مرة في هذا الحرب الاخير نحو المئات ، وكان الزير يأمر قومه بقطع الرؤوس ووضعها في المخازن لانه كان قد أقسم بالله انه سيملي البيوت من جماجمهم وباقي الاماكن. فلما طال المطال واشتدت على بكر الاهوال اجتمعت أكابر الناس مع الامير جساس وأخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون من هذه الحرب الملعونة ، لان الزير كان لا يقبل منهم فدية وجميع وسائطهم التي استعملوها في توقيف الحرب راحت سدى ... فقال سلطان لأخيه جساس اعلم يـا أخي بأن الزير في كل صباح يمر على قبر أخيه كليب فيحييه بالسلام ويقول لـه قد قتلت في ثأرك فلان وفلان فهل اكتفيت أم لا ... فلا يجيبه أحد . فالرأي عندي ان تنتخبوا رجلا وتضعوه داخل القبر بحيث لا يراه أحد فاذا مر الزير على القبر حسب عادته وسأل أخاه ذلك السؤال أجابه الرجل بصوت خفيف من قلب ضعيف : لقد اكتفيت يا أخي فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم واياك أذية البشر فان ذلك مما يجلب علي الضرر. فاذا سمع هذا المقال فربما انطلى عليه هذا المحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال . فاستصوب جساس وباقي الاعيان رأي الامير سلطـان ..

وكان في القبيلة رجل فقير الحال عديم الاشغال فاستدعاه جساس اليه وقص ذلك الكلام عليه ، وقال له اذا بلغنا الارب واجبتنا إلى الطلب أعطيتك ما تريد من المال والعبيد . فقال : الاجرة مليحة ولكن الطريقة خطرة قبيحة. فأخذ جساس يحمسه بالكلام ويقنعه بقبول هذه النصيحة.. حتى قبل ورضي ..

ولما كان الليل حفروا سردابا اوصلوه الى القبر وادخلوا ذلك الرجل فيه . ولما كان الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعته الابطال والفرسان ومر على قبر أخيه حسب عادته ونادى بصوت عال : نعمت صباحا يا أخي كليب . لقد قتلت في ثأرك نهار أمس عشرات الانفس، أيكفي ما قتلت منهم أم ارجع لأفنيهم عن بكرة أبيهم .

فأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف : وأنت أنعمت صباحا يا أخي الحنون يا ساقي الضد كأس المنون ... كف الحرب فقد اكتفيت واشتفيت وان قاتلتهم بعد اليوم تكون قد تعديت وبغيت... فتزيدني ضررا وغما وكدرا . ان نفسي قد بلغت منـاها ونالت مشتهاها فكثرت خيراتك وزادت في الدنيا مسراتك ..

فلما سمع الزير هذا الكلام زالت أتراحه وزاد فرحه وانشراحه وقال: سبحان الله الرحمن الرحيم الذي يحي العظام وهي رميم ، أنت يا أخي بخير ونحن بعدك نقاسي الضنك والضير !! ثم نزل عن ظهر الحصان ودخل الى القبر وهو فرحان يقول : اذا كنت بخير يا أبا اليمامة فما هذه الاقامة هنا بعد العز والكرامة فقم الى بناتك فانهن في حزن وكدر .

ثم تقدم اليه وتأمل فيه بالنظر فرأى انه ذلك الرجل المعهود ، فغاب المهلهل عن الوجود وجذبه من لحيته وأخرجه من السرداب وقال له :

ـ اصدقني الخبر، فمن انت ومن تكون قبل ان تشرب كأس المنون؟

فأعلمه بواقعة الحال وحقيقة الاعمال فسل السيف ليقتله وقد أغاظه فعله، فقال : أنا بجيرة كليب أخيك فلا كان من يعاديك وقد غرني جهلي من قلة عقلي حتى جرى متى ما جرى ..

فلما سمع الزير كلامه أبدى ابتسامه فصفح عنه وأعطاه جوادا من أطايب خيل العرب وألف دينار من الذهب. فدعا له بطول العمر ، وخرج

من القبر وهو يقول :

ـ والله ان الامير كليب يحمي اليوم الخائف في مماته كما كان في حياته •

ثم رجع الزير الى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة ، وفي الغد ركب في فرقة من الابطال وقصد بني مرة واشتبك معهم بالقتال وعظمت الاهوال • وما زالوا في قتال وصدام مدة عشرة أيام فانكسرت بنو مرة أشد انكسار وقتل الزير مقتلة عظيمة المقدار ، وكان يأتي برأس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مقدار ساعة ثم يدفنها تحت الثرى ويبني فوقها القصور والقرى وكان كلما أقبل من الحرب في المساء تلتقيه اليمامة مع جماعة من النساء فتقول يا سيد الناس : هل أتيت برأس خالي جساس حتى نخلع السواد ويطيب الفؤاد •

فيقول : كوني براحة بال فسوف تبلغين الامال باذن الاله المتعال •

هذا ما كان من المهلهل ••• وأما جساس فانه كان في قلق عظيم ولما ضاقت به الحيل اجتمع مع اهله وعشيرته وعقدوا بينهم ديوانا فاستقر رأيهم ان يذهبوا الى بلاد الحبشة والسودان ويلتجوا بالملك الرعيني ابن أخت التبع حسان ، فركب جساس في اليوم التالي مع اخوته وأكابر عشيرته وأخذ معه أخته الجليلة لتشفع لهم عند حريم الملك الرعيني ، وبقي أخوه شاويش في الحي ••• وكان هذا يحب الزير من أيام صباه ، فعند رحيل جساس حضر شاويش الى عند الزير واعلمه بما جرى وعن مسير اخوته الى عند ملك الحبشة والسودان ، فأعطاه الزير الامان وقال له :

ـ لن أحاربكم حتى تحضر اخوتك الى الاوطان بالابطال والفرسان •

وتوقف الزير من ذلك اليوم عن محاربة القوم وصار يصرف أوقاته بالصيد والقنص • هذا ما كان من المهلهل ، واما جساس فانه كان

قد جد بمن معه في قطع القفار حتى وصل الى بلاد الحبشة وتلك الديار ودخل على الملك الرعيني ووقع عليه بعد ما أعلمه بحالتهم الحاضرة وطلب منه النجدة والمساعدة على حرب الزير ، وذكر له ايضا بان كليبا قتل خاله تبع حسان وقتله هو، وبقتله قام أخوه الزير فحاربهم حتى كاد ان يفنيهم. فلما سمع الرعيني هذا الكلام قال : لقد بلغت اليوم منكم المرام ولا بد من ذبحكم بحد الحسام لانكم من قوم لئام قتلتم خالي وأتيتم تستجيرون بي. ثم أمر بقبضهم . وكانت الجليلة واقفة على باب الصيوان وهي مثل الطاووس لابسة أفخر الملبوس كأنها العروس . فلما شاهدت ما جرى على قومها خافت من العواقب ، فشقت المواكب ومثلت امام الرعيني فقبلت أياديه ودعت له بطول العمر فلما رآها الرعيني تعجب من فرط حسنها فمال قلبه اليها ووقع في شرك هواها فقال لها : من تكونين يا مهجة الفؤاد وبغية المراد ؟...

فقالت له : اني أخت القوم الذي أمرت بقبضهم بدون ذنب وقد أتوا يقصدونك من بلاد بعيدة لتساعدهم وتعينهم على عدوهم لا لتكون عليهم ..

فلا تشمت الاعدا فينا ايها الملك واحترمنا نكن من رجالك واعوانك ..

فتأثر الرعيني من جدتها ووعدها بالمعونة، ونادى بأخيه غطاس ليجمع الجنود ويهيء السلاح للزحف والرحيل ..

أخذ غطاس شقيق الملك الرعيني لما سمع أمر الملك بالاستعداد للرحيل وجمع الجنود والبنود ونادى المنادي ان السفر يكون بعد ثلاثة أيام . ولما تجهزت العساكر للمسير لحرب الزير كانوا يعدون بالالوف ، ففرح جساس ومن معه من الناس لما رأوا تلك السهول قد امتلأت بالخيول ، وفي اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت

العساكر كالبحور الزواخر في اوائلهم الملك الرعيني وأكابر دولته وجساس وباقي عشيرته • وما زالوا يقطعون البراري والاكام حتى وصلوا الى بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذا العسكر وان يهيئوا لهم الاطعمة والذخيرة• فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحا عظيما، وهيئوا لهم ما يحتاجون اليه من الطعام والمدام • وخرجت النساء والرجال للقائهم • فلما وصلوا الى الديار نزلوا في المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الوطر ••

كل هذا يجري والزير لا يعلم بما يجري •• بل كان مواظبا على السرور وشرب الخمور • فبينما هو كذلك اذ دخل عليه اخوه عدي وقال له · انت جالس في صفاك ولا تدري بما دهاك من اعدائك! وأشار ينشد ويقول :

لقد قال الفتى المدعو عديا ودمع العين فوق الخد ساحم
اراك اليوم في زهو ولهو تنبه يا أخي ان كنت نائم
فقم وانظر على ما سوف يجري من الاعداء يا ابن الاكارم
أتونا قوم مرة بالرعيني ملك جبار بالاحكام ظالم
لقد ذهبوا اليه يا مهلهل فجاء بست كرات عوالم
بهم من كل قرم ليث أروع وهو فيهم كمثل الصقر حائم

فأجابه الزير :

تبدى الزير حالا ثم قال له تخاف من العدى واخوك سالم
انا وحدي الاقيهم بعزمي انا الدعاس في يوم الزحايم
واني سوف افتك بالرعيني واقطع رأسه والله عالم
وافني جيشه مع جيش مرة انا المقدام ما بين المعالم

فلما فرغ الزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من

هذا المقال وشكروه على تلك الفعال واخذوا يستعدون للحرب والقتال • واما الزير فانه صبر الى الليل فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من البشر • وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الامراء وارباب المناصب والرتب طمعـا بالفضة والذهب ، ثم ركب الحصـان وتقلـد بالحسام من تحت الثياب وأخذ معه بعض الغلمان وسار الى قبيلة بني مرة ولم يعلم به انسان • ولما اقترب من الحلة نزل عن ظهر الجواد وسلمه الى الغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل الى صيوان الرعيني • فوجده جالسا وحده فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه ••• فلما رآه الرعيني في ذلك المنظر خاف واندعر وسأله عن مهنته • فقال : انني شاعر أطوف على الامراء والاكابر فأحصل منهم على الانعام ومزيد الاكرام • وقد سمعت انك في بني مرة فأتيت أقصدك من مدينة البصرة الى ان تشرفت بطلعتك وتمثلت امام حضرتك ••

وكان للرعيني زوجة تدعى (بدور) كانت خلف الستار فسمعت مـا دار بينهما من الكلام فارسلت جاريتها تقول للملك ان يأمر الشاعـر بالانشاد ، فقال الرعيني : انشد يا شاعر• فأنشد الزير يقول :

قال الاديب الذي طالب احسانك ... جرحي بوسط الحشا والقلب نزاز
يا بو فهد يارعيني استمع ما اقول ... يا من قلوب العـدى بالروع هزاز
قد كنت قبلا في خير وفي نعـم ... مستور بـين اهلي مـا أنـا معتاز
فصرت شاعر على الاجواد أقصدهم ... أطوي الاراضي وانا ماشي على عكاز
قالوا فسر للرعيني مقصد الشعرا ... فذاك جواد يعطـي كـل معتـاز
فجئت طالبا احسانك واكرامـك ... يا من حويت المكارم في عطا المعتاز

فلما فرغ الزير من قصيده اعطاه الملك الف دينار فسل الزير عندئذ سيفه الابتر بأسرع من لمح البصر وضرب الرعيني بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه ، ثم مال على الطواشية والخدم بضرب الحسام وبعد ذلك هجم

على الخيام فقتل الرجال ومدّد الابطال. فوقع في القوم الضجيج والصياح والعويل والنواح ، وخرج الابطال من المضارب وركبوا ظهور النجائب وتقلدوا بالسيوف وهجموا على بني مرة بالالوف وهم لا يعرفون سبب هذا الويل من شدة سواد الليل غير انهم ظنوا أن بني مرة قد خدعوهم حتى أتوا معهم الي بلادهم فقتلوا ملكهم وغدروهم ... فلما رأى جساس ما حل بقومه من السودان استعظم ذلك الشان فركب جواده وتبعته اجناده واضطر ان يدافع عن نفسه ويحامي عن ابناء جنسه . فقاتل تلك الليلة حتى استقتل ، وفعل رجاله مثله ، وكانت ليلة مهولة وحادثة غير مأمولة كثر فيها القتل والجراح الى وقت الصباح .

وكان المهلهل لما بلغ القصد والامل بذلك العمل ، ارسل عبده في الحال الى الاطلال في طلب الفرسان والابطال . فحضروا عند طلوع النهار ، وأحاطوا بالاعادي من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار . واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة أيام ، حتى بلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار وأسد كرّار . وكان من جملة المقتولين الامير غطاس قائد جيش الاحباش. فلما رأت جنوده ما حل بها من الهوان ولت الادبار . وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا بالفلاة وهم لا يصدقون بالنجاة ... وعاد الزير مع قومه التغلبيين غانمين ظافرين .. فدخل القصر بالعز والنصر وصحبه أكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون : لا عدمنا طلعتك ايها البطل ، فبسيفك نلنا المراد وقهرنا الاعادي والحساد . فلا زالت ايامك في سعود وعدوك مقهور ومكسود ..

ثم انهم اكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا تلك الليلة في سرور وأفراح على ذلك الانتصار . وأما الامير جساس فانه بات في قلق ووسواس وندم على ما فعل وقطع من سلامته الامل . لا سيما لما بلغته

الاخبار بأن ذلك الاختلاف والانكسار الذي جرى عليهم في الليل والنهار كان بحيلة الزير الاسد الكرار ، فزاد همه وعظم حزنه وغمه . فكاتب قبائل العرب يطلب منها المساعدة على قتال بني تغلب. فانضمت اليه عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعهم يدا واحدة . وكذلك انضم مع الزير جملة قبائل مشاهير حتى لم تبق قبيلة في بلاد العرب الا وانضمت مع بني بكر أو تغلب ..

ومن غريب الاتفاق ان المهلهل خرج ذات يوم في عشرة آلاف بطل ومعه الامير كنيف ، وكان من اشرف تغلب وفرسانها الغطاريف وتبطن في جوانب القفر ليتعرفوا على احوال بني بكر . فمرا بقبيلة من قبائل العرب يقال لهم بنو تميم ... وهم فرع من تغلب . وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة ، فاجتمع المهلهل بفرسانها وسيدها الامير عمر وقال لهم «اركبوا معنا يا بني تميم لقتال بني بكر» فأبوا وقالوا بلسان واحد : لا نحارب من لم يحاربنا من العربان .

فقال المهلهل : اما شملتكم الحرب لحد الآن ؟

فقالوا : لا ، يا فارس الميدان .

فقال : فوحق الاله الخالق ما كنت أظن الا انها شملت كل من في المغارب والمشارق ، وما دام الامر كذلك يا وجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفا من حلول العطب واقصدوا غير هذه الديار لان مرادنا ان نقاتلهم تحت ستور الاعتكار، فان حاربناهم لا تأمنون على أنفسكم من شرهم واذاهم لانكم فرع من قبيلة بني تغلب فينقمون منكم لهذا السبب.

فقالوا : ما علينا من بأس فانهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس.

فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه أشد من ضرب الحسام فتركهم وسار على الأثر بمن معه من العسكر وجدّ في قطع القفار .

فالتقى بقوم من بني بكر في ذلك الجوار ، فكبسهم تحت جنح الظلام وبلاهم بالذل والويل . فسلب اموالهم وقتل رجالهم وأخذ رؤوس سادانهم العظام ، ورجع في الظلام ، وطرح الرؤوس بين خيام القوم المعتزلين من بني تميم المذكورين كانوا نياما ثم تركهم وارتحل وسار على عجل • فلما استيقظ بنو تميم من النوم ورأوا الروس بين اطناب الخيام فأيقنوا انها مكيدة من المهلهل • فزاد بهم الخوف والوجل وعلموا انه لا بد ان يتهمهم العدو بذلك العمل • فنهضوا وارتحلوا من اطلالهم بمواشيهم واموالهم وانضموا الى قبيلة بني تغلب والتجأوا بالمهلهل فارس العجم والعرب • فلم تبق قبيلة من قبائل العربان في ذلك الزمان الا شملتها الحرب والهوان ••

• • •

ولما عظم الامر على جساس وضاقت منه الانفاس قصد العابد نعمان فوقع عليه وشكا حاله اليه ، وبكى بين يديه وطلب منه ان يسير بالعجل ويقصد الامير مهلهل ويطلب منه الكف عن الحرب والطعان مدة من الزمان، حتى ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحروب، التي أهلكت الرجال وأرملت النساء ويتمت الاطفال •

فلما سمع العابد قوله رق قلبه فسار الى الزير في الحال وطلب منه ان يكف القتال ولو كان لبرهة قصيرة ومدة يسيرة ، وذلك لراحة القبيلتين وخير الفريقين • فأجابه الى ذلك المرام لانه كان يحبه دون باقي الانام . وأمر بوقف الحرب عن القوم من ذلك اليوم• واشتغل المهلهل في تلك الايام بالملاهي وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الاصوات والانغام ومغازلة النساء في الصباح والمساء • وكان جساس يترقب على المهلهل الفرص ليقتله ويزيل ما بقلبه من الغصص • فبلغه في بعض الايام بأن

الزير طريح الفراش في الخيام من كثرة شرب المدام وان اخوته قد خرجوا للصيد ولم يرجعوا الا بعد ثلاثة ايام، فجمع اخوته اليه واعلمهم بذلك الخبر واتفق رأيهم انه بعد غروب الشمس يركب اخوهم سلطان في جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزير على حين غفلة • ولما كان الليل ركب سلطان في ثلاثة آلاف بطل وقصد حي المهلهل • ولما صار هناك هجم عليه وهو راقد في الخيمة سكران ، فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه وأوثقوه كتافا ثم نزلوا عليه بالسيوف الى ان اثخنوه بالجراح واتلفوه حتى صار عبرة لمن اعتبر وكان دمه يسيل كالمطر• فزادت افراحهم وزالت أتراحهم وقالوا : لقد بلغنا الارب ورفعنا الحرب عن العرب• ثم انهم وضعوه في جلد جاموس وأخذوه الى عند أخته ضباع -وقالوا لها : قد أتيناك بقاتل ولدك فخذيه واشفي منه غليل كبدك فيا ما قتل، ويتم ورمل ! فما هان عليها ذلك الامر لكنها أظهرت لهم السرور والفرح وقالت : ان جزاء الغدار الحرق بالنار • ثم تركوها وساروا • وأما هي فقد احتارت في أمرها وزادت احزانها عليها• نعم، لقد قتل ولدها لكنه شيد للقبيلة ذكرا لا يبور على مدى الدهور • فبينما هي تفكر واذا به قد فاق من غشوته وصحى من سكرته وقال وهو على آخر رمق : سبحان الحي الدائم ••• ثم صاح يطلب عبده شهوان وهو يظن انه في ذلك المكان فقالت له ضباع : قد انتقم منك اعداؤك، فتيقظ، فقد ذقت الموت والهلاك • فلما رأى نفسه عند اخته وهو على تلك الحال أنشد وقال :

قال الزير ابو ليلى المهلهل ... ونار الحزن توقد في حشاه
فكان كليب ملك البرايا ... أتى جساس فغدره بالفلاه
جلست مكانه آخذ لثأره ... وكنت أنعيه صباحا مع مساه
فقال الشيخ كف الحرب عاجل ... ولا تنقل لسيف أو قناه
جلست بخيمتي والدن جنبي ... وعندي العبد ما عندي سواه

وقومي كلهم للصيــد راحوا فعرف القوم مــع باقي العداه
أتوني والمقــدر كــان كــائن وحــلّ بي كل مــا أنت تراه
أتوا بي لعندك يــا اخت حتى تنــالي الثأر يــا غــاية منــاه
كليني يــا ضباع أو اقتلينــي انا أخوك اذا احتبــك القنــاه
فانتي تشبهي اللبــوات حقــا وانــا مثــل سبــع للفــلاه

فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الوجود ٠ ولما سمعت ضباع مــن أخيها هذا الكلام صار الضيا في عينها ظلام ، فجاءت بصندوق كبيــر فوضعت فيه سالم الزير وزفتته وطلته بالقير ٠ وكان عندها عبدان فأمرتهما ان يحملا ذلك الصندوق ويلقياه في البحر ٠ فحملاه وسارت هي معهما تحت جناح الظلام الى ان اوصلاه الى شاطىء البحر فطرحاه هناك فــي البحر ، ثم بكت عندما غاب عنها أخوها ورجعت من فؤاد مجروح تقول : يا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك ، فقد احرقت قلبي بفراقك يــا جميل المحامد وفخر الاوائل والاواخر ٠

ثم رجعت الى الحي وصبرت حتى رجع اخوتها وبنــو عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك القضية وما حل بالزير وقالت : والله انكم بعــد أخيكم المهلهل تتعبون مع جساس ٠ فتأسفوا جميعهم عليه وبكوا مــن فؤاد موجع ٠ ثم ان (ضباع) كتمت ما فعلت بأخيها ، وشاع الخبر انها أحرقته بالنار واخذت منه الثأر ٠ ولما شاع الخبر وانتشر بين الناس فرح بنو مرة وجساس ٠٠٠ وأما اخوة الزير فقد شقوا ثيابهم من فرط احزانهم واخذوا يعددونه ويندبونه بالاشعار ويذكرون ما له من محاسن الاثار ٠ وكان أكثرهم حزنا عليه أخوه عدي الذي كان يحبه كثيرا ٠٠

٠ ٠ ٠

سار جساس الى حيهم بعد ان انتهوا من المهلهل كما اعتقدوا وتوهموا ، وهم في افراح وسرور وانشراح • ولما وصلوا الى الصيوان جلس جساس في الديوان ، واجتمعت حوله الابطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة ، اجتمع فيها خلق كثير من كل امير وسيد خطير ، فرقصت النساء والبنات ودارت بينهم الافراح والمسرات حتى انشرحت خواطر السادات • وكان عندهم ذلك النهار من أعظم الاعياد والكبار ••

ولما بلغ بنو قيس حقيقة الخبر وان المهلهل مات واندثر غابوا عن الوجود وأيقنوا بالموت الاحمر فزادت بليتهم وعظمت مصيبتهم ، فمنهم من ارتحلوا من الديار وقصدوا الامير جساس طلبوا منه الامان دون باقي الناس • فأعطاهم الامان وجعلهم من جملة الخدام والغلمان • ولم يبق عند اخوة الزير الاشراف الا شرذمة يسيرة وعصبة حقيرة ، فقصدهم جساس بجماعته ودار بهم من اليمين والشمال فسلموا امرهم اليه، ووقعوا عليه • فنهب اموالهم واخذ نوقهم وجمالهم ثم اشرط عليهم ان لا يوقدوا نارا في النهار والليل ولا يركبوا على ظهور الخيل بل يتربصوا مكانهم في الخيام، فأجابوه الى ذلك المرام خوفا من الاندثار والدمار • ثم عاد جساس الى الديار بالفرح والاستبشار فعظم شأنه وتأيد بالعز مكانه وصار في مقام عظيم وحكم على الاقاليم السبعة ••

اما اخوة المهلهل فانهم بعد هذا العمل رحلوا من اطلالهم بأولادهم واطفالهم ونزلوا في وادي الشعاب وهم في بكاء وانتحاب وذل وعذاب وصبروا على حكم رب الارباب •

واما الزير الاسد الغضنفر فانه لما ألقته اخته في البحر كما سبق الخبر قذفته الامواج في البحر العجاج الى ان ساقته التقادير الى ميناء • واتفق بالامر المقدر ان ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون السمك

شاهدوا ذلك الصندوق في البحر تلعب فيه الرياح وتقذفه طوارق الامواج فقال احدهم للآخر : انظر هذا الصندوق قد ساقه الينا الاله.

ثم انهم قصدوه في الحال وسحبوه الى الشاطىء بالحبال، وذلك بعد تعب ونكد ما عليه من مزيد .

فقال رئيس الشختور لباقي الاعوان : تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل ان نفتحه يا اخوان فيأخذ كل واحد منا حقه على قدر ما يستحقه . فأجابه بعض الرجال : ما هو مرادك بهذا المقال .

فقال : ان لي النصف ولكم الآخر لاني صاحب الشختور والرئيس الاكبر . فقال أحدهم : وحق حمار العزير ماتنال منه شيء يا كبير .

ثم وقع بينهم الخصام وتشاتموا بالكلام فضرب أحدهم الرئيس بسكين فقتله، وكان للرئيس أخ فضرب القاتل بالمقذاف فجندله. وما زالوا يتقاتلون طمعا بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى رجل واحد. واتفق بالامر المقدر ان ملك المدينة خرج في تلك الساعة مع أكابر دولته للصيد والقنص فمر من ذلك المكان ، فوجد الصندوق والرجل والقتلى على الارض. فوقف وسأل الصياد عن السبب ، فأخبره بواقعة الحال . فتأمل الملك الصندوق وتعجب من كبره وثقله ، واراد ان يعرف ما فيه فأمر بحمله الى السراي وارتد راجعا مع باقي رجاله . فلما صار هناك أمر بفتحه ففتحوه، واذا به رجل طويل القامة عريض الهامة واسع المنكبين كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح ، فقال الملك لحواشيه : ماذا وجدتم فيه .

قالوا : أيا ملك الزمان ، فيه انسان كأنه من عفاريت سليمان ... له عيون كعيون السباع. فلما نظره الملك خاف وارتاع وقال للاتباع : كم له يا ترى من الزمان في هذا المكان !!

قال الراوي وكان عند الملك حكسون طبيب ماهر اسمه شمعون فتقدم الى الزير وهو مطروح وجس زلعومه وعرق الروح فوجده يختلج في أعضاه • فقال للملك ان الرجل في قيد الحياة •

فقال له : هل تقدر ان تشفيه وانا اعطيك ما تشتهيه •

قال : نعم يا مولاي• ثم نهض على الاقدام وقال بسم الله العلي العظيم فشمر عن زنوده واخذ اسفنجة وبلها بالماء الخارج ومسح الجروح ووضع المرهم على القروح، ثم جاء بعسل النحل فغلاه وفتح فمه وسقاه • وفي برهة قصيرة اختلجت اعضاءه وتحركت وفتح عينيه ، ونظر فتأمل في ذلك المحفل فرأى جماعة من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فاعتراه الانذهال ، وشكر الاله المتعال • فقال له حكمون من انت ومن تكون وما هو اسمك؟ فقال اسمي موحد انا اعبد الاله العظيم رب موسى وابراهيم•

ـ ما هي قصتك وسبب وضعك في هذا الصندوق ؟

ـ كنا اربعة سياس عند الملوك وكنت انا المقدم على الجميع فحسدوني وضربوني ذات يوم ليقتلوني فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أر نفسي الا في هذا المكان •

فقال الملك للحكيم : خذه الى عندك وداويه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك أحضره اليّ •

فأخذه الحكيم الى داره وعالجه مدة من الزمان حتى ختنت جراحه وتحسنت احواله •••فأتى به الى عند الملك• ولما دخل الزير على الملك سلم عليه وتمثل بين يديه، فقال له الملك : كيف انت الان يا موحد •

فقال : بأنظارك الشريفة شفيت وحصلت على تمام العافية فلله در هذا الحكيم فانه يستحق الانعام والاكرام فمهما انعمت عليه فاني سأعطيك ايـــاه •

فتبسم الملك من هذا الكلام وانعم على الحكيم ثم التفت الى المهلهل وقال له : اعلمني بحالك وكيفية احوالك. وأشار حكسون يقول :

قال اليوم حكسون الملك ... يا موحد استمع مني المقال
هات احكي لي على ما صار فيك ... ما عملت وما فعلت من الفعال
حتى طعنت يا موحد بالرماح ... وجرّحوك كثير بسيوف صقال
يا موحد انت اليوم رجل مليح ... قرم فارس خيل ما انت هزال
قول لي عن هذي الجروح كيف صارت ... ما سببها قول يا سبع الرجال
ثم اعلمني على ما قد أقول ... يا زكي الاصل عن عم وخال
في بلادك ان اتوك الغانمين ... يضربون الشور لك معهم مقال
بعد هذا قل لنا عن صنعتك ... التي تأكل منها خبز حلال

فلما فرغ حكسون من مقاله قال له الزير : اعلم ايها الملك الجليل صاحب الفضل الجسيل ان سألت عن حسبي ونسبي ووظيفة ابي فانه كان من ملوك العربان ، ثم غدر به الزمان حتى صار يسوس الخيل وانا تبعت مهنته وهذه وظيفتي ومهنتي • وأشار يقول :

قال ابو ليلى المهلهل في قصيد ... يا ملك حكمون يا حلو الخصال
في بلادي ان سألت عن الجلوس ... مجلسي بالوسط فوق أعلى الجبال
وان سألت عن الشور كل الشور لي ... ما أحد يقدر يخالف لي مقال
وان وقع الحرب وضرب السيوف ... فالعذارى هللت فوق الجمال
والسيوف الحدب عاد لها مرير ... والقتلى عادت تلولا كالرمال
فذاك اليوم انا أعز الملاح ... ما مثالي في اليمين وفي الشمال
وان أتاني ضيف أنا عز الضيوف ... اشبع الضيوف من لحم الجمال
والفتى المعروف منجد يا أمير ... ابن وائل ذاك لي يا امير خال

ان كنت تسأل يا ملك عن صنعتي   صنعتي حاصود في روس الرجال
اما ابي فكـان ذو قـدر عظيـم   مال فيه الدهر يـا حكمون مـال
صار سايس بعـد عـزه للخيول   بالكرامـة بعـد عـزه والـدلال
وانـا قد صرت سـايس بعـده   اسوس الخيل مـا مثلي مثـال
وجروحاتي هي من عض الحصان   قـد ضربني برجله اربـع نعـال
قمت من كدري ضربته في حشاه   راحت السكين تلعـب للعـزال
لاجل ذاك المهر سووا هل فعـال   ورموني بالذل مـع كثـر الخيال

فلما سمع حكمون هذا الكلام من الزير غضب عليه وقال له :

ـ انت كذاب فقد اخبرتني قبل الآن ان رفاقك قتلوك واليوم تقول الحصان ضربني فتكذب علي وتحتقرني ! فلو كنت من الاكارم ما جرت عليك هذه العظائم ..

ثم صمم على قتله فتشفعت فيه أكابر دولته ووضعوه فـي السجن، فبقي هناك مدة سنة كاملة وكان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم . فضجت منه الناس وشكوا أمرهم الى الملك وقالوا له اذا كان هذا سايس كما يقول فاجعلوه يسوس الخيل، لانه يقاسمنا طعامنا غصبا وقهرا ، وهذا الامر لا يطاق، فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جبينه ..

فاستدعاه الملك اليه وقال له : هل انت ماهر يا موحد بسياسة الخيل؟

قال : نعم. فقال : سلموه خيلنا فاذا وجدنا له معرفة اكرمناه .

وكان كثيرا ما ينفرد بنفسه ويتذكر اهله وعشيرته وما هو فيه مـن الهوان والاسر ويبكي ويقول : يا ليت شعري ما جرى على اهلي مـن بعدي . لأن الاسير كما لا يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير فكيف من يكون مثل الامير سالم الزير الـذي قهر الابطال المغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير . فانه بعد ذلك

العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام وقع في الاسر. فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل • ولكنه سلم أمره الى الله وأقام ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الاقتناص •• وكان قد انتخب له فرسا من أطايب الافراس كانت طويلة العنق قصيرة الراس وأجود من القميرة فرس جساس ••• فاعتنى بتربيتها حتى حالت ، فأخذها الى شاطىء البحر وربطها هناك فخرج عليها الحصان من البحر فثب عليها فراحت حامل • وبعد عام ولدت مهرا أدهم كان كامل الأوصاف ململما• فسماه الأخرج لخروج أبيه من البحر، ثم فعل معها ذلك في الثاني فولدت له مهرا آخر كأنه الابجر حصان عنتر فسماه (ابو حجلان) واعتنى بهما دون باقي الخيل وكان يسوسهما في النهار والليل• وقد استمر على تلك الحال مدة اربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين ••

• • •

واتفق في تلك الايام ان خرج برجيس الصليبي احد ملوك الروم مع أخيه سمعان في مائتي الف عنان من بلاده وتلك الحدود لمحاربة حكمون • وذكر رواة الاخبار وعظماء الامصار ان مدينة حكمون كانت مدينة مزخرفة البنيان كثيرة الحوانيت والبيوت • فلما اقترب اليها برجيس بالعساكر كتب كتابا الى حكمون يقول فيه : من الملك برجيس ابن ميخائيل الى حكمون • أما بعد فانك قد خالفت الشروط ولم ترسل لنا الخراج المربوط وقد مضى خمسة اعوام وانت تحاولنا بالكلام فاقتضى اننا قصدناك الان بالابطال والفرسان كأنها مردة الجان، وهي لاتخاف طعن الرماح ولا تكل من الحرب والكفاح • فان دفعت الخراج المطلوب من عشر مالك توقفنا عن حربك وقتالك والا وحق من أوجد الانسان خربنا ديارك وطفينا نارك وقلعنا آثارك وجعلنا أرضك تابعة لارضنا ، فاسرع في رد الجواب قبل حلول العذاب •

وارسل برجيس كتابه مع احد رجاله، فلما تسلم (حكسون) الكتاب. غضب غضبا شديدا لما جاء فيه من الكلمات الجارحة.. وطرد الرسول وقال له :

ـ اذهب الى مولاك وقل له ليستعد للحرب والقتال .

فخرج الرسول من بين يديه وهو ينفض غبار الموت عن عينيه. ثم صاح حكسون بأخيه وقائده ووزيره قسمون وقال لهما : استعدا للقتال وفرقا السلاح على الساكر والابطال فقد اتتنا العساكر الصليبية .

فأجاباه الى ما امر. وفي الحال جهزا العساكر وفرقا عليها السلاح والسيوف والرماح. ولما بلغ الملك برجيس كلام حكسون صار مثل المجنون وعول ثاني الايام على الحرب والصدام ...

وعند اشراق الصباح استعد حكسون للحرب والكفاح، فخرج من البلد بالعساكر والعدد املا بالفوز والانتصار .

وكان الملك برجيس قد ركب في ذلك النهار بذلك الجيش الجرار وتقدم طالبا القلاع والاسوار بقوة واقتدار وعلى رأسه البيارق والصلبان من حوله القسوس والرهبان. ولما التقى العسكران تقاتل الجمعان في ساحة الميدان. والتقت الفرسان النصرانية بعدوها في تلك البرهة وهجموا على بعضهم هجمات قوية وتضاربوا بالسيوف المشرفية، وكانت النصارى قد فتكت بالعصبة المعادية واذاقتها في ذلك اليوم من الاهوال اعظم بلية وقتلت منها مقتلة عظيمة . فرجع حكمون وهو يتأسف ويتلهف على ما حل بعسكره من الويل والتلف ، ودخل البلد مع الجيش واغلق الابواب وقصد القصر وهو خارج عن دائرة الصواب. ونزل برجيس خارج المدينة وكان قد امتلك ذلك النهار ثلاث قلاع حصينة ..

وكان المهلهل قد سمع صياح القوم، فسأل عن الخبر، فأعلموه بواقعة الحال فتاقت نفسه الى القتال ومصادمة الابطال. فأخذ قصبة بيده وصعد

الى السور ليشاهد تلك الامور ، وكان ذلك المكان بقرب قصر حكمون فنظر القوم وهم يتقاتلون فكان كلما نظر الى الروم وقد غلبوا أو ظفروا يقول لجماعةحكمون : تقدموا ولا تنكسروا . وكان يهدر كالرعد العاصف وهو راكب على الجدار كما يركب الحصان ويضربه برجليه ويصيح على الفرسان . واستمر على تلك الحال الى ان رجع حكمون الى البلد وهو في غم ونكد . وكان لحكمون بنت كالقمر المنير اسمها استير نظرت من الشباك أفعال الزير فتعجبت من افعاله وغرائب اعماله . فلما رجع أبوها سألته عن حالته وما جرى له في قتاله فاعلمها بواقعة الحال وانتصار الروم في القتال . فعند ذلك اخبرته ابنته استير نما رأته في ذلك اليوم من اعمال الزير وقالت اذا كانت اعماله صحيحة فانه يكسر هذا العسكر ويذيقه الموت الاحمر ثم اشارت تقول :

تقول ابنتك اسمع من كلامي ... نظرت اليوم في عيني العجايب
رأيت اليوم من هذا الموحد ... فعالا قد تعيد الرأس شايب
فلما دقت الطبل النصارى ... وقد هجست عساكرها تحارب
والتقت العساكر بالعساكر ... وراح السيف يعسل في المناكب
قد أبصرت احوال الموحد ... غرائب قد فعلها من عجائب
لقد ركب الجدار سواه حصانه ... كأنه يا ابي قاصد يحارب
ويزعق ثم يلكز في كعابه ... الى ان جرى دمه سكايب
ويهدر مثل ليث غاب أروع ... ترج الارض منه والكتائب
يريد الحيط يطلع فيه يغزي ... وقلبه للقا والحرب طالب
اذا ولت رجالك قال باطل ... وان ولت عداك قال طائب
ينخي الناس واحد بعد واحد ... قتل روحه وهو للحيط راكب
فهذا قد نظرته اليوم حقا ... من الاول الى وقت المغارب
فلا ادري أهو عاقل صميدع ... ولا ادري أهو مجنون خائب

فلما فرغت الفتاة من شعرها ونظامها وفهم ابوها فحوى كلامها اراد أن يستدعيه اليه فقالت له : الصواب ان يركب أخوك نهار غد ويقاتل العدا وانت تبقى في القصر فلعله يفعل كما فعل بالامس . فتشاهد اعماله احواله، فليس الخبر كمشاهدة النظر .

فاستصوب كلامها وبات تلك الليلة في قلق وضجر . ولما أصبح الصباح امر اخاه ان يركب بالعسكر ويخرج لقتال الروم ، فركب أخوه في عسكره وانتشرت على رأسه الرايات والبنود ، فالتقته جموع الروم مثل الاسود واشتد بينهم القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال . فلما سمع الزير صياح الابطال وهمهمة الرجال، التهب قلبه بنار الاشتعال فصعد على السور وهو حزين النفس وفعل كما فعل بالامس ، وكان كثيرا يقول يا لثأرات كليب من جساس المخذول ! وهو ينخي القوم ويقول اليوم ولا كل يوم. وكان حكسون ينظر اليه مع ابنته فتعجب من فعله وهول صورته . فأمرها ان تناديه ليحضر امامه .. فنادته فالتفت اليها ولباها . وقد تعجبت منه حين رؤياها له وقالت : ابي يدعوك لتحضر اليه.

فنزل وصعد الى القصر ودخل على الملك وسلم عليه . فقال حكسون: ان كنت قادرا على ما تقول وانك من الفرسان الفحول فانزل وقاتل عنا في هذا النهار المهول ، فان لنا عليك جميلا وافضالا . وان كسرت الاعداء بلغناك الامال واغنيناك بالمال واطلقناك من الاسر والاعتقال ..

وأمر الملك بأن يعطوه جوادا من أطايب الخيل ودرعا وسيفا فأتوا له بجواد فقال لهم هذا لا يحملني ثم اتكى عليه بيده فكسر اضلاعه . فأتوا بآخر ففعل به كذلك. وما زال على تلك الحال حتى قتل عشرة خيول . فتعجب الملك من قوة بأسه وشدة مراسه ثم أتوا بعدة حرب وجلاد ففعل كذلك الى ان أتوه بعدة الملك حكسون. فلبسها ، وكانت من احسن العدد واعتقل بالسيف المهند وركب على ظهر حصانه الاخرج الذي كان ينتظر

منه الفرج واخذ في يمينه الرمح الاسمر والتفت على حكمون وقال : اليوم تنظر فعالي وتعاين حربي وقتالي وتذكرني على طول الدوام ايها الملك الهمـــام •

ثم انه لكز الحصان وقوّم السنان وانطلق الى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان وقد هان عليه الموت تحت ارجل الخيل عند بلوغ القصد والمأمول• وكان الروم قد كسروا رجال حكمون وفتكوا بهم فتك الاسود فلما رأى المهلهل تلك الحالة استعد للحرب وتقــدم الى صهيون ، أخي الملك حكمون وقال : شدوا عزمكم وقاتلوا خصمكم • ثم خاض المجال وطلب الميسرة في الحال وقاتل الابطال فمدد اكثرها على الرمال• وتأخرت عنه الرجال ورأى الروم تلك الفعال فاعتراهم الذهول وهجموا عليه مـــن اليمين والشمال فأبلاهم بالذل والويل وقتل جماعة من فرسان الخيل، وكان كلما كثرت عليه الكتائب وضايقته العساكر والمواكب يتذكر أخاه كليبا الاسد الغالب فيهجم هجوم السباع ولا يخاف ولا يراع • فعند ذلـــك تأخرت عنه الفرسان وتوقفت عن قتاله الشجعان •

وكان الملك برجيس من فرسان المعارك ، بلغه ذلك نما غيظه وزاد وهجم بالعساكر والاجناد طالبا ساحة الميدان ومن حوله رجاله وعلى رأسه الرايات والالوية • فلما اقترب من تلك الناحية وقعت عينه على شقيق الملك حكمون فتقدم اليه وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قتيلا في دمه جديلا • فعند ذلك ضجت اليهود الملاعين لما رأوا اميرهم مفقودا واستغاثوا بالتوراة والتلمود، فالتقـــاهم برجيس كالنمرود ، وقتل منهم كل فارس • وكان المهلهل يقاتل من بعيد الفرسان الصناديد ويبددها على وجه الصعيد، فلما رأى اليهود متأخرة بعد ان كانت ظافرة وهم يصيحون ويندبون على فقد صهيون ، وعرف القصة أخذته الغيرة والحمية فقصد الملك برجيس ، وفي الطريق التقى

بأخيه سمعان وهو ينخي الابطال والفرسان فهجم عليه هجمة الاسد وضربه بالسيف المهند القاه على وجه الارض يختبط بعضه ببعض• فلما قتل الامير سمعان حمل جيش النصارى على الزير من كل مكان فعندئذ دقت النواقيس وحمل ايضا الملك برجيس وتبعه كل اسقف وقسيس • ولما رأت اليهود افعال المهلهل ايقنوا ببلوغ الامال •• وثبتت منهم الاقدام بعد ذلك الانهزام والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وعظمت الاهوال• وما زالوا على تلك الحال الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار فافترقوا عن بعضهم البعض ونزلت كل قبيلة في ناحية من الارض ••

• • •

وكان الملك برجيس قد صعب عليه قتل اخيه سمعان وندم على مجيئه الى تلك الاوطان ، وكذلك استعظم حكمون قتل اخيه صهيون فكانت مصيبة عظيمة على الملكين وداهية جسيمة على الفريقين • ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركبت العساكر واصطفت الدساكر وانقسمت الى ميامن ومياسر ، فتقاتلوا بالرماح والخناجر والسيوف البواتر فكان الزير كالاسد الكاسر، ورأى الابطال في ذلك اليوم من الاهوال ما يشيب رؤوس الاطفال• واستمروا على تلك الحال وهم في [illegible] قتال وخصام عشرة ايام على التمام •

وكان الزير قد فتك فتكا عظيما وقتل من الروم عددا جسيما • فلما رأى الملك برجيس ذلك خاف من الوقوع في المهالك لانه كان من الملوك الكبار اصحاب السطوة والاقتدار، أمره نافذ في جميع الاقطار• فخاف من الانكسار والوقوع بيد المهلهل الجبار فجمع اركان دولته ووزراء مملكته وعقدوا بينهم ديوانا • فاستقر رأيهم على المصالحة وتوقيف الحرب بعد المصادمة والمكافحة، وان يرحلوا بأمان من تلك الاوطان ويبقوا مع حكسون كالاصحاب والاخوان على طول الزمان •

ثم ان الملك برجيس ارسل الى حكمون بعض وزرائه المعتبرين يعلمه ويأتيه بالخبر اليقين، فسار الوزير الى الملك حكمون واعلمه بواقع الحال. ففرح حكمون وحمد الله الذي انقذه من غوائل الحروب . وهكـذا تم الاتفاق ووقع الصلح والوفاق ، وعاد برجيس الى بلاده بمن معه من الجنود والرفاق بعد ان رتب للملك حكمون مبلغا مقررا من المال يدفعه كل عام الى خزينته .

الهدنة

عظمت منزلة الزير عند حكمون بعد ذلك وقال له :

ــ مثلك تكون الفرسان، فلولاك لخسرنا ما نملك، ولحكمنا برجيس ...

وكذلك قالت الاميرة ستير بعد ان شاهدت افعال الزير فاثنت عليه، وقد مال قلبها اليه وقالت :

ــ لاعدمناك ايها النحرير فانك تستحق الاكرام والخلع .

وكان الملك قد مال اليه كل الميل وقدمه على جميع فرسان الخيل ورفع منزلته على الكبير والصغير ولقبه بالامير وانعم عليه بنيشان من الالماس ليمتاز به على كبار الناس، واكرمه غاية الاكرام واجلسه على سفرة الطعام . ولما فرغوا من الاكل وشرب المدام قال له الملك :

ــ تمنى علي ايها الامير والسيد الخطير فمهما طلبت اعطيتك اياه بدون تأخير . فطلب منه الزير ان يعطيه السيف والدرع والمهر الاخرج واعلم حكمون بنفسه وطلب منه ان يجهز له سفينة ويرسله الى مدينة حيفا، ومن هناك يسير وحده الى مرج بني عامر في فلسطين، محل اقامته لان نفسه اشتاقت الى اهله وعشيرته العربية هناك .

فلما سمع حكمون بواقعة حاله وانه هو المهلهل زاد مقامه عنده وقال له :

ـ هذه بلادي امامك واموالي بين يديك فاقم عندنا طول عمرك... فاننا والله لا ننسى جميلك ومعروفك .

قال الزير : لا بد لي من الذهاب لانني حتى الان ما اخذت بثأري ولا طفيت من العدا لهيب ناري .

فقدم الملك له الحصان الاخرج واعطاه السيف والرمح وعدة الحرب وجهز له مركبا من احسن المراكب، وامر القبطان بمداراته وامتثال اوامره، وسار معه حكمون الى المراكب مع أكابر دولته وقال له عند الوداع : الله يبلغك آمالك فلا تقطع عنا اخبارك .

فسلم المهلهل ودعا له بطول العمر ثم رجع حكمون الى المدينة وسافر المركب بالمهلهل . وفي اليوم الرابع اشرفت السفينة الى ميناءحيفا والقت مرساها ونزل المهلهل الى البلد وابقى الحصان في المركب وامر القبطان ان يحتفظ به لوقت الطلب. ومن هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى بظراف ابن ناصر وهو حافي عريان وقد كان من الاعيان ، ومن اصحاب الزير . فأقبل اليه وسلم عليه فرد الزير عليه السلام ثم عرفه بنفسه واخبره بما جرى عليه من الاول الى الاخر، فقال : اهلا وسهلا بقدومك علينا فوالله قد كنا قطعنا الامل من سلامتك فالحمد لله على اجتماعنا، فقم بنا الى ربعنا حتى ننظر اهلك لانهم دائما في ذكرك..

فقال الزير : اني لا اذهب الى هناك قبل ان ازور حي بني مرة وانظر باقي قومنا الذين التجأوا الى جساس ، فسر معي الى هناك .

فسار ناصر معه وهو فرحان، وجدا في مسيرهما حتى وصلا الى احياء بني مرة فالتقيا بالامير سالم المهيا قاصدا الصيد مع جماعته . ولما اقترب سالم من المهلهل ونظر اليه حن قلبه اليه فحياه بالسلام وجعل يتأمله ويقول : والله من يوم غاب حامينا فقدنا عزنا وما ابصرنا قامته الا هذا اليوم ثم دمعت عيونه .

فقال الزير : كيف تبكي عليه وانت ملتجىء الى اعدائه ؟

فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر الجواد ووقع عليه واعتنقه المهلهل وطيب خاطر جماعته، وقال لهم : ابقوا على ما كنتم عليه وعندما تسمعون صرير السيوف في اعناق بني مرة فحينئذ تفعلون ما يجب عليكم فعله...

فساروا في سرور وفرح ليعلم بعضهم بعضا. اما الزير فانه سار مع طراف وهما متنكران حتى دخلا الى حي جساس وقت المساء فوجد الحي في دق طبول ونقر دفوف ، وامور تدل على مسرات وافراح. فقال المهلهل في سره : ما عسى ان يكون هذا ؟؟ ولما اقترب من صيوان جساس وجده ممتلئا بالناس ، وجساس جالسا في الصدر وحوله الاكابر والاعيان، والمولدات تدق بالدفوف والمزاهر، وبعد قليل حضرت العبيد بسفرة الطعام فقام جساس الى المائدة وتقدم بعده الامراء وجعلت تتوارد الفرسان وتتزاحم على بعضها البعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس ، وجلس بقرب جساس واخذ يتناول من انواع الاطعمة. فلما رآه جساس انكر أمره وقد استعظم كبر جثته وهو يأكل أكل الجمال. فقال له جساس : ادعو لي يا شيخ، فقال : انني دائما ادعو لك ولست بناسيك على طول الزمان .. فازداد جساس خوفا وارتجفت اعضاءه . ولما انتهى من العشاء امر جساس باحضار الرمل وضربه في الحال ورسم الاشكال فظهر له انه قادم على اوقات منحوسة وسيظهر رجل لقي الجد عن قريب يذيقه الاهوال وقد تأكد عنده بأن ذلك الرجل هو نفس الزير لانه لا يوجد له عدوه غيره ، فالتهب قلبه بنار وصاح من أم رأسه يا ستار ، فجاءت اليه اخوته وقالوا له ما اصابك يا امير، فأنشد يقول :

قال جساس بن مرة في أبيات ... اسمعوا يا اخوتي اهل الوفا
ضاق صدري وامتلا قلبي هموم ... فالقلق والهم ضارب بالحشا
جبت تخت الرمل حورته بسرعة ... حتى ارى ما هو هذا البلا

رأيت عدوي راجعا عـن قريـب صاحب الفتكـات مـا بـين الملا
ما عاد لي عقل لهذا الرمل قطرة حرب فيه اليوم يـا اهـل النهـا
لـو يصح القول قلت الزير جا هـا هـو جـالس بـين الامـرا

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه ، عرف الزير المقصود، فوضع يده على قبضة سيفهحتى اذا قال جساس اقبضوا عليه فتك به الزير واعدمه الحياة . ومن كثرة ما جرى على جساس من الغم والوسواس ترك من كان عنده من الناس ، ودخل على الحريم خوفا من امر يأتي. فلما رآه الزير فعل ذلك قال لا بد من قتله انلم يكن اليوم فغدا ... ثم خرج مـن الصيوان مع الامير طراف وسارا قاصدين الاوطان حتى وصلا الى وادي الشعاب ودخل الى الخيمة التي فيها بنات كليب فسمعت ابنة كليب الكبيرة صوته فقالت له : من أنت وما هو اسمك ؟

فلما سمع صوتها عرفها فتقدم اليها فوجدها واخواتها بثياب السواد فتقطع قلبه وجرت عيناه بالدمع وقال : أتقبلون الضيف يا بنات الاماجيد؟ قالت : مرحبا فاننا اول من ضاف ، ولكن قد جار علينا الزمان فأذلنـا بعد العز والجاه وصرنا في حالة يرثى لها. فاقصد يا شيخ محل الوليمة ، وهو المكان الذي تدق فيه الطبول فتحصل على المأمول .

فقال : بالله يا صبية ان تحكي لي واقعة حالكم فقد جرحت قلبي بهذا الكلام .

فقالت اليمامة : لقد ذكرتنا بمصابنا وعلى ما جرى . فجلس الزير هو وطراف وجلست هي بجانبهما ثم انه عرفها هي وشقيقاتها بنفسه وانه هو عمها الزير ، وان الله قد نجاه وارجعه سالما حتى ينتقم من أعدائه . فلما علمت انه عمها صاحت بصوت عال من ملو رأسها أهذا في الحلم أم في اليقظة ....ثم وقعت عليه هي وشقيقاتها وقلن : الحمد لله الذي أرانـا

وجهك بخير وعافية فوالله قد زالت اتراحنا وتجددت افراحنا. وسمع ابو شهران عبد العزيز بهذا الخبر فدخل عليه ووقع على قدميه لانهم كانوا يظنون انه مات، فكانت تلك الليلة عندهم من أعظم ليالي الافراح والمسرات. وبعد ذلك جلسوا يتحدثون ، فقالت اليمامة : بالله يا عماه حدثنا بقصتك وما جرى في سفرتك . فقص عليهم ذلك القصة وما سمع وابصر وختم كلامه بهذا القصيد :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل — عيوني دمعها جاري بكاها
بكت دما على ما صار فينا — ليالي السعد ما عدنا نراها
عدمنا فارس الهيجا كليب — عقاب الحرب ان دارت رحاها
دهتني آل مرة جنح ليل — لتقتلني وتشفي ما دهاها
فكنت بخيمتي ملقى طريحا — ثلاث آلاف دزتني قناها
وجاؤوا بي لعند ضباع اختي — والقوني طريحا في خباها
وقالوا يا ضباع خذي شقيقك — اخذنا روحه قومي عزاها
فالقتني بصندوق مزفت — وارمتني بوسط البحر ماها
وساقتني مياه البحر حالا — الى بلد اليهود على رباها
وجابوني لحكمون الحكيم — اجل ملوك هذي الارض جاها
فداواني وعالجني سريعا — فزالت كربتي مما دهاها
بقيت انا ثمان سنين غائب — وزال الشر عني مع عناها
اسأل الله ان يحفظكم جميعا — على ما طالت الدنيا مداها

وعند بنات كليب كانت ليلة من اعظم الليالي، حضرها جميع اصحاب الزير ففرحوا وانشرحوا بقدومه وهنوه بالسلامة ، فقال لهم : من الاوفق ان تكتموا امري ريثما اتجهز لقتال الاعادي واحضر جوادي .

ثم اعلمهم بخبر الحصان وانه ابقاه في المركب عند القبطان حتى

يشاهد اهله واقاربه ، ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصدا شاطىء البحر .

هذا ما كان منه ، واما مرة ابو جساس فكان من عادته ان يذهب كل يوم الى ساحل البحر ويتجسس الاخبار ويعود في آخر النهار. فاتفق ان عبدين من عبيده كانا نظرا المركب عند قدومه الى ميناء حيفا فاعلماه بـه .

فاستأجر قاربا وقصد ذلك المركب ، وعند وصوله اليه وجد ذلك الجواد المذكور فاندهش من رؤياه. فسأل القبطان عنه فقال له القبطان هذا حصان الزير وقد حضر معنا من بيروت وسار نحو يومين لزيارة اهله. لم يكن القبطان يعلم بالخلاف الواقع بين القوم. ولما سمع مرة بخبر المهلهل وانه عاد سالما غانما استعظم الامر وتعجب لكنه كتم الخبر وقال للقبطان : أتبيعني هذا الحصان. قال : كيف أبيعه وهو مودع على سبيل الامانة ؟ فقال : لا بد من ذلك ، اما ان تقبض ثمنه خمسة آلاف دينار او آخذه منك بالقوة والاقتدار . ان ابني جساس ملك هذه الديار وبيدنا زمام الاحكام ... وما زال يلح عليه بالكلام الى ان امتثل وأجاب خوفا من ان يأخذه بالقوة والاغتصاب، فقبض القبطان الدراهم وسار مرة بالحصان الى عند ابنه جساس وهو كاسب غانم، واعلمه بواقعة الحال وقدوم المهلهل الى الاوطان ففرح جساس بالحصان لانه كان من اجود خيول الاعراب ولكنه خاف من الغوائل وعلم انه لا بد من تجديد الحروب بين القبائل ، فاجتمع بأهله واعلمهم بالخبر وان يكونوا على استعداد وحذر ..

هذا ما كان من جساس ، واما الزير الفارس الدعاس فانه عند وصوله الى البحر سار الى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان. فلما سمع منه هذا الكلام اراد ان يضرب عنقه بحد

الحسام ولكنه توقف عن أذاه اكراما لخاطر مولاه ثم أمره بالرجوع الى عند الملك حكمون ليقص عليه الخبر ويطلب منه الجواد الاخر ، فامتثل القبطان اوامره واقلع من تلك الساعة حتى وصل الى بيروت فانزل الزير في القارب وسار به الى عند الملك حكمون. ولما دخل عليه وهو في السرايا رآه وفرح حكمون الفرح الشديد وقال : أهلا وسهلا بالصديق الحبيب. وترحب به غاية الترحيب واجلسه بجانبه وقام بواجبه .

فلما شاهد الزير ذلك اثنى عليه واخبره بما جرى من فقد الحصان وان السبب في حضوره الان لاجل سؤال خاطره الشريف اولا ، وثانيا ليطلب منه المهر الثاني. وختم كلامه بهذه الابيات :

قد أتيت اليوم في قلب حزين لفقد مهري الاخرج الثمين
فان شئت اعطني اخوه يا معز الجار وفخر العالمين
لا اريد مال ولا كثرة نوال غير ابو حجلان مطلوق اليمين
يا ملك حكمون ان مالي كثير كل مال البر في ذراعي خزين

لما سمع حكمون هذا المقال تبسم وقال : مهما طلبت منا لا نعزه عليك وجميع اموالنا بين يديك فوالله اننا لا ننسى جميلك ومعروفك على طول الزمان ، وان ابو حجلان بعد رواحك من الاوطان اظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه احد من السياس .

ثم طلب منه ان يبقى عندهم عدةايام ليستريح من متاعب الاسفار... فاعتذر الزير وقال لا بد من العودة في هذا النهار .

فأعطاه حكمون الحصان وسار به الى المركب. وعند وصولهم حيفا، نزل بالجواد الى المدينة فركبه وقصد اهله. فاتفق في تلك الساعة ان رجلا من قبيلة جساس ابصر الزير فعرفه وسار الى عند جساس واخبره بقدومه وقال له : انني خايف عليكم من سطوته لانني شاهدته في هذا النهار وهو مثل الاسد الكرار ، ثم اشار يقول :

يقول الشيخ يــا اولاد مــرة تعالوا واسمعوا لي يا فوارس
ايــا جساس يــا همام اسمع ايا ملــك يــا اهــل المجالس
فقد كنت قــرب البر ســائر رأيت خارج علــي اليوم فارس
على ادهم اقب الضلع قــارح وفوقه درع مــن بولاد لابس
وفي كتفه قنــا اسمر مكعب بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فــارس البيداء مهلهل مريع الخيــل للابطال داعــس

فلما فرغ ذلك من شعره ونظامه اجابه سلطان بن مرة :

يقول اليــوم سلطان ابن مرة كلام الشيخ صادق يــا فوارس
فان كان ابــو ليلى سيظهــر يخلي دمنــا مثــل البواطــس
ويسبي مــن قبائلنــا عذارى ويترك ارضنــا قفــرا دوارس
ولا يقبل رجــاء ولا عطــايا ويطرحنا علــى مغبــر نواكس

فلما انتهى سلطان من كلامه وقع الخوف في قلوب القوم واخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم ... واما الزير فانه كان قد جد في المسير حتى وصل الى دياره والتقى بأهله وانصاره. فلما رأوه فرحوا به، واتت اليه اليمامة وشقايقها وكذلك اخوته وكل من في الحي من نساء ورجال فوقعوا عليه وقبلوا يديه. وانتشرت الاخبار بقدومه الى الديار بين الكبار والصغار حتى ملأت الاقطار ، فاقبلت تزوره الابطال والفرسان وتواردت اليه السادات والاعيان فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وهنئوه بالسلامة، فشكرهم واثنى عليهم وترحب بهم وذبح الذبائح واولم الولائم ووعدهم بالمكاسب والمغانم. وبعد ان اكلوا وشربوا المدام انشد عدي اخو الزير يقــول :

يقول عدي ابياتــا فصيحــة اتانا الزيــر والمولــى عطانــا
وكنا قبــل مــا يأتي الينــا بحــال الذل في قهــر حزانــا
وجساس الردي عايــب علينا يريد هــلاك تغلب مــع اذانــا

فأمرنا بأن نبقى جميعـا على طـول الليالي مع نسانـا
ولا نركب خيولا صافنـات ولا نحمل سيوفـا فـي حمانـا
الينا جيت يـا جبل المحامـل ويـا كهـف العذارى والامانا
لربي الشكر ثـم الحمد دايم اذا مـا جئتنـا تقهـر عدانـا
أيا سالم فانهض شـد عزمك واركب فـوق مطلوق العنانـا
ونركب ثـم نحمل فرد حملة على اولاد مـرة فـي لقـانـا
ونترك دورهم بـورا وقفـرا ونقتلهم ونأخـذ ثـأر أخانـا

فلما فرغ عدي من كلامه تقدمت اليمامة نحو عمها وشكرت الله تعالى على سلامته ودعت له بطول العمر ... فضمها الزير الـى صدره والتفت الى من حوله من الرجال وانشد يقول :

يقول الزير ابـو ليلى المهلهل يـا بنـات ان السعد جـاكم
واقبل سعدكم والشر ولـى وراح الشر عنكـم الى عداكم
فقروا وابشروا منـي وطيبوا اله العرش قـد اذهب عنـاكم
ثماني سنين وسط البحر غائب وبالي عندكـم مـا دهـاكم
وفرج خالقي همـي وغمـي وخلصني وجيـت الـى حماكم
وحيث اتيـت زال الشر عنكم ونلتم يا بنـات منـي مناكـم
غدا جسـاس اقتلـه بسيفي واخذ يـا بنات بثـأر اباكـم
وانتم يـا عـدي ودريعـان وبـاقي اخوتي تسلـم لحاكم
فآتوا بالصوافن واركبوهـا وهبوا جمعكـم وكل من معاكم
ودقوا طبلكـم يـا آل قيس وقيموا النار في ساير حمـاكم
وخبوني بعيد عـن المنـازل غـدا جساس يبـرز للقـاكم
تلاقوه علـى خيـل ضوامر واني سوف اهجـم من وراكم

فلما فرغ الزير من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الاتراح وايقنوا بالنصر والنجاح • وما زال بنو قيس يجتمعون والى

الزير يتواردون حتى صاروا في جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والحرب والنزال ••• فاطعموا الجوعان وكسوا العريان ، واوقدوا النيران ، ورجع الحي كما كان شعلة من النيران ••

هذا ما كان من الزير وقومه • واما بنو مرة فلما بلغهم الخبر وكيف ان بني قيس قد التموا بعد ذلك التفريق والشتات من جميع الجهات، وهم في افراح ومسرات اجتمعوا بجساس وقصوا عليه الخبر••• وقالوا له لو لم يكن الزير قد ظهر لما اجتمع بنو قيس بعضهم على البعض في هذه الايام ، ولا خالفوا اوامرك ومراسيمك •

فقال لهم : كفوا عن هذا المقال ولا يخطر لكم الزير على بال، فاستعدوا للحرب والقتال •••

فعند ذلك استعد الفرسان الفحول وركبوا ظهور الخيول وتقلدوا بالسيوف والنصول•• لقد املوا بالنجاح وبلوغ المأمول• وركب جساس حصان الزير الاخرج وسار بذلك الجمع الغفير • ولما اقتربوا من حي بني قيس سمع ابطال الزير دق طبولهم وصهيل خيولهم ••• فهاجوا وماجوا فأمرهم الزير ان يتأهبوا للقتال ويلاقوهم الى ساحة المجال ، فتبادروا في الحال وتقدمت الفرسان والابطال وركب الزير على مهره ابو حجلان وسبقهم الى الميدان وكمن في بعض الروابي والتلال في جماعة من الرجال • ولما اقترب جساس من رجال بني قيس قال لهم : لقد خالفتم اوامري وغركم الطمع ••• وهجم عليهم بالرجال ، واحاط بهم من اليمين والشمال ، فالتقوه بقلوب كالجبال واشتد بينهم القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال • فلما رأى المهلهل تلك الاحوال لكز الحصان وتقدم الى ساحة الميدان فشق الصفوف والكتائب ومزق بحملته المواكب ، وهو يهدر ويصيح من قلب فريح : ابشروا يا بني بكر بالذل والويل فقد اتاكم المهلهل فارس الخيل••• وسوف ترون يا انذال ما يحل بكل من الوبال على ما عاملتونا به من سوء الفعال، فقد اقسمت برب الانام الذي لا يغفل

ولا ينام اني لا اترك منكم بقية شيخ ولا غلام •

ثم انه مال وجال وضرب فيهم بالسيف العال وتبعته الفرسان والابطال من اليمين واليسار ، فلما سمع جساس صوت المهلهل انقطع قلبه من الخوف والوجل، ولكنه ثبت في ساحة الميدان خوفا من الهلاك والهواز واخذ ينخي الابطال والفرسان على الحرب والثبات والهجوم على لقاء الاعداء قبل الممات • فثبتوا ثبوت الجبابرة، وقاتلوا قتال الاسود الكاسرة ، لكنهم لم يقدروا ان يثبتوا اكثر من ثلاث ساعات حتى انصبت عليهم النكبات وبلوا ببلايا لا تطاق من سيف المهلهل فارس الافاق ••• فولوا الادبار ، واركنوا الى الهزيمة والفرار بعد ان قتل منهم عشرة الاف فارس كرار ، وتبعهم الامير جساس وهو في قلق ووسواس• وغنمت بنو قيس منهم مغانم عظيمة ومكاسب جسيمة ورجعت الى الديار بالعز والانتصار والبطش ، والاقتدار ، وفي مقدمتهم الامير مهلهل الجبار وهو مثل شقيقة الارجوان مما سال عليه من ادمية الفرسان • ولما وصل الى المضارب بقواد المواكب لاقته بنات اخيه وجماعة من أقاربه واهاليه ، فشكروه على تلك الفعال وقالوا : مثلك تكون الابطال والفرسان •

ثم انه جلس في الخيام وجلست حوله السادات العظام وجبابرة الصدام فتحاثوا في الكلام وشكروا رب الانام على بلوغ القصد والمرام• وبعد ان اكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد الى المهلهل فارس الطراد وقالوا له : بالله عليك ان تنشدنا شيئا من اشعارك لان قلوبنا مشتاقة على الوقوف على اخبارك وما جرى لك في اسفارك• فعند ذلك انشد الزير يقول وعسر السامعين يطول :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل   فكل مقدر لا بد يأتي
نزلت يا اخوتي وابناء عمي   بجنح الليل لا يدروا صفاتي
فقالوا ضيفنا شرطوا علينا   فلا نوقد لنار في الفلاة
ولا نفزع ولا فزعوا علينا   ولا نركب خيول الصافنات

تكافحت اليمامة مع حمامة وقالت عمنا هيهات يأتي
فقلت لها لبيك جئتك انا مردي السباع الكاسرات
فجئت لعندها في قلب صامد وجدت عيونها متقرحات
فقلت لها : يمامة ليش تبكي جرحت بالبكا قلبي فآتي
فهمك يا يمامة ليس مثلي اذا ثارت حروب في الفلاة
انا همي كراديس الفوارس اذا ما وهجت نار العداة
وجيت انا على جساس رامح هرب مني سريعا للفلاة
وقال الزير أتانا يا بلانا وطالب ثأره بالمرهفات
فقولوا لابن مرة أين يغدو لقاه الزير ذباح العداة

فلما فرغ الزير من كلامه شكره اخوته وجميع اقوامه، وكذلك طابت قلوب الحاضرين جميعا ، وانشرحت صدورهم ، وعادوا لما كانوا فيه من الفرح والمسرة ...

اما بنو مرة فانهم ابتلوا بالذل والويل من حرب الزير فارس الخيل، ولما أصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب الامير مهلهل في مئة الف بطل وطلب حرب القوم . فالتقاه جساس في ذلك اليوم وكان معه مائتي الف مقاتل بين فارس وراجل فنشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الاهوال، وقاتل المهلهل حتى استقتل فنكس الابطال الفحول عن ظهور الخيل وقتل جماعة من السادات الاعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم. وشاع ذكرهم بين الاعارب والاعاجم ، منهم : الامير شهاب المكنى بعقاب وغيره من السادات الإنجاب. واستمر القتال على هذا الحال طوال النهار، فانكسرت بنو مرة أشد انكسار ورجع المهلهل بالعز والانتصار .

ولما كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالرجال والابطال وتقاتلوا أشد قتال، ولما تقابلت الصفوف وبرزت المئات والالوف برز اخو جساس بين الصفين ولعب برمحه بين الفريقين ، وطلب قتال المهلهل . فانطبق عليه وحمل كأنه قطعة من جبل او قلة القلل فتطاعنا

بالرماح وتضاربا بالصفاح • وثبت شاويش امام الزير ثبات الابطال المغاوير لانه كان من الابطال المشهورة والفرسان المذكورة• واستمر الاثنان نحو ساعة من الزمان وهما في ضرب وطعان وكان الامير شاويش قد حتم على نفسه امام الابطال ••• اما ان يهلك في ذلك النهار او يظفر بخصمه ويعيش في عز واقبال ، ثم صاح على المهلهل وطعنه بالرمح قاصدا قبض روحه، فالتقاها مهلهل بالدرقة فراحت خائبة بعدما كانت صائبة، ثم تقدم المهلهل وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الارض قتيلا في دمه جديلا ••• ثم هجم على الرايات وطعن الفرسان والسادات فقتل الرجال ومدد الابطال في ساحة المجال، وفتك فيهم فتك الاسود الكاسرة وفعل افعالا تعجز عنها صناديد الجبابرة• وفعل جميع ابطاله مثل افعاله فقاتلوا القتال المنكر واذاقوا الاعداء الموت الاحمر • فلما رأى جساس ما حل بقومه من العذاب استعظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب وزاد اكتئابا على اكتئاب وذلك على فقد أخيه ليث الغاب لانه كان يحبه محبة عظيمة ويوده مودة جسيمة، فبكى وانتحب وولى يطلب لنفسه الهرب وتبعه رجاله وابطاله• ورجع الزير بباقي الفرسان الى المنازل والاوطان ، وهو مثل شقيقه الارجوان مما سال عليه من أدمية فالتقته اليمامة بالاعزاز والكرامة •

ثم نزل في الخيام مع السادات الكرام فأكلوا الطعام وشربوا المدام وكان كل يوم يركب حسب عادته لحرب القوم حتى بلغ منهم غاية المنى وابلاهم بالذل والعنا، فلما طال المطال وعظمت على بني مرة الاهوال جمع جساس الرجال ومن يعتمد عليهم من الابطال وقال لهم : ما قولكم في هذا الامر العسير، فقد حل بنا التدمير وهلك كل سيد وامير وان طال القتال لم يبق احد من الرجال •

فقال اخوه سلطان : الرأي عندي ان نأخذ اختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة ونذهب اليه ونقع عليه ونطلب منه كف الاذى والضرر ونعطيه

دية أخيه مهما أمر ، ونقيمه ملكا على بلاد الشام وندفع له الجزية في كل عـــام •

فقال جساس : ومن يذهب يقص ذلك الكلام عليه •

قال : انا وانت يا اخي •

فتبسم جساس وقال : هل سمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فيزحف اليه على رجليه !؟

فقال سلطان : انا اذهب اليه بنفسي ، لان بيني وبينه مودة قديمة ومحبة مستقيمة •

ثم انه نهض في الحال وتأهب للسير والترحال • واخذ معه اخته الجليلة وبعض نساء القبيلة ، وقصد المهلهل حتى وصل اليه وسلم عليه وقال له : بالله عليك ان تصفح عنا فقد أهلكت رجالنا ولم تبق احد منا وقد أتيت الان مع امرأة اخيك الجليلة واكابر نساء القبيلة نقع على ساحة اعتابك ونطلب من جنابك ونبلغك غاية الارب من الفضة والذهب ونقيمك ملكا على هذه الديار ونكون طائعين لك على مدى الاعصار، لأنك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ، ثم انشد هذه الابيات بحضور الامراءوالسادات:

قال سلطان ابن مرة في بيوت	يـــا مهلهل استمع مني القصيد
ليت عمرك يا مهلهل الف عام	يا حماة البيض في يوم الشديد
فاعف عنا يا سياج المحصنات	ليت عمرك كـــل يوم في مزيـــد
نحن منك وانت منـــا يا همام	كلنـــا اولاد عمـــك يـــا رشيد
فاعف عنا ثم دهنـــا في حماك	تحت ظلك عيشنـــا يبقى رغيد

فلما فرغ من شعره ونظامه اجابه المهلهل :

افتهم يا بن عمي مـــا اريـــد	افتهم فحوى كلامي في القصيد
ليس لي ذنب في ذي الامور	وانـــا فـــي حقكم لســـت عنيد
غصب عني يا سياج المحصنات	ليت عمرك يـــا ولد عمي يزيـــد
كل ذا جرى عليكم يـــا رجال	من يمامة بنت اختك في الاكيد

اليمامة كل يوم تقول خذ بثأري ايها البطل العنيد
فان عفت هي انا عنكم عفيت كل قولي صادق والله شهيد
واذا ابت ، فلن اخالف قولها انني عن امرها لست أحيد

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه قال لسلطان ومن حضر معه اني لا اكف الحرب والقتال ولا ارفع عنكم السيوف الصقال الى يوم القيامة، او ان تمنعني اليمامة ، فاذهب اليها وخاطبها بما خاطبتني به امام هؤلاء الاعيان فعساها تجيب طلبك يا سلطان •

قصد سلطان اليمامة مع اخته الجليلة ومن حضر معه نساء سادات القبيلة ، فدخلوا جميعا اليها وسلموا عليها • وقبلت الجليلة بناتها وقالت لهن : اما كفى يا بنات الاكارم والوفا ، فقد قتل رجالنا وهلكت فرساننا وابطالنا وساءت احوالنا وصرنا عبرة لمن اعتبر ومثلا بين البشر •

فأجابتها اليمامة : انا لا اصالح حتى لا يبقى منا احد يقدر ان يكافح، ان كان عمي عجز عن قتلكم فأنا انوب عنه والتقي بابطالكم• ثم ختمت كلامها وقالت :

قالت يمامة من ضمير صادق يا جليلة اقصري عنا عناكم
انت واخوالي وكل عشائري لا تزيدوا لفظكم ولا لغاكم
قتلتم الماجد كليب والدي غدرا وما له ذنب معاكم
جساس طعنه من قفاه بحربة ودعاه على الغبرا حقير حداكم
انا واخوتي بقينا بذلة نمسي ونصبح ولا ننسى بلاكم
انا لا اصالح حتى يعيش ابونا ونراه راكب يريد لقاكم

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت هي وأخوها مع باقي النساء الى الحي فاشلين ، واخبروا جساسا بواقعة الحال وما سمعوه من المقال • فاعتراه الخوف والانذهال ، وايقن بالهلاك والوبال ، فقال اخوه سلطان وكان ذا مكر واحتيال : اني سأهلك الزير ايها الامير واقوده اليك عند الصباح كالبعير •

فقال : ماذا عولت تفعل وما هو العمل ؟

قال : اني اقصد الميدان في جماعة من الاعوان واحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيها بالقش حتى تختفي عن عيون العساكر ، فاذا كان الصباح والتقى الجحفل بالجحفل فتبرز انت الى المهلهل وتكون انت عارفا بها ، فتقوده اليها . وبهذه الوسيلة تتم الحيلة فيسقط ويهلك في هذا الشرك فنخلص من شره ونبلغ ما نتمناه .

فاستصوب جساس هذا الرأي واستحسنه وخرج ذلك الليل مع اخيه سلطان في جماعة من العبيد والاعوان حتى وصلوا الى ذلك المكان فحفروا ثلاث حفر عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى لا تراها العيون ، ثم رجعوا الى اماكنهم مسرورين . وباتوا تلك الليلة على مقالي النار وهم ينتظرون طلوع النهار .

هذا ما كان من هؤلاء . واما الزير البطل النحرير فانه ركب في الصباح بفرسان الكفاح وقصد ساحة الميدان بقلب اقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعساكر ثم انفرد بنفسه نحو تلك الحفر واخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد، فرآه بعض الفرسان وهو يجول في ذلك المكان على ظهر الحصان فأعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له : ان خصمك ظاهر للعيان وهو في تلك الناحية من الميدان ... فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الامل. فلما اقترب منه ابتعد جساس عنه فتبعه المهلهل على الاثر، فسقط في احدى الحفر، فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقي الناس يريدون ان يطعنوه ويهلكوه ويعدموه . فلله در الحصان ابو حجلان فانه كان من عجائب الزمان ورغائب الاوان ، اخف من الغزلان واسبق من البرق عند اللمعان، فانه عندما وقع ضرب بحافره الارض ارتفع حتى صار بين الفرسان بالميدان فرجعت الخيل عنه مدبرة... فاستعظم الزير تلك الامور المنكرة وغاب عن الوجود حتى صار كالمفقود فرأى جساس ينخي ابطاله ويصيح على رجاله. فتقدم نحوه بالجواد ليشفي

منه غليل الفؤاد فاتفق وقوعه في الحفرة الثانية فوثب به الجواد وانتصب اسرع من النظر اذا وثب حتى صار على وجه الارض. فانقلبت العساكر على بعضها البعض فزاد بالزير الكدر وطار من عينيه الشرر فقصد جساسا دون باقي الناس ليقتله ويعدمه الحواس فكبا به الجواد في الحفرة الثالثة ... وكان جواده قد اعياه التعب وضعفت قواه وانحل منه العصب، حتى لم يعد يمكنه القفز كما فعل قبلا ... وكذلك المهلهل فقد انهد حيله وطاش واعتراه الارتعاش وايقن بالهلاك والممات وآيس على نفسه من الحياة، فكانت عليه عظيمة وداهية جسيمة . فلما بلغ جساس الامل ونجح بذلك العمل ايقن ببلوغ الارب وصاح من شدة الطرب على باقي رجاله ومن يعتمد عليهم من ابطاله : يا ويلكم ادركوه واطمروه واقتلوه ، فان تخلص هذه المرة من هذه الحفرة فلا تتأملوا بنجاح او نصرة .

فلما سمع الرجال منه هذا المقال قصدوا ذلك المكان من اليمين والشمال ، وكانت بنو تغلب قبيلة الزير قد اقبلت بابطالها وفرسانها ورجالها ، ونشب بينهم وبين القوم قتال لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم، وكان القتال بجانب تلك الحفر . ولما عظمت الاهوال وتكردست جثث القتلى على الارض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال ــ هجم جساس امام الناس وقال للفرسان والابطال والشجعان : ادركوني في هذا النهار واسعفوني بالتراب والاحجار واردموا هذه الحفرة في الحال، وانا ارد عنكم هجمات الرجال .

فتقدموا على عجل وبادروا بتنفيذ هذا العمل ، غير انهم لم يبلغوا الامل، لان اخوة الزير الفرسان المشاهير هجموا عليهم من اليمين واليسار وضربوا فيهم السيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار . وكان الامير مرة بالقرب من تلك الحفرة فرآه عدي اخو الزير فتقدم اليه وقبض عليه والقاه في تلك الحفرة بالعجل وقال : خذ عمك يا مهلهل ... ولما صار بالقاع ضربه بالسيف فقتله، ثم اخرجوا الزير من الحفرة، وعندئذ انشرحت

من بني تغلب القلوب وزالت عنهم الغموم والكروب، وايقنوا بالفلاح والتوفيق والنجاح، وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا اعداهم بأسنة الرماح ... ومال الزير على القوم ونادى : اليوم ولا كل يوم .

وفي الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جوانب الآفاق من ضرب السيوف الدقاق والرماح الرقاق وجمدت من القوم الاحداق ... وفعل الزير في ذلك اليوم فعالا لا تطاق. وما زالوا في اشد قتال الى وقت الزوال ... فعند ذلك دقت طبول الانفصال وعاد بنو مرة بالويل والحسرة ... والمهلهل بالنجاح والنصر، فنزل عن ظهر جواده وخلع آلة حربه وجلاده وجاء السادات واكلوا من زاده . ولما جلس في الصيوان نادى على عبده ابي شهوان باحضار الطعام الى الديوان ... فأحضره بالعجل فتناول منه المهلهل ومن حضر في ذلك المحفل .. ثم تذكر الزير ما جرى له في ذلك اليوم المهول فأنشد يقول:

يقول الزير ابو ليلى المهلهل ... فدمع العين هطال عمانا
لقد قتلوا اخي اولاد عمي ... وقالوا ما وراه الا جبانا
ولا يدرون بأسي واقتداري ... فقطعتهم ولم اخش الزمانا
أتتنا في كليب اولاد مرة ... اتونا داخلين على نسانا
وقالوا كف عنا يا مهلهل ... فقد حكمت سيفك في اذانا
فاطلب ما تريد اليوم منا ... واتركنا فقد صرنا حزانى
فقلت لهم : تروحوا لليمامة ... رضاها اليوم احسن من رضانا
قتلنا في كليب الوف قوم ... فما فيهم ردي ولا جبانا
قتلنا من بني مرة اماره ... ملابسها ثياب الطيلسانا
فراحوا الكل قد وقعوا عليها ... وقالوا عمك ارسلنا عيانا
فانا لا نصالح في كليب ... الا ان نراه علا الحصانا
فانا لا نصالح في كليب ... الا ان نراه على الحصانا
وقد حفروا لقلعاني حنساير ... وغطوها وقالوا قد كفانا

فركبوا خيولهم واتوا حداها | وقالــوا قــد اتانــا قد اتانــا
وقف جساس ما بين الحفاير | هجمت عليــه اطعنــه السنانــا
فولى هاربا من هــول حربي | ومــرة قـــد قتلنــاه عيانــا
فكوني يــا يمامة في انشراح | وحــظ دايـم طــول الزمانــا
فسوف ابيد جساسا بسيفي | وأقتل كــل مــن يبغي اذانــا

ولما كان الصباح عادوا الى ما كانوا عليه من الحرب والكفاح• وما زالوا في قتال وصدام عددا من الايام، ولما طا لالمطال اتفقوا على وقف الحرب والقتال ، واخذوا مهلة شهرين لراحة الفريقين ••• وبينما كان الزير خارج الخيام ومعه جماعة من الخدام واذ برجل يقود مهراً أدهم كامل الصفات ، فاستحسنه الزير غاية الاستحسان ، وقال لقائده : ما هو اصل هذا الحصان ؟

فقال : يا حلو الشمائل انه من الخيول الاصايل قد اتيت به مــن ابعد الحلل لاهديه للامير مهلهل •

فتعجب الزير من الاتفاق الغريب وقال : لقد نلت مرادك من قريب فأنا هو مهلهل الذي انت قاصده •

فأخذ منه الجواد وامر له بألف دينار وبلغه مقاصده• فدعا له بطول العمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء وسار من يومه الى قومه ••• فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله علىجميع الخيول الجياده• واتفق فيذلكالنهار انه التقى برجل عجوز وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام، ووراها كر ابن سبعة ايام وهو يبرطع خلفها وتارة قدامها ••• فلما رآه الزير اعجبه وقال لذلك الشيخ : أتبيع هذا الكر •

فقال : وبكــم •

فقال : ليس على الكريم شرط •

فأعطاه الزيرماية دينار واخذه منه وسلمه الى السايس فرباه مــدة اربع سنوات، ثم دخل الزير ذات يوم الى الاسطبل فنظر الى الكر وهو

كبر ونما فأمر السايس باسراجه وان يضع عليه عدة ولجاما . فأخرجه واسرجه ولجمه فركب عليه الزير وساقه، فرجع الكر الى الوراء، فرده الى اليمين فراح شمالا واجتهد ان يمشيه فما كان يمشي معه فغضب منه ولكزه برجله في الركاب فتضايق الحمار من فعاله وضربه بنعاله. فغضب الزير وتألم وضربه بالسيف فأورثه العدم، ودخل الى صيوانه فاجتمع بنوابه واعيانه وقال : لقد جربت رديء الاصل واكرمته فضاع تعبي معه ومــا قدمت هذا المثل ايها السادة الاخيار الا لتعلموا ان الحمار يقتني الحمار.

ثم انه ركب ذلك الحصان فوجده من عجائب الزمان فزاد انشراحه فيه فأمر السايس ان يسوسه ويداريه .

المعارك التي لا تنتهي

انتهت الهدنة واخذ الجانبان يستعدان لجولة جديدة من جديد ••
ودارت بين الفريقين معارك صغيرة هنا وهناك، انتصر فيها المهلهل وكسب اموالا كثيرة ، وقتل عددا من السادات•• حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها قلت واضمحلت •

وحدث انه بينما كانوا في هذه الحال بالذل والانكسار واذا بغبار قد علا وثار قاصدا بلادهم وتلك الديار ، فشخصت اليه الابصار ساعة من النهار الى ان ارتفع وتمزق وبان من تحته الف فارس وكلهم بالسلاح والدرق وفي اولهم فارس بالحديد غاطس كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت من ذيل جبل وعلى رأسه البيارق والرايات والسناجق• فلما رآه جساس استبشر وايقن بالفرج بعد الشقاء والكدر ، ولما اقترب للعيان وتأملته الفرسان واذا به الامير شيبون ابن الامير همام ، وكان المذكور قد خرج في جماعة من فرسان الصدام للغزو على بلاد الروم ، وذلــك من عهد وقوع الزير في البحر كما سبق الكلام • فلما عرفوه وتحققوه، خرجوا اليه واستقبلوه وفرحوا بقدومه الى الديار، وكان ذلك اليــوم عندهم اعظم نهار، فذبحوا الذبائح وأطعموا الغادي والرائح • وكان افرح الخلق ابوه همام وامه ضباع حيث لم يكن لهما غيره سوى الذي قتله

الزير على بير السباع... فلما نزل في صيوانه بابطاله وفرسانه خلع عدته وغير بدلته ودقت له النوبات وقامت الافراح والمسرات وعمل جساس وليمة عظيمة اها قدر وقيمة استدعى اليها جميع الاكابر وامراء القبائل والعشائر ... وكان شيبون قد وجد السادات والاعيان في هموم واحزان فسأل عن ذلك الشان فقال له جساس : لا تسأل يا ابن اخي عما اصابنا ودهانا من خالك الزير ... فانه لم يكتف بقتل اخيك شيبان حتى جعلنا مثلا بين العربان على طول الزمان ... افنى رجالنا واهلك ابطالنا وحرمنا هجوع الليل وهدمنا القوى والحيل، كل هذا وهو لا يقبل منا دية ولا فدية، وقد اعلمناك بالقضية واوقفناك على باطن الطوية .

فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام من عظم ما قاله جساس. واحمرت عيناه وشتم خاله واوعدهم بالمساعدة والمعاضدة وان يكون معهم على قتال خاله يدا واحدة . وبعث الى خاله الزير برسالة يهدده ويتوعده وارسلها مع احد رجاله .

فلما قرأ الزير الرسالة وعرف فحوى معناها غاب عن دنياه وشق عليه الامر وتأسف وصفق كفا على كف وقال : انه معذور في هذه الامور وجاهل مغرور فيجب ان ينتصح قبل ان يقتل وينفضح وكتب اليه يقول :

قال ابو ليلى المهلهل انني ... مفرج الكربات في يوم الزحام
يا فتى شيبون يا ابن اختي ضباع ... تهددني في كتابك يا غلام
ثم تطلبني الى سوق المجال ... وانت قصير عن ضرب الحسام
حذار ان تجهل علي يا امير ... فالجهل يسقيك كاسات الحمام
اطرد الشيطان ابليس اللعين ... وانتصح من قول خالك يا همام
لا تخالفني واسمع ما اقول ... يقتلك جهلك وما تبلغ مرام

رد عما انــت فيــه لا تزيــد   الا اذا كنت تبغي حربي والصدام
شد عزمك غدا تتلاقى ســوا   من طلوع الفجر الىوقت الظلام

فارسل الزير الكتاب الى ابن اخته شيبون، ولما فتحههذا وعرف ما احتوى عليه مزقه ولم يكترث به • ولما اصبح الصباح واشرق بنــوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح، وركب شيبون وجساس وكذلــك الزير الفارس العظيم والتقوا بأبطالهم ورجالهم وتشددوا في قتالهم• وكان شيبون قد بــرز الى ساحة الميدان وتبعته الابطال والفرسان والتقــى بفرسان تغلب وفعل بهم العجب فما صدم فارسا الا عطبه وعن ظهر جواده قلبه ••• ثم صاح وحمل بقلب اقوى من جبل وطلب براز خاله المهلهل• وكان الزير لما شاهد افعال ابن اخته وما فعل بابطاله ورفقته حمل عليه وقد احمرت اماق عينيه وقال له : اذهب يا وجه العرب قبل ان تهلــك وتعطــب •

فقال : الى اين اذهب يا خالي وانت بغيتي وآمالي، فوالله لاقتلنك في هذا اليوم ، واطفي اخبارك من بين القوم لانك طغيت وتجبــرت وافتريت •

فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد والتقاه بقلب شديد وجرى بينهما في القتال وقائع واهوال تشيب الاطفال • ولما طال المطال قال له الزير امام الابطال : ارجع يا ابن اختي بأمان قبل ان يحل بــك الهوان وتلحق بأخيك شيبان ••• ارجع الى اهلك وامك وارسل لي ابطال قومك مع جساس عمك •

فلم يجبه شيبون بكلام بل بقي يقاتله كسبع الاجام ••• وكــان الزير كلما أحكم عليه الضرب في اثناء الحرب يمتنع من اذاه شفقة عليه واكراما لخاطر والديه ، وما زال يقاتله ويداريه وينصحه بالرجوع عما هو

ـيه الى ان اقبل الظلام فعند ذالك توقف القتال ورجعت الفرسان والابطال عن ساحة المجال .

ثم التقوا في اليوم الثاني وكان اول من برز الى ساحة الميدان الامير شيبون فصاح وحمل وطلب براز المهلهل . فالتقاه الزير ونهاه عن قتاله ، فلم ينتصح بسقاله بل تقدم اليه وهجم عليه واشار يقول متهددا اياه امام الفرسان والفحول :

قال شيبون ابن همـــام الامير فارس الفرسان في يــوم النكير
استمع يا زير قولي وافتهـم لا بد من قتلك يا وغد يا حقير
مـــا بقالك مخلص منـــي ولا من حسامي اليوم لو انك تطيـر
ثـم آخذ ثأر اعمامي الجميع كـم بطل صنديـد صيرته حقير
ليس لك قلب على اختك يحن واولاد عمك ذاقوا منك النكير
كم قتلت منهم خلـق كثـير كم يتمت كـل طفـل صغـير
سوف ترى حربي يـا مهلهل في لقـا الابطال مـا مثلي نظير
قد اخبروني يـوم جئت بانك يـا قليل العقل تركـب للحمير
ما يقنى الحصـار الا الحمـار ما انا مثلـك ولا عقلي صغـير
هات لي سيفك ورمحك والثياب وابو حجـلان كالطيـر يطـير
حتى اقيلك من حسامي والقنا وتطلب الجيرة ومثلي مـن يجير
ان كنت لا تنصح فهذا حربنا ويكون النصر من رب القديـر

فلما سمع الزير هذا الكلام كان عليه اشد من ضرب الحســـام فأجابه يقول :

قال ابو ليلى المهلهل ثم قـال انت يا شيبون ما عاد لك مجـير
هرجت ياشيبون في قولك كثير الجحش لا يحمل كما يحمل بعير

لو سقيت الجحش من سكر وسمن ولو خلطت له الصنوبر بالشعير
لاعاش اصله ما ينفع منه الجميل اكيد هو مجنون ما يقني حمير
وانت يا شيبون لو لم تكن حمار ما رجعت اليوم الى حربي تغير
أنا قد عفوت عنك البارحة من امك وابوك نعم النصير
وانت تعلم انني سبع الرجال قتلت منكم اثني عشر امير
هذا من غير التوابع والغريب تاه فيهن العدد ناس كثير
كم نصيحة انصحك لا تنتصح جاهل سوف تقع في وسط نير
لم يبق لي ذنب ان اتاك مني ضرب يهدم الابدان ما عاد لك مجير
دونك الميدان يا شيبون قم شد عزمك لا يكون باعك قصير

فلم يلتفت شيبون الى كلامه ولا اكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة اسد الغاب واخذ معه في الطعان والضرب ••• فالتقاه المهلهل بالعجل بقلب اقوى من الجبل واشتد بينهما القتال وعظمت الاهوال حتى تعبت من تحتهما الخيل وارتخى منهما العزم والحيل ••• ومالا على بعضهما كل الميل، وكان الزير يطاوله ويحاوله• واستمرا يتقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى اندهشت من قتالهما الفرسان ، وشخصت اليهما عيون الشجعان ، وكان الامير شيبون يود ان يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخر بقتله على اهله واقربائه الى ان اغتنم الفرصة عليه فهز الرمح وطعنه بين ثدييه فخلى المهلهل منها فراحت خائبة بعدما كانت صائبة ••• فزاد الزير غضبا وتوقد قلبه والتهب وصمم ان يسقيه كأس العطب فجذب سيف حكمون وقال : اليوم اريك يا مجنون كيف الضرب يكون لانسي نصحتك، فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت •

ثم تقدم اليه وهجم عليه وضربه على مفرق رأسه فشقه الى تكة لباسه فوقع على الارض يختبط بعضه ببعض •

فلما رآه المهلهل وهو قتيل يتململ ندم على ما فعل فتحسر وهطلت الدموع من عينيه • فلما قتل الامير شيبون احسرت من بني مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وايقنوا بالهلاك والشتات، ولكنهم اخفوا الكمد واظهروا الصبر والجلد ، قاتلوا قتال اسود وطلبوا الرايات والبنود فالتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهم بالسيوف البواتر واحاط بهم احاطة الخواتم بالخناصر ، وقتل منهم مقتلة عظيمة واصاب غنائم جسيمة • فلما رأى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه ولى يطلب الهرب خوفا من العطب وتبعه فرسانه وقد ابصروا في ذلك اليوم العجب من قتال بني تغلب• فرجع عنهم الزير وهو حزنان على فقد ابن اخته الامير شيبون ••• ونزل في الصيوان مع الامراء والاعيان ولم يكن له دأب الا البكاء والانتحاب ولما اتى وجلس انشد هذه الابيات وهو من الحزن على آخر نفس :

الزير انشد شعرا من ضمايره	العز بالسيف ليس العز بالمال
شيبون ارسل نهار الحرب يطلبني	يريد حربي وقتلي دون ابطالي
نصحته عن قتالي لم يطاوعني	بارزته فهوى للارض بالحال
المال يبني بيوتا لا عماد لها	والفقر يهدم بيوتا سقفها عالي
دع التقادير تجري في اعنتها	ولا تبيتن الا خالي البال
ما بين لحظة عين وانتفاضتها	يغير الله من حال الى حال
فكن مع الناس كالميزان معتدلا	ولا تقولن ذا عمي وذا خالي
العم من انت مغمور بنعمته	والخال من كنت من اضراره خالي
لا يقطع الرأس الا من يركبه	ولا ترد المنايا كثرة المال

• • •

لما فرغ الزير من كلامه انطرح على فراشه من شدة حزنه على ابن اخته، ولما بلغ قتل شيبون أباه همام وامه ضباع احترق قلبهماعليه، لانه كان ابنهما الوحيد بعد اخيه شيبان وكانت الفرسان قد اتت بجثته اليهما فبكيا بكاء شديدا ومزقا عليه الثياب، وبعد ذلك دفنوه في التراب •

وفي اليوم الثاني ركب الامير لقتال الزير وتبعه جساس وباقي الابطال والفرسان وبلغ المهلهل الخبر فركب في ابطاله وفرسانه• ولما التقى الفريقان وتقابل الجمعان برز الامير همام الى معركة الصدام وطلب براز المهلهل وكان قد غير صفاته ووضع لثاما على وجهه حتى لا يعرفه احد، فبرز له وهو لا يعلم بانه الامير همام فاقتتلا ساعة من الزمان •

وكان الامير همام قد ضرب الزير بالحسام قاصدا ان يسقيه كأس الحمام فحاد الزير عن الضربة فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فوقع عن ظهر الجواد كأنه طود من الاطواد، فالتفت الى الزير وقال له وهو على آخر رمق : آه يا مهلهل لقد قتلت ابن اختك نهار امس ، واليوم تقتل صهرك همام •

فلما سمع الزير هذا الكلام تنغص عيشه وزاد همه وكدره •
وقال له يا همام ، قال نعم • قال ما عاهدتني انك لا تقاتلني ابدا واننا نكون اصحاب على طول المدى فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالي وانت تعلم بأنك لست من رجالي •

فقال : لقد جرى القلم بما حكم فانقضت حياتي ودنت وفاتي وهذا الامر مقدر بأمر رب البشر وما دام الامر كذلك يا فارس المعارك، فكف اذاك ودواهيك واجعلني فدى اخيك •

فقال والله يعز علي فقدك ولا غاد يطيب لي عيش من بعدك لكنني لا اكف الحرب والصدام حتى لا يبقى من بني بكر شيخ ولا غلام •

ثم انه من بعد هذا الكلام هجم على المواكب ففرقها وطعن في ابطالها فمزقها فتأخرت عنه الفرسان ورجعت الى الاوطان وهي في حالة الذل والهوان. ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن عقلها وقد عظم مصابها وسارت الى بني تغلب ودخلت على اخيها الزير وقلبها يتلهب وقالت له بكلام الغضب : هكذا تفعل يا اخبث العرب تقتل اولادي وبعلي وتحرمني اهلي وتتركني حزينة طول الدهر اقاسي الذل والقهر، هكذا تكون الاخوان الذين يدعون الفضل والاحسان ؟ فوحق الاله القادر الفاحص القلوب والضمائر ... ان موتي يا مهلهل الذ عندي من الحياة وافضل فانك نسيت الجميل والمعروف وقابلتني بالغدر والمتلوف بعد ان خلصتك من الحريق وكشفت عنك ذلك السيق .

فلما سمع الزير منها ذلك الخطاب اظهر الحزن والاكتئاب وتلقاها بالاكرام والترحاب ... ثم اعتذر لها بالغلط واخذ يطيب خاطرها ويعزيها عما فرط، وامرها ان تسكن عنده بخدمها وحواشيها فامتثلت كلامه واقامت في بيت اخيها ..

فلما عظم الامر على جساس وبني بكر وكثرت فيها السبي والقتل ارسلوا يستنجدون اهل اليمامة فامدوهم برجل منهم يقال له الفند ابن سهل ، وكان من جبابرة الزمان وفرسان الاوان لا يبالي بالاهوال ولا يخاف كثرة الرجال وكان يلقي نفسه على المخاطر ويصيد الكواسر فسار الى مساعدة القوم من ذلك اليوم ، وقد انتخب من الشجعان سبعين فارسا مثل العقبان يقاربوه بالشجاعة والفروسية والهمة العلية. وكانت اهله قد كتبت اليهم تقول قد امددناكم بعشرة الاف فارس من الفحول وبهم تنالوا من اعداءكم القصد والمأمول ، فلما قدموا الى تلك الاطلال ورآهم جساس وباقي الابطال اعتراهم الانذهال لانهم لم يروا اكثر من سبعين تحت راية الفند الاسد العربند فقالوا : اين جماعتكم الباقين .

فقال الفند : انا بسبعة الاف فارس واصحابي بثلاثة الاف مداعس.
فتبسموا من هذا الكلام والتقوهم بالاكرام والاحترام فذبحوا لهم النوق والاغنام ونصبوا لهم المضارب والخيام ثم استعدوا للحرب . وسمع بهم المهلهل وتزايد في الخيل والرجال وزحف من يومه في فرسان قومه فالتقته بنو بكر في مكان يدعى عقبة الريحان . فلما اقترب العسكران قال الحارث ابن عباد وكان من الفرسان الاجواد الى جساس قائد القواد : هل تطيعني ايها الامير فيما اقول واشير .

فقال، قل ما بدا لك فاني لا اخالف مقالك .

قال اعلم ان القوم مستخفين بقتالنا وذلك لضعفنا وقلة عدد رجالنا فقاتلهم بالنساء مع الرجال فتبلغ منهم القصد والاما ل.

فقال جساس وقد اعتراه الانذهال : ما معنى هذا المقال وكيف قتال النساء مع الرجال. قال انك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع البنات والنسوان اللواتي اتصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطي كل واحدة منهن مطرقة من خشب وتصفهن خلف الرجال وقت الحرب والقتال فان هذا الحال مما يزيد الابطال نشاطا في ساحة المجال فاذا جرح منكم احد الناس يعرفنه من حلق الراس فيسقينه الماء فينعشه واذا مررن بعدوكم عرفنه فقتلنه .

فاستصوب جساس هذا الرأي واستحسنه وفي عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هذا الحال، فأجابوا أمره بالامتثال ولم يبق يومئذ من بكر احد الا حلق واستعد الا رجلا من الفرسان اسمه ربيعة ابن مروان وكان زميما قصيرا وفارسا خطيرا فقال : يا قوم انني زميم قصير واذا حلقت راسي اصير معيرة عند الكبير والصغير فدعوا لي لمتي يا سيدات العرب فانا ابلغكم الارب واقتل لكم خمسة فوارس من تغلب فاجابوه الى ما طلب ..

ولما التقت العساكر بالعساكر تضاربت بالسيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الاجام والهبوهم بضرب السيوف على الهام ارتدت بنو بكر طالبة الهزيمة، فشهر جساس في يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد في الغمام وقال : يا ويلكم ارجعوا وقاتلوا بقوة وعزيسة فان الموت افضل من الهزيسة •

فعادت بنو بكر الى الحرب والقتال وضموا خيولهم كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة، وصاح الفند بن سهل والقى نفسه في المعركة وهو ينخي الابطال ويصيح على الرجال، ففرق المواكب واظهر بقتاله العجائب • فلما رأى المهلهل افعاله برز اليه وطلب قتاله ، فالتقاه الفند بقلب كالحديد وهجم عليه هجوم الصناديد وما زالا في قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد الى ان صار وقت الزوال فتوقفا عن الحرب والقتال وافترقت العساكر عن بعضها البعض ونزلت في جوانب تلك الارض ••

وكان ربيعة لم يحلق رأسه من بني بكر وقاتل قتالا شديدا حتى اثقلته الجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فوقع طريحا بين القتلى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بني بكر فوجدته ذا لمة طويلة فحسبته من بني تغلب فضربته بالمطارق حتى اوردته موارد العطب فضربت به الامثال وتحدثت به ألسنة الرجال ••

ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتقدموا الى ساحة الميدان بالضرب والطعان ، وكان المهلهل في اول الجحفل كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت من ذيل جبل ، فصاح وحمل على جيوش الاعداء كليث الاجام وضرب فيها بالحسام• وتبعه امرؤ القيس ابن ابان وكان صنديدا • واشتد بين الفريقين القتال وكثر القيل والقال ، وتقطعت الاوصال وجرى الدم وسال

وكان يوما شديد الاهوال لم يسمع مثله في الاجيال... كثر فيه القتال والجراح وتسددت الفرسان على وجه البطاح وارتجت الارض من قعقعة السلاح وصهيل الخيول وهول الكفاح .

وكان الفند قد حمل على مواكب المهلهل وقاتل حتى استقتل وفعلت فرسانه مثلما فعل ، وبذل جساس ذلك اليوم غاية الجهود وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الاسود، واشتد على المهلهل القتال واحاطت به الاعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل ويمانع وينخي رجاله على الثبات والدفاع حتى جرح في ثلاثة مواضع ، فلما زاد عليه الحال وازدحمت حوله الرجال تأخر عن ساحة المجال خوفا من الهلاك والوبال وانكسرت بنو تغلب وتفرقت في البراري والقفار واستظهرت عليها بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت منها جماعة من الامراء والاعيان وصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان وزينة الشجعان امرؤ القيس ابن ابان... وكان من الاعيان صيته محمود مشكور وهو غير امرؤ القيس الشاعر المشهور ... فبكى المهلهل عليه وكان يحبه ويميل اليه ، ورجعت بنو بكر الى الديار وهي بغاية الفرح والاستبشار على تلك الفعال ..

اما الزير فقد زاد حنقه على بني بكر وبات تلك الليلة على مقالي الجمر، ثم جمع الفرسان والابطال وتجهز للحرب والقتال ، فالتقته بنو بكر بقلوب كالجبال وجرت بينهم وقائع واهوال لم يسمع بمثلها في سالف الاجيال . واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة ايام، وكان المهلهل قد انتصر في اكثر الوقائع وقتل جماعة كثيرة من فرسان المعامع . ولما كثر القتل بين الفريقين اتفقوا على توقيف الحرب لمدة شهرين ، فافترقت الفوارس عن بعضها ونزلت كل فرقة في ارضها .

. . .

ولما قتل كليب كما تقدم الكلام كانت امرأته الجليلة حامل ، فلما طردها الزير وارسلها الى بيت ابيها ... سكنت عند جساس اخيها فولدت غلاما فسمته (الهجرس) ولقبه الناس بالجرو فكان مع اخواله بني مرة واولادهم وكان خاله يحسن اليه ويشفق عليه .

وكان الغلام قد احب خاله الامير جساس دون باقي الناس فلا يدعوه الا ابا . ونشأ الغلام ذا عقل وأدب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته وبراعته وقوته وشجاعته، فكان يركب ظهور الخيل ويتعلم عليها الفروسية في النهار والليل فبرع واشتهر وعلى شبان القبيلة افتخر . فلما بلغ عمره خمسة عشر عاما زاد شهرة وارتفع مقاما فرآه جساس في بعض الايام وهو كأنه ليث الاجام والشرر طائر من عينيه ولا يقدر احد عليه ، فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش ، وكان كثيرا ما يتأمل في امره ويخاف من سطوته وشره لانه قتل اباه بالامس وتركه يتيما طوال الدهر ..

واتفق ذات يوم ان الجرو ركب في جماعة من الشبان واخذوا يلعبون بالجريد في الميدان ، وكان من جملة الغلمان عجيب ابن الامير جساس وكان شديد الباس ، فطعن عجيب الجرو طعنة فمال عنها فراحت خائبة ثم تقدم الجرو نحو عجيب وطعنه جريدة اصابته فألقته عن ظهر الجواد الى الارض فنهض غضبانا ، فشتم الجرو واهانه بالكلام وقال : أهكذا تفعل يابن اللئام بأبناء السادات الكرام ...

واشار يهدده بهذا الشعر :

يقول عجيب من قلب موجع	الا يا رفقتي حالي عجيب
ضربني الجرو منه جريدة	فأرماني وصيرني كئيب
ولم يعلم بأني خير ماجد	ولد جساس قوم مستهيب

لولا عمتي لقطعت رأسه وألقيته على الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الاعادي ولا ضد الكلاب الا القضيب
دعوه يروح عنا لا يماطل ويذهب سرعة قبل المغيب

فلما فرغ عجيب من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه اجابه على شعره يقول :

يقول الجرو اسمع ياابن خالي كلامك ليس يسمعه اديب
تقول اليوم تقتلني بسيفك وتتركني على الغبرا قليب
اذا ابصرتني يوما فريدا فتقلتني بسيفك يا عجيب
فانزل عن جوادك يا ابن خالي وافعل ما تريده عن قريب
وافعل ما تريده اليوم فينا فاني لا اخافك يا عجيب

فلما فرغ الجرو من كلامه واذا بسلطان اخو جساس يقبل عليهما في ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن اخيه جساس، فلما علم بواقعة الحال اغتاظ غيظا شديدا وشتم الجرو وقال : والله لولا كرامة امك لقطعت راسك واخمدت انفاسك •

فقال : يا خال ها انا بين يديك فافعل ما تريد •

ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد موجوع وسار الى عند امه ••• فأعلمها بما جرى وطلب منها الرحيل من تلك الاوطان ••• فتكدرت امه لكدره واجابته الى دلك الشان، ثم انهما صبّرا حتى اظلم الليل فتركا المضارب والخيام وسارا تحت جنح الظلام في جماعة من العبيد. والخدام وجدا في قطع البراري والاكام مسافة عشرة ايام • واتفق في اليوم الحادي عشر انهما التقيا بشيخ في ذلك البر الاقفر وهو يقطع البر الفسيح على فرس تسابق الريح، وكان بسعيته عشرة ابطال من صناديد الرجال وكان قد خرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع الى

الاوطان فتقدم الجرو اليه وسلم عليه فرد الشيخ سلامه وقال له : ايها الفتى الماجد من اين اتيت والى اين قاصد ؟

فقال طردني اهلي وربيت يتيما وانا طالب انسان كريم حتى التجىء اليه واقيم عنده .

فقال الشيخ : اذا كان الامر كما تقول فشرفني الى اطلالي فانا افديك بروحي ومالي واشار اليه يقول :

يقول الامير منجد من قصيد	الا يا قاصدا نيل المآرب
فشرف منزلي وأمر عبيدك	يردون الاباعر والنجائب
بكم قد حلت البركة علينا	وزال الشر عنا والمتاعب
فمثلي ما تلاقوا اين سرتم	وعندي تبلغوا كل المطالب
انا منجد ومن نسل الاكارم	ابي وائل وما فينا معاقب
الوف الوف تخدمني وتخضع	لامري في المشارق والمغارب
وانت بقيت بعد اليوم ابني	ولست اليوم في قولي بكاذب

وكان هذا الشيخ اسمه منجد ابن الامير وائل وهو خال كليب والزير البطل ، وقد كنا ذكرنا عنه في اول الكلام بأنه بعد قتل ربيعة والد كليب استخدم مع اخوته الثلاثة عند التبع في بلاد الشام، ولما قتل التبع ولى هاربا وسكن في آخر بلاد العرب خوفا من كليب ان يقتله كما قتل اخوته ، لانه كان يبغضه دون اهله وعشيرته ... فلما فرغ منجد من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع الى عند امه على الاثر ، واعلمها بما جرى وكان ...

وكذلك ساروا معه الى الاوطان ونصبوا المضارب والخيام فأكرمهم منجد غاية الاكرام وانزلهم في اعز مقام ، وكان لمنجد المذكور عشرة اولاد من الذكور كأنهم البدور فائتلفوا الجرو واحبوه ، وكانوا لا يفارقوه

وكانت امه الجليلة قد عرفت الامير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الامر عن زيد وعمرو، خوفا من العواقب وحلول النوائب، فاجتمعت بابنها الجرو وقالت له : اذا سألك احد عن اسمك ... فقل : اسمي الهجرس ولا تقل الجرو ..

فقال، ان الاسمين بمعنى واحد، فما هو مرادك بذلك .

فقالت : وان يكن الهجرس كلب الصياد فانه اصلح من الجرو ابن الكلب . وانت امير وابوك كان من الفرسان المشاهير .

ومن ذلك اليوم تسمى بالهجرس وغلب عليه هذا اللقب بين العرب، وكانت امه في قلق عظيم خوفا عليه فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيدها وكان اسمه صبيح واشارت تقول من فؤاد متبول :

تقول الجليلة بدمع سجام ... ايا صبيح اسمع الكلام
فهذا الشيخ الذي نراه ... مكيد الاعادي بضرب الحسام
يسمى منجد صمد عنيد ... ولد وائل وافي الذمام
فهو امير وابن امير وحوله ... عساكر كثيرة كفيض الغمام
فهذا خال كليب الامير ... مع سالم الزير قوم همام
فهو خالهم قد عرفته سريع ... مكيد الاعادي بضرب الحسام
وهو خال زوجي لكن عدو ... كيف العمل الان صرنا نضام
واصل العداوة كليب الامير ... قتل اخوته في دمشق الشام
قتل اليمامة واخذ ثأر ابوه ... واهلك اخوة منجد ونال المرام
ونحن الان نزلنا عليه ... عرفته وقد اعتراني سقام
اني اخاف على ابني حقيق ... يهينه ويدعي دمه سجام
عدوك اياك تركن اليه ... ولو انه سقاك المدام

فلما فرغت من شعرها ونظامها وفهم صبيح فحوى كلامها قال لها : اين نتوجه الان وقد صار لنا مدة من الزمان ، ومن الصواب ان نكتم امرنا عن كل انسان لبينما يفرجها علينا الرحمن الرحيم ..

واستمروا مدة طويلة في تلك القبيلة وهم في عز واقبال وارغد عيش واحسن حال الى ان اغار في بعض الايام على الامير منجد بعض ملوك العربان في عدد كبير من الفرسان ، فالتقاه منجد برجاله فانكسر عدة مرار امامه ، فلما شاهد الجرو تلك الاحوال وما حل بمنجد من الاهوال، برز الى ساحة المجال وقاتل الشجعان والابطال واظهر الغرائب والعجائب ففرق الصفوف والمواكب وكسر ذلك العسكر، وفعل فعالا تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقمر • وعند رجوعه من معركة القتال بالنصر والاقبال شكره منجد على تلك الفعال وقال له : مثلك تكون الرجال فوالله لقد حميت الحريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكرا جميلا على طول الدوام •

وعند وصولهما الى الديوان قال منجد بحضور السادات والاعيان مثلك تكون الفرسان فاعلمني عن حسبك ونسبك ومن يكون قومك فلما سمع الجرو فحوى كلامه اجابه بهذا القصيد :

ايا فخر الاماجد في الرجال فاسمع يا ملك فحوى مقالي
انا اسمي اليتيم ايا مسمى ولا اعرف ابي ولا خوالي
واني قد سألت امي مرارا فتسكت لا ترد الى سؤالي
تقول ابوك شاليش ابن مرة قتله الزير في يوم النزال
فاطلب من الله العرش ربي لاخذ الثأر منه بالقتال

فلما فرغ الهجرس من كلامه زاد منجد في احترامه ونهض على الاقدام واعتنقه امام السادات الكرام، وقال له : انت من بني مرة اصحاب الشجاعة والقدرة ، فعربك من عربي ونسبك من نسبي، فوالله ما ضاع نظري فيك ، فأطلب من الله ان يحفظك ويبقيك وينصرك على جميع حسادك واعاديك •

ومن ذلك الوقت زاد في اكرامه ورفع مقامه في جميع قومه واقامه اميرا على تلك الديار، وصار له مزيد الوقار والاعتبار عند الكبــــار والصغـــار •

وكان لمنجد بنت بديعة الجمال متصفة بالادب والكمال كأنها الهلال ذات عقل ثاقب ورأي صائب لا يوجد مثلها في العرب والاعاجم اسمها بدر باسم فزوجه اياها وتمتع الجرو بحسنها واقام في ارغد عيش واحسن حال وهو يحكم على تلك الاطلال وقد احبته جميع الرجال ••

البحث عن الهجرس

نترك الهجرس الان وقصته، ونعود الى بني مرة ، والى جساس كبيرهم لنرى ما جرى لهم من الحوادث والمتاعب ..

كان جساس بعد رحيل اخته من الديار قد زادت به الاكدار وكان كثيرا ما يذكرها بالليل والنهار ، فاتفق في بعض الايام، وبينما هو جالس في الخيام ان دخل عليه احد الشعراء فسلم عليه وعلى باقي الامراء وأخذ يمدحه بهذا الشعر والنظام على ما جرت به العادة في تلك الايام :

قال جابر في بيوت صادقات … انت يا جساس رب المكرمات
سمعت في صيتك انا ياذا الامير … في الكرم والجود يا فخر الذوات
انت امير البلاد جميعها … حاكما في الارض من كل الجهات
قاتلا للضد في يوم الوغى … مكرما للضيف سنة المحملات
انت يا جساس امير البلاد … مع اخوتك وشقايقك السيدات
لولاكم ما كنت جئت لارضكم … ما كنت فارقت العيال مع البنات
وتركت اختي يا امير واولادها … وزوج اختي يا امير ذا العام مات
اولاد اختي يا امير سبعة ذكور … عند اولادي واهلي تبات
جور هذا الدهر في الدنيا عجيب … كم له في كل يوم تقلبات

فلما فرغ جابر من شعره ونظامه وفهم جساس فحوى كلامه امر له بمائة دينار واعتبره غاية الاعتبار، ثم التفت اليه اخوه سلطان وقال له امام السادات والاعيان :

أسمعت كلام هذا الشاعر الذي يدور القبائل والعشائر ويمدح السادات والاكابر ، املا بالمكاسب وبلوغ المآرب كيف انه ذكر اخته في شعره ولم ينسها طول دهره ... فكيف نحن نكون امراء الزمان ونترك اختنا تغضب منا وتبعد عنا، ولا نعلم الى اين ذهبت وبأي قبيلة التحقت .. فماذا تقول عنا القبائل اذا سمعت عنا ذلك، فمن الواجب ان نقتفي اخبارها الان ونعيدها معزوزة الى الاوطان .

ثم انه بكي امام جلسائه وبكت اخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل، واستعظم ذلك العمل، ثم التفت جساس على ذلك الشاعر وقال : انت تطوف حلل العرب وتمدح الملوك واصحاب الرتب، فاريد ان تستقصي لنا عن اخبار (الجرو) واختي الجليلة وتعلمني الى أي حلة قصدوا وعن اسم القبيلة ... فان اتيتني بصحة الخبر بلغتك القصد والوطر .

فأجابه الشاعر وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصي عنهما الاخبار من الكبار والصغار، حتى سمع بخبرهما ووقف على حقيقة امرهما فقصدهما الى ذلك المكان واجتمع بهما في الصيوان وحدثهما بما سمع في حقهما من جساس وسلطان ثم اشار يمدح الجرو وهو فرحان على بلوغ القصد :

يقول جبر من قلب حزين فدمعي سال من وسط الاماق
ادور على القبائل والعشائر لأحظى بالمكاسب والنياق
فأصغي يا امير الى كلامي فأنت اجلّ فرسان السباق
فصيتك شاع في كل القبائل فمن يسن الى ارض العراق

ومالك في البرايا من شبيه ونجمك فوق سام المجد راق
سألت الله ان يحفظ جنابك على طول المدى والدهر باق
رحنا من حماة لعند خالك ملك جساس سلطان الافاق
فاهداه وقد انعم علينا وقلبه من بعادك باحتراق
وارسلني لاكشف اين انتم ليحظى فيكم بعد الفراق

وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهي خلف الحجاب والستر فما هان عليها ان تسمع بذكر اخوتها لانهم كانوا سببا لغربتها وفراقها من حلتها، فأمرت كبير العبيد ان يوقف الشاعر عن اتمام القصيد، وان يكتم خبرهما عن هذا وذاك خوفا من الفضيحة والانتهاك ... ثم امرت بمبلغ له واعطاه الجرو ايضا مثل ذلك ، ففرح الشاعر واستبشر ورجع على الاثر واعلم جساس بذلك الخبر . فارسل في الحال أخاه سلطان في جماعة من الابطال ليأتوا باخته وابنها الجرو من تلك الاطلال، فلما اقترب سلطان الى تلك الاوطان ارسل بعض الفرسان ليعلم منجدا بقدومه الى اوطانه . فخرج في الحال في جماعة من فرسانه ، فالتقاه احسن لقاء لانهم كانوا اقارب واصدقاء ، وانزله في سراية الاحكام وذبح له النوق والاغنام واكرمه غاية الاكرام .

وفي ثاني الايام اجتمع سلطان باخته الجليلة وولدها الجرو، واعتذر لهما عما فرط منه وطلب منهما الرجوع الى الديار ، وشدد عليهما في ذلك غاية التشديد ، فأجاباه الى ما طلب، واعلم الجرو الامير منجد بأنه يريد الرجوع الى اهله وعشيرته مع امه وزوجته، ومن يلوذ به من جماعته لان نفسه اشتاقت الى الوطن، فقال منجد : والله يا امير يعز علينا فراقك ولا زالت ارواحنا في كل وقت تشتاقك.. ولكننا لا نقدر ان نمنعك عن اهلك واصحابك ، وبني عمك واحبابك .

ثم اعطاه ماية ناقة محملة من نفائس الاقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعادن والجواهر، ومائة عبد ومائة جارية واركب ابنته زوجة الهجرس على هودج كبير، وسار لوداعهم مسافة نصف يوم . ثم رجع الى الديار وسار الهجرس مع امه وزوجته يقطعون القفار حتى وصلوا الى منازل بني مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة، وأمر بذبح الذبائح واطعام الغادي والرائح واشار الى الجرو يقول:

لما قال الفتى جساس صادق ... ايا مرحبا بك يا ابن اختي
ففيكم حلت البركة علينا ... وضاء الحي في قربك الينا
وامك يا فتى عيني وروحي ... وعمرك يا جليلة ما فرحت
فابنك غدا كالسبع كاسر ... فان الجرو للاعداء كاسر
بيوم الحرب والاهوال جاسر ... اله العرش ارجعه لعندي
فلا تعتب على سلطان خالك ... ولا يخطر قوله ببالك
انا ابكي على المرحوم ابيك ... قتله الزير في ربعك وحيك
فقم اركب يا روح خالك ... واشخت للمهلهل أي شخت
سألت الله ان تأخذ بثأرك ... بقتله تكشف عنك عارك
مرادي تقتله وتأخذ بثأرك ... وتحرقه بنارك يا ابن اختي

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقال له كن مطمئن الخاطر يا خال .

هذا ما كان من الجرو وجساس ، واما الزير فانه، بينما كان راقدا ذات ليلة اذ رأى في منامه ولذيذ احلامه اخاه الامير كليب ... يعاتبه بهذه الابيات على أخذ الثأر وكشف العار ويقول وعسر السامعين يطول :

وعظمي ذاب حتى صار كحلا ... وجساس ابن مرة في الحياه
تنام الليل كله يا مهلهل ... وثأري ما قدرت على وفاه

وقال الزير في منامه شعرا •

فاستيقظت بنات كليب من المنام ••• وايقظن عمهن بهـذا الشعر والنظـام :

يقولون اليتامى يـا مهلهـل اتانـا كليب يستنجـد اخـاه
كليب قام من وسط المقـابر وصار كليب في وسط الحيـاه

وكان الزير قد استيقظ من منامه فرأى البنات حوله ، فقال لهن : رأيت اباكم في المنام •

ثم حدثهن بما سمعه ورآه بالكمال والتمام •• فبكين بكاء شديدا فقال الزير : ان هذا المنام يدل على امر عجيب وحادث يقع عـن قريب •

فاستدعى بعض الرمالين اليه وقص ذلك المنام عليه فضرب الرمل الرمال ورسم الاشكال وولد البنات من الامهات حتى عرف حقيقة الخبر فقال : لك البشرى يا فارس الصدام •• فان جساسا سوف يقتل مـن بعد ايام وذلك من يد شخص يظهر من لحمك ودمك واشار يقول :

يقول بشير اسمع يـا مهلهل ايا سـالم فابشر زال همـك
اتاك النصر مـن رب البرايـا اله العرش بالخيرات عمـك
وقد ظهرت رسوم الرمل عندي سيظهر شخص من لحمك ودمك
فيقتل في الوغا جساس حالا وانت تزوجه ويـزول همـك
وتهلك بعـده اولاد مـرة وتسقيهم جميعـا كأس سمـك

فلما سمع المهلهل هذا الشعر من الرمال فرح واستبشر وقال له : ان تم هذا الكلام ابشر مني ببلوغ المرام •

ثم انه احسن اليه ووعده بكل جميل •

ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ركب المهلهل الى الحـرب

والكفاح وتبعته الابطال والفرسان، وركب ايضـــا جساس بالرجـال والشجعاز ... واقتتلوا طول ذلك النهار وقتل المهلهل منهم عددا كثير المقدار • وما زالوا في أشد قتال الى ان دقوا طبول الانفصال، فانفصلت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة في ارضها •

واما الهجرس فانه لم يركب مع جساس في ذلك اليوم، فاجتمع جساس باخته الجليلة في المساء وقال لها : ان ابنك لم يقاتل معنـا ولا نعلم ما هو السبب ، فاسأليه واعلميني بما يقول •

فسألته امه عن عدم خروجه الى الحرب فقال لها : اعلمي يا امـاه انه لا يلقاني الى قتال الزير سوى حصان خالي جساس الاخرج، فان وهبني اياه فانا اعطيه عوضه رأس المهلهل فان قبل بهذا الطلب بلغته غاية الارب •

فرجعت الجليلة على الاثر واعلمت اخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له : ان انت قتلت هذا الشيطان تكون علينا امير القبيلة ونحن لك خداما واعوانا •

ففرح الجرو بذلك الجواد وضمن لجساس قتل الزير امام الفرسان والقواد •

ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ركب الجرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور، وكان الزير قد ركب وحمل وطلب براز الفرسان وقال اين جساس الجبان فليبرز الى الميدان فبرز الجرو اليه وهجم عليه واشار يقول :

يقـول هجـرس يـا مهلهل ... ان عـزرائيـل اقبـل
ايـن تغـدو اليـوم منـي ... سـوف تلقـاني وتقتـل
لا تحسبنـي بظنـك ... انـي كمـن جـاك أول

فلما فرغ الهجرس من شعره حمل عليه ، وكان المهلهل قد مال قلبه اليه وتحركت جميع اعضائه باذن الله ، وهذا الهجرس قد قصد قتله وقلعانه ليوفي الى جساس ضمانه ، وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختباره ولا كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره . وما زالا على تلك الحال وهما في عراك وقتال الى ان دقت طبول الانفصال وعاد العسكران عن ساحة المجال ، ورجع المهلهل الى الاطلال واجتمع ببنات اخيه كليب واعلمهن بحديث الغلام ، وما جرى بينهما في معركة الصدام وكيف انه اشبه الناس بأبيهن كليب في الصورة والقتال . ثم قال لليمامة : اعلميني هل كانت امك الجليلة حاملة لما ذهبت الى بيت ابيها .

فقالت : نعم يا عمي كان لها نحو شهرين ولكن ما معنى هذا السؤال فأنشد وقال :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل   مريع الخيل ان قصدت الينا
يمامة اسمعي مني كلامي   ايا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتى   اقاتل آل مرة اجمعينا
فبارزني غلام غريب منهم   له عزم كما الصخر المتينا
كمثل اباكم وجها وحربا   فذكرني ليالي الماضيينا
فقد قاتلته في كل لطف   ويطعنني طعان القاتلينا
فحملاته وطعناته قوية   تقد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهى من شعره اجابته اليمامة تقول :

الا يا عم اسمع ما اقوله   لتفهم سالم الخبر اليقينا
فامي حاملة من يوم راحت   وحق الله رب العالمينا
ولست ادري ايش جابت   أبنتا أم غلاما يا فطينا
ثلاثة أشاير لي في كليب   اشارات بعقلي راسخينا

ركب يوما بقرب اليوم مـرة وقال ايـا يمـامة انظرينـا
من التفـاح اعطـاني ثلاثـة وقـال بذي الثلاثـة اضربينا
فانك سـوف تحتـاجي اليهم اذا ظهـرت لنـا حقـا بنونـا
ضربته بواحدة يـا عم راحت بضرب ركـابه راحت طحينـا
وثاني واحدة شالها برمحـه وثـالثهم خطفهـا باليمينـا
غدا انـزل واضربـه ثلاثـة كفعل ابـي ايـا عمي الحنونا
يكون اخي اذا سوى نظيـره وان خالف يكون غريب فينـا
عسى اللـه يدركنـا بلطفـه وينصرنـا الـه العالمينـا

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع فحوى كلامها قال لها : متى فعل ابوك ذلك ؟

قالت قبل موته بشهرين عندما كنت في بير السباع ، وقد صممت الان ان ارافقك الى الميدان واضربه بالتفاح في ساحة الكفاح، فان فعل كما فعل ابي يكون لا شك اخي، وبه ابلغ اربي •

وفي اليوم التالي ركب الزير للحرب والصدام ، وركبت معه اليمامة وقد اخذت معها ثلاث تفاحات ••• وكان الجرو قد ركب ايضا بالابطال فصال وجال وطلب الزير للحرب والقتال ••• فبرزت له اليمامة بالعجل•• وقالت : انا اقاتلك اليوم دون المهلهل •

فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ، ثم ان اليمامة اخذت تفاحة ولوحتها بيدها وضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطحنها طحنا ••• فضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ••• فأخذت الثالثة وقالت: اللهم يا خالق الخلق امح الباطل واكشف الحق •

فأخذها بيده ووضعها في جيبه • فلما شاهدت تلك الحال ايقنت أنه اخوها لا محال ••• فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت اليه والقت

نفسها عليه وقالت اهلا وسهلا يا اخي ابن امي وابي فانت والله ابن الأمير كليب دون شك ولا ريب ... وقد ربيت في دار العدا والحمد لله الذي عرفناك بعد طول المدى .

فقال لها : انا ابن شاليش ايتها السيدة الحرة وامي هي الجليلة بنت الامير مرة، فقالت انت ابن الامير كليب ثم انشدت تقول :

قـالت يمامـة مـن ضمايرهـا	دمـع العيون على الخدين هتـان
اسمع اخي قصتي وافهم معانيها	يـا قاهـر العدا في وسط ميدان
ابـوك خانه جساس ايا سندي	بطعنـة يـا عظيـم القدر والشان
شاليش خالك كـل الناس تعرفه	اهـل الأعارب قاصيها ومـن دان
وعمك الزيـر فخـر الناس كلهم	وفارس الخيل من عجـم وعربان
فاسأل امـك ثـم سرك فاكتمه	وارجع الينـا فأنت اليـوم بأمان

فلما فرغت اليمامة من شعرها تأكد عند ذلك ، لان قلبه كان لا يميل الى جساس ... ولا الى احد من بني مرة ولا سيما انه قد حن قلبه الى اليمامة فقال لها سرا : لقدصدقت بقولك هذا فاذهبي الان وعند الصباح اتبعكم الى الاوطان .

ثم توقف عن القتال وعاد الى امه في الحال واخبرها وسألها ان تعلمه من هو ابوه من الفرسان وحلف لها بالاله الديان انها ان كتمت عنه حقيقة الخبر قتلها وجعلها عبرة لمن اعتبر .

فلما علمت امه بأن الخبر قد وصل اليه وان الامر ما عاد يختفي عليه اعلمته بالقصة من اولها الى آخرها واوقفته على باطنها وظاهرهـا واشارت اليه تقول من فؤاد متبول :

الجليلة قـالت مـن ابيـات	نـار قلبي بالحشا زادت لظـا
اسمع يـا ولدي فيما اقـول	يـا ضيا عيني ويـا كل المنـى

انت روحي افتهم مني الكلام ... قول صادق ليس فيه من خفـا
انابوك كليب صور المحصنات ... قاهـر الابطال فـي يوم الوغى
واخوته خمسون اعمامك جميعا ... كلهم فرسـان طعـانة قنـا
أربعة من الست يا ابني حقيقي ... كل واحد سبـع ربـي بالفـلا
منهم ابوك المسمى كليب كان ... والفتى الزير المهلهل يـا منـى
والفتى المسمى عدي ودرعاز ... هذه الاربعـة اتوا منها سوى
ثم سـت واربعين خلافهـم ... من الجواري والسراري والاما
كلهم يـا امير اعمامك اهـم ... كـل واحد الف يطعـن بالوغا
وابوك كليب ساد على الجميع ... بالفروسية مـع جـود وسخا
جاء جساس خـالك غـدره ... وتركني بعـده مثـل الامـا
وطردني عمـك الزير بعـده ... فرحت الى اهلـي دون المـلا
قد كنت حامل فيك بعد ابيك ... فولدتـك فـي تلـك الحمـا
رحت سميتك على اسم الكلاب ... صرت كأنـك سبع رابي بالفلا
وانا والله مـن خوفي عليك ... قلت اخي شاليش انه لـك ابا
وانا اعلمتك افعل مـا تريـد ... ما بقت اخـاف يـا فخر المـلا

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاء شديدا ولام امه على كتمان الامر ، ثم انه صبر الى الليل فركب وسار بالعجل الى عنـد المهلهل ومعه العبد ابو شهوان ، الذي كان ارسله اليـه عمـه فـارس الفرسان • وفي الطريق اراه العبد قصر ابيه وقبره المصفح بالذهب، فلما رآه بكي وانتحب، وعند وصوله الى عمه دخل عليه وقبل يديه وبين عينيه ، واجتمع عنده جميع اشقائه ومن يلوذ به من اهله واقاربه فوقعوا عليه ورحبوا به ، وكان الزير افرح الخلق به • ولما استقر بـه الجلوس وطابت من القوم النفوس قال الجرو : الحمد لله رب الكائنات الذي جمع شملنا بعد الشتات، فوالله العظيم رب موسى وابراهيم لا بد لي من قتل

جساس واجعله مثلا بين الناس، لانه فجعني بأبي تاجي وفخري وتركني يتيما طول دهري .

فقال المهلهل لا بد من قتله على رؤوس الاشهاد وانت تكون الحاكم بعد ابيك على هذه البلاد ثم انشد وقال :

يقول الزير ابو ليلى المهلهل	صفا عيشي ووقتي ما تعكر
اتاني السعد من رب البرايا	وزال النحس لما السعد نوّر
فقبل ظهوره كنا حزانى	نقضي الليل في قلق ونسهر
على فقد الفتى الماجد كليبا	ثوى غدرا له جساس غندر
وفي دمه كتب بالبلاطة	وصايا عشر ابيات واكثر
يوصيني بقوله لا تصالح	فسالم انت ان صالحت تخسر
واطرد الجليلة من حمانا	فعندي كعبها ما كان اخضر
طردناها وهي بالجرو حامل	ومن يقدر على رد المقدر
انا فيهم فتكت بحد سيفي	ونلت القصد منهم بالمشهر
واني ما بكيت على كليب	اخذت بثأره بالسيف مجهر
فابكي حيث ما خلف ذكورا	بنات، الكل ما له طفل يذكر
صفا عيشي وقد نلت المقاصد	وزال النحس عنا ثم ادبر
وبعده يا بني اسمع كلامي	انا عمك وانت الليث قسور
فقم اجلس على كرسي ابيك	وفي حال اخواتك تبصر

فلما فرغ الزير من الشعر والنظام قال الجرو : اطال الله بقاك ونضرك على جميع حسادك واعداك وبلغك قصدك ومناك ، انني والله يا عم في قلق وغم فلا تزول احزاني واانال اربي الا حتى آخذ بثار ابي واقطع راس جساس ، واجعله مثلا بين الناس .

فشكره جميع اهله واعمامه ... وبعد ذلك قال الزير : ما عندك يا ابن اخي ؟

قال الرأي عندي هو اني اغير عليكم نهار غد وآخذ نوقكم وجمالكم الى جساس واقول له بأني اتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغدا آتي اليك برأس الزير ، ثم ابرز لاحاربك وتكون انت واضع قربة من الدم تحت جانبك فاطعنك بالرمح ، فخذه تحت ابطك والقي نفسك على الارض يا عم ، فتنشق القربة ويهرق الدم، وانا اصيح على جساس واقول له قد قتلت عدوك يا خال، انزل واقطع راسه فقد زال الكدر وبلغنا اليوم الوطر .. وعندما يأتي اليك تقوم اليه بالعجل وتعدمه الحياة لانه لم يعلم بقدومي عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة، وتتخلص من هذه الورطة الوبيلة .. فاستصوب الزير رأيه ، ثم انه ودعهم وسار وحده الى ديار بني قيس من الرعيان باتفاق الامير مهلهل ليث الميدان ، ففرح الامير جساس وسادات بني مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة والنصرة...

واتفق في ذلك الليل ان الامير جساس رأى حلما غريبا وهو وانه ابصر نفسه كأنه قد ربي عنده جرو ذيب ، وكان يوده ويحبه ، فلما انتهى وترعرع تصاحب مع سبع كاسر، فألفه الى ان كان في بعض الايام اغار السبع على مواشي بني مرة وهجم على نسائهم واولادهم، وجعل يفترس كبارهم وصغارهم ، وكان الذئب يساعده عليهم ... فاغتاظ جساس من افعال الاسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله واعدامه فوثب عليه الذئب من ورائه ونهشه فألقاه صريعا على الارض .

أفاق جساس مرعوبا من هذا الحلم فنهض في الحال وسار الى

الديوان وجمع اخوته وباقي السادات والاعيان واعلمهم بذلك المنام فقالوا : هذا اضغاث احلام .

فبقوا يهونون عليه الامر حتى راق وزال عنه القلق والكدر . ولما اصبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الامير جساس وهو في قلق ووسواس ، وكان الجرو قد وعده بهلاك القوم وقتل المهلهل، في ذلك اليوم ... ولما التقى الفريقان برز الجرو الى ساحة الميدان ، فبرز اليه المهلهل فالتقاه الجرو وجال، وطعنه بالرمح طعنة كاذبة فسحبها المهلهل من تحت ابطه فراحت خائبة ، والقى نفسه على الارض من ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم بأنه قد مات وحلت بـه الافات ... فصاح الجرو : الله اكبر على من طغى وتجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذي اهلك العباد .

ثم صاح على جساس وقال له : انزل يا خال واقطع راس عـدوك فقد قتلته وكفيتك شره .

فلما رآى جساس الزير يختبط بدمه نزل عن ظهر القميرة وهو يظن انه قد بلغ المرام ، ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه مـن لحيته وهجم الجرو ايضا عليه ووضع الرمح بين كتفيه ، فعند ذلك علم جساس انها حيلة قد تمت عليه، وتأكد عنده صحة ذلك المنام فأخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام :

قال جساس الذي شـاهد وفاه   يا سياح البيض في طعـن القنـا
انني بك يا ابن اختي مستجـير   فاجرني يا ابن اختي مـن القنـا

فأجابه الجرو بهذه الابيات :

ايا خـال اقصر عـن ملامـك   دنـى اجلـك ووافـي حمـامك
تقـول اجرني يـا ابن اختـي   الا يـا جـرو اعطينـا زمـامك

قتلت كليبا عدوانا وظلما تظنوا بانني اسمع كلامك
وبعد كليب قد اصبحت حاكم تسامي في الملا ايضا ملامك
طغيت وجرت في حكمك علينا فاذني لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا ان نجيرك فهذا ما تشوفه في منامك

فلما فرغ الجرو من كلامه جعل جساس يتوسل اليه بأن يعفو عنه، وقال بالله عليك ان تصفح عني فان الذي مضى قد مضى .. وهل اذا اذا قتلتني يعيش كليب ويقوم ، فاتركني لوجه الله الواحد القيوم ..

فقال الجرو : لا بد من قتلك كما قتلت ابي حتى أكون قد بلغت منك اربي .

فلما طال بينهما الخطاب قال الزير : اراكما قد اطلتما الكلام والعتاب .. فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره وتقدم اليه الزير بالسيف على رأسه فقطعه ثم وضع فمه على عنقه وجعل يمصه حتى شرب جميع دمه .

وكان الجرو ينهش في لحمه حتى بلغ مراده وشفي فؤاده ، وبعد ذلك اعطى الراس الى الجر وليأخذه الى شقايقه فسلمه الجرو الى بعض عبيده ، وهجم مع قومه في باقي الابطال على جموع بني مرة في الحال فأذاقوهم الوبال وبلغوا منهم الامال. وكانت بنو مرة لما علمت بقتل جساس قد ايقنت بالموت الاحمر لانه كان القائد الاكبر وعليه الاعتماد في الحرب والطراد فولت الادبار وطلبت الهزيمة والفرار، وكان المهلهل قد قتل منهم في ذلك النهار خلقا كثيرا منهم امراء وقواد وسادات امجاد، واما الذين سلموا منهم فانهم طلبوا الزمام من الزير والجرو . فأجاروهم وعفوا عنهم شرط ان يكونوا مثل العبيد ، لا ينقلون سلاحا ولا يحضرون حربا ولا

كفاحا ولا يوقدون نارا لا ليلا ولا نهارا، ولا يعرف لهم قبر ميت في جوار لا في مقبرة ولا في دار ، الا مشتتين في البراري والقفار يقضون حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمار ، وان غابت نساهم طول النهار لا يسألها أين كنت بل يسألها ايش جبت وليس لهم سوى الرقص والخلاعة .

فقبلوا على هذا الشرط بكل رضى وقناعة . وبعد هـذه الشروط تسلط الجرو على كل القبائل نظير ابيه واطاعته العباد وشاع ذكره فـي البلاد، وفرحت بنات كليب كل الفرح وزال عنهن الغم والترح وخلعن عنهن ثياب السواد، وكان ذلك النهار عندهن اعظم الاعياد .

وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان ، فسمي الواحد تغلب، والثاني مالك ، ولما بلغا سن الرجولية زوجهما بابنتين شقيقتين وهما بنات الامير هلال حاكم حماه وزوج اخته اليمامة للامير مفلح ابن الأمير المذكور بينهم ... وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحروب بين قبائل العرب .

وكان افرح الناس الامير مهلهل، وكان الجرو قد عرض عليه الزواج فامتنع وكان منعكفا على الجلوس في الخيام واكل الطعام وشرب المدام، واقام له عشرون عبدا برسم خدمته وكان يرقد وينام وهو لابس آلـة الحرب والصدام لانه كان قد اعتاد عليه مدة الحروب والشهور التـي استمرت نحو اربعين سنة وكسور كما هو في التاريخ مذكور .

هذا ما كان من امر المهلهل في تلك الايام وسوف يقع له حديـث وكلام في الصفحات المقبلة .

واما الجرو فانه كان قد زوج أربعا من شقايقه الى اربعة من الامراء وصنع لهن ولائم وافراح مدة طويلة، واما ولداه مالك وتغلب فانهما بقيا

مدة خمس عشرة سنة لم يرزقا بأولاد من بنات الامير هلال المذكور ، وبعد نهاية المدة طلبت نساؤهما زيارة اهلهما في حماه فطلب ازواجهما من ابيهما الجرو ان يأذن لهما بذلك، فأذن لهما فساروا مع نساءهما الى تلك الاطراف ، ولما بلغ الامير هلال قدوم اصهاره بنساءهما خرج للتقاهم مع ولده الامير مفلح وخرجت معهما اليمامة زوجة الامير مفلح المذكور، وخرج ايضا اكابر المدينة فالتقوهم بالترحاب والاكرام وانزلوهم في احسن مكان واقاموا في تلك الاوطان مدة من الزمان، وهم في سرور وافراح وبسط وانشراح • ولما صمم الامير مالك وتغلب على الرجوع الى الاطلال مات الامير مفلح مع ابيه الامير هلال، فأقاما يحكمان في تلك الديار وانقادت لامرهما اهل تلك البلاد وكانا محبوبين من جميع العباد وكانت اليمامة بعدما توفي بعلها ذهبت الى عند اهلها •••

• • •

واتفق ذات يوم ان الامير مالك قال لاخيه تغلب : اعلم يا اخي انه قد مضى علينا مدة من الزمان، ولم نرزق بولد ذكر حتى يبقى لنا ذكر بين البشر فدعنا نتزوج الان على نساءنا فلعل الله يرزقنا بأولاد والا انقطع نسلنا من بين العباد •

فقال تغلب : من الصواب ان نصلي الى الله في هذه الليلة ونتضرع اليه ان يرزقنا اولادا من نسائنا، لانه على كل شيء قدير •

فامتثل اخوه رأيه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب واشار تغلب يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الفتى تغلب على ما جرى له   بدمع جرى فوق الخدود نهور

اقول وفي قلبي من البين لوعة وبي حسرات طي الفؤاد تشور
لفراق ابينا الجرو والزير عننا عليهما قلبي والحشا مكسور
يا رب يا رحمن يا سامع الدعا عليك اتكالنا يا جابر المكسور
سألناك ربي بالخليل وابنه بحق الذي اليه العبيد تزور
فيا رب يا رحمن تجبر قلوبنا بجاه عيسى وموسى الفاضل المشهور
بجاه داود مع يحيى مع الخضر وبالعرش والكرسي وبحر النور
ترزقنا ولدين يحيوا ذكرنا ايا من ترزق كل وحش مكسور

وكان الامير تغلب ينشد هذه الابيات واخوه مالك يقول : امين يا رب العالمين .

فاستجاب الله دعاهما ولم يخيب شكواهما ... فما مضت مدة يسيرة حتى حبلت نساءهما ولما تمت ايامهما ، ولدن في يوم واحد ، فولدت زوجة مالك بنتا وزوجة تغلب ولدا ذكرا ، فقامت في الحي الافراح والمسرات. وكان الاميران في الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشروهما بذلك. وكان اسم الاول (سرور) فلما أقبل العبد اليهما قالا له : علامك يا سرور ابشير ام نذير .

فقال : انني بشير واشار اليهما بهذه الابيات :

قال الداعي المسمى سرور يا سادتي اتيتكم قاصد بشير
يا امير مالك اتاك بنت كالقمر وجهها كالشمس والبدر المنير
وانت يا تغلب اتاك غلام يفرح القلب المتيم يا امير
اتيت اليكم حالا بلا بطا فوق حمرا كأنها طير يطير
اريد منكم يا كرام بشارتي اجبروا بالله قلبي الكسير

فلما سمعا كلام العبد فرحا فرحا شديدا واعتقا العبد واعطوه مائة دينار ... ولما حضر الحي امرا بذبح الذبائح واولما الولائم واقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين ... وارسلا حالا يعلما اباهما وعمهما الزير ويبشرانهما بذلك وسميا الغلام الاوس والبنت مي ، وتعاهد الاخـان على زواج البنت بالغلام اذا كبرا .

ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جدا وشكرا الله على هذه النعمة العظيمة وركب الجرو في جمع غفير من قومه وابطاله وسار لزيارة اولاده لانه كان في غاية الشوق لمشاهدتهما ، ولما اقترب من تلـك الديار وبلغا ولديه قدومه خرجا لملتقاه في موكب عظيم ، وعند وصوله سلمـا عليه ووقعا على يديه يقبلانها، فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما ... ثـم سألاه عن عمهما فقال : انه في خير وعافية وانه ما زال في خيامه وهـو ملازم طعامه مع مدامه .

ثم سار الى المدينة وكان ذلك اليوم اعظم من يوم الزينة ونـزل الجرو في القصر الكبير، ووقف بخدمته الكبير والصغير والمأمور والامير واقام في تلك الديار مدة شهرين ، وكان في آخر هذه المدة قد مرض ابنه تغلب فأقام عشرة ايام في الفراش ، ثم مات فحزن الجرو حزنا عظيما وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احترام ووقار .

ولما عزم الجرو على الرجوع الى بلاده استدعى ولده مالك واوصاه بالرعية وان يكون عادلا في حكمه وان يزوج ابنته مي بالاوس ابن اخيه، وبعد ذلك سار وحده يقطع القفار الى ان وصل الى اطلاله واجتمع بأهله وعياله .

واما الامير مالك فانه اعتنى بتربية ابنته وابن اخيه كما اوصاه ابوه

حتى كبرا وبلغا الكمال ... وكان الاوس يركب ظهور الخيل ويتعلم الفروسية مع الفرسان واستمر على ذلك مدة من الزمان حتى صار من صناديد الرجال وشاع ذكره في كل مكان ، وكانت ابنة عمه مي من اجمل النساء والرجال ... وكان الاوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروحين في جسد واحد... فلما شاع ذكرها في قبائل الاعراب، وتواردت على ابيها الخطاب وكان قد سمع بها الصنديد ابن الاكوع ... وهو ابن عم الملك تبع حسان ، فعشقها على السماع وكان من الملوك العظام ، فارسل وزيره ليخطبها من ابيها ، فلما وصل الوزير وعلم مالك بالخبر ، فقال : والله هو نعم الصهر وبه انال الفخر على طول الدهر ... غير انه لا خفاك اطال الله عمرك وبقاك بأن ابنتي مخطوبة لابن عمها الاوس ... ونحن الان مباشرين بأمر العرس فلا يمكنني ان انقض الكتاب وهذا الذي يمنعني عن اجراء الايجاب . فقال له الوزير اكتب لي الجواب فكتب له هذه الابيات :

يقول الفتى مالك على ما جرى له ... بدمع جرى فوق الخدود صدود
ايا غاديا مني على متن ضامر ... تسابق اضرب المرهف المبرود
تهدي هداك الله خذ لي رسالتي ... اعطيه مكتوبي تنال سعود
اذا جيت للصنديد فقل له ... بأني على طول الزمان ودود
ومي ترى مخطوبة لابن عمها ... ومعها تربى والانام شهود
فحاشا لمثلي ان يخون اقاربه ... وافسخ زمامي ثم اكون عنود
ترى الاوس روحي ياامير ومهجتي ... وهو عندنا احلى من المولود
فلو كنت اعطيها لغير ابن عمها ... لكنت انت اليوم اولى بالمقصود

فأخذ الوزير الجواب وعاد الى الصنديد .. واعطاه اياه فلما وقف على حقيقة الحال خرج عن دائرة الاعتدال فغير زيه وتنكر وركب جواده

وسار الى تلك الديار وحده، وعند وصوله الى مضارب الامير مالك ••• لم يجده هناك ولم يكن في الحي الا النساء والبنات، فسأل بعض النساء عن سببَ غياب الرجال ؟ فقالت :ـ منهم من سار الى القبائل ليعزموا الناس الى العرس والفرح ••• ومنهم من ذهب مع الامير مالك للصيد والقنص•

ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان واركز رمحه ووقف على الباب ونادى هيا يا اصحاب البيت فقد اتاكم ضيف من ابعد مكان، وكانت مي داخل الخيام وحدها ، فما ردت جوابا وما ابدت خطابا ، ولما ابطأت عليه الجواب وعرف ان الصيوان خال من الرجال انشد وقال :

قال الفتى الغريب الذي شكا ... ولي قلب من بين الجوانح ذاب
أتيت قاصد مالك في حاجة ... ولي ساعة واقف انا في الباب
يا اهل هذا البيت اين اميركم ... واين مضى من الديار وغاب
يا ربة البيت الذي داخل الحمى ... ما بالكم لا تردوا الجواب
الا فاخبروني يا بنات بحالكم ... قلبي غدا من اجلكم مرتاب
اذا كان اهل الحي غابوا جميعهم ... اما فيكم كريسة ذات حجاب
فتقري ضيفا قد اتى غريبة ... وتستر اهاليها مع الغياب
أكيد ما كل النسا تستر الفتى ... ولا كل من يحوي الردية صاب

فلما سمعت مي شعره ونظامه وعرفت قصده ومرامه أخذتها الغيرة والمروءة لتستر عرض اهلها من القيل والقال واشارت تقول :

تقول فتاة الحي مي التي شكت ... الا فاسمع للقول يا نجاب
يا مرحبا بالضيف لما زارنا ... لك الخير والاكرام والترحاب
انزل مكانك حتى أهيء لك الغدا ... وتأكل لحم من زادنا وشراب

انا بنت مالك راح للصيد والدي ... مـع ابن عمي الاوس والاحبـاب
انـزل حتـى يعـود رجالنـا ... ويأتوا لنحو الحـي بعـد غيـاب
فكم جـاء الينا يـا امير مثالكم ... خلائـق كثيرة مـا لهن حسـاب
نحن نحب الضيف اذا جاء محلنا ... انزل واجلـس جـانب الاطنـاب

فلما فرغت من شعرها ونظامها هام الصنديد في حبها وغرامها ورفع ستار الخيمة بسنان رمحه ، فوجد صبية بديعة الجمال ، فزاد به الوجد والبلبال فصاحت عليه من خلف الستار وقالت علامك تنظر بنات الملوك يـا غدار ، ثم ردت منديلها على وجهها وقالت له لا شك انك قليل الحيا فان كنت ضيفا كما تقول، فانزل كي آتيك بالغداء والا فما هذه الوقاحة.

ثم قالت لجاريتها : اطلعي افرشي له حتى يجلس ويتغدى لبينما يأتي ابي من البرية .

فخرجت الجارية اليه وسألته كي ينزل في الصيوان ، فقال لها : عيب علي ان انزل عند الحريم وانا سيد عظيم لئلا ادعي بكامح وهذا من اعظم القبائح وما اتيت الى هذه الديار الا لامر ضروري جدا وهو ان اخطبك واتزوجك .. فاجابته : اني مخطوبة ولا شأن لـك معي .

فلم يسمع كلامها وقال : لا بد من اخذك الى الاطلال وهناك اتزوج بك بالحلال لانني اتيت من بلاد بعيدة لاجل هذه الغاية الوحيدة وقد نلت مرادي وحصلت على مسرة فؤادي. وهكذا هرب بها بعد ان اختطفها .

ثم انه نام تلك الليلة في ذلك المكان وهو مسرور فرحان ، ولما كان الصباح ركب ظهر الحصان واردفها خلفه وسار يقطع القفار ويوصل سير الليل بسير النهار حتى وصل الى الديار ، ولما سمع اكابر قومه بقدومه

ظافرا غانما اجتمعوا اليه وهنئوه بالسلامة وسألوه عن سفرته، وما جرى له في غربته •

فقال : اني عند وصولي الى تلك الاطلال هجمت على الفرسان والابطال ومددت اكثرهم على بساط الرمال ، وفعلت فعالا تذكر على طول الاجيال وقتلت الامير مالك وابن اخيه واتيت بالعروس الى هنا وقد بلغت غاية المنى •

فلما سمعت مي هذا الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام، فنهضت على الاقدام وقالت له امام الاعيان : لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الاله الديان ، لو كان ابي وامي وابن عمي حاضران لما كنت عدت سالما الى اوطانك ولا اجتمعت باهلك وخلانك ولكنك خطفتني بالاحتيال وهربت في الحال قبل ان تدركك الرجال ويحل بك الوبال •

ثم انها بعد هذا الكلام بكت بدمع سجام ••• ولما سمع الحاضرون فحوى كلامها خافوا من العواقب وعلموا بأن كلام الصنديد كاذب •

واما الصنديد فاغتاظ من هذا الكلام فنهض ولطمها على وجهها وقال : اهكذا تتكلمين يا بنت اللئام امام السادات الكرام •

ثم سل السيف من غمده واراد ان يعدمها الحياة ، فعند ذلك وثب الوزير وباقي الامراء بالعجل وردوه عن ذلك العمل وقالوا له : انت امير اتجعل عقلك كعقل النسوان فماذا تقول عنك ملوك الممالك اذا سمعت بذلك •

وما زالوا يتوسلون بالكلام حتى لان • وكان له سجان قلبه اقسى من الصوان فاستدعاه اليه فحضر وكان اسمه عمران ابن الازور فقال : خذ هذه الملعونة الى بيتك وسلمها الى زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها

العذاب الشديد ، وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات في النهـار وتطعمها خمس ارغفة من الشعير .

فقال يا مولاي ان هذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولا تستاهل غير الاعزاز والاكرام وهي كأنها البدر التمام ..

فقال لها كيف العمل وما نحن الا عبيد الملك الصنديد ، فعند ذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية والبستها ثوبا من شعر الخنزير وارادت ان تضربها بالسوط على قدميها فوقعت على رجلها وجعلت تبكي وتثني عليها ثم انشدت تقول من فؤاد متبول :

بالله ان ترثي الـى احوالـــي	فالدهر فـرق صحبتي وعيـــالي
يـا وحدتي يـا ذلتي يـا غربتي	قـد صرت بعـد العـز بالاغلال
قد كنت في جـاه ورفعة منصب	والله ربـي عـالم الاحـوال
فترفقي هـذا النهـار بحـالتي	فلعل ربـي يستجيـب الحـال
اني كريمة مـن اكـابر معشـر	فاقوا الورى بالجـاه والافضـال
ويعيدني بعـد العناء الى الوطن	وارى جميع الاهـل والاخـوال
ولهم وقائع في البلاد جميعهـا	بين الملـوك وزمـرة الابطـال

فلما فرغت من شعرها ونظامها رق قلبها وقالت لها :

قري نفسا وطيبي قلبا فاني سأصنع معروفا لوجه الله تعالى .

ثم انها جاءت بجلد جاموس يابس فصلته ثوبا والبستها اياه مـن تحت الثياب .

اني متى ضربتك فانك لا تشعرين بألم الضرب وما قصدت بذلك الا ان يسمع الامير صوت الضرب وانت تصيحين وتستغيثين ، وانا اقدم لك ما تحتاجين اليه من الماكل والمشرب ، ومتى دخل الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة بال الى ان يأتي الله بالفرج ... فشكرتها مي على

معروفها ودعت لها بطول العمر واوعدتها بالجميل والخير ...

هذا ما كان من مي وما جرى لها، واما ما كان ابيها فانه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح والبكاء فسأل عن ذلك فأخبرته زوجته بواقعة الحال ، فغاب عن الصواب من شدة الغيظ، واما الاوس ابن عم الصبية فانه غشي عليه لانه كان يحبها محبة عظيمة ولما افاق من غشوته انشد يقول:

يقول الاوس ابن تغلب قصيد	الا يا مي من هذا دهاك
اتاك اللص في غيبة ابيك	ولم يعلم بمن يسعى وراك
الا يا بنت عمي لو تريني	على فقدك انا محزون باكي
ترى في أي ارض قد حللت	فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي اغزو دياره بالعجل	واقتله وافرح في لقاك
وابذل كل مجهودي لاجلك	وروحي بعد ذاك فداك
لما قال الفتى الاوس ابن تغلب	فقلبي قد تعلق في هواك

فلما فرغ الاوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشيا عليه وبقي طوال ذلك الليل في غم وقلق شديدين ما عليهما من مزيد، فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له : طيب قلبك يا ولدي فما يصلح الحزن الا الى النساء فاصبر حتى نرسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعد ذلك نسير الى دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله .

فقال الاوس : ومن يذهب غيري، فوالله لا سرت الا وحدي ولا اريد أي رفيق ولا معين سوى رب العالمين .

ثم نهض فاعتد جلاده وركب ظهر جواده وودعهم وسار وجد في قطع القفار ودموعه تجري على خديه وهو لا يدري الى اين يذهب والى اي حالة يقصد من قبائل العرب الى ان وصل الى واد عميق ضيق الطريق

كثير الاشجار والوحوش والاحجار، فبينما هو يتأمل ذلك المكان ظهر له احد الفرسان وهو بالسلاح الكامل وللفروسية عليه علائم ودلائل، فلما رأى الاوس منفردا وحده مال اليه وقصده وقال له : انزل يا جبان عن ظهر الحصان واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك في هذه الهضاب قبل ان اسقيك كأس العطب فأنا جمرة ابن غمرة فارس العرب ..

فلما سمع الاوس هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام وهجم عليه في الحال وصدمه صدمة تزعزع الجبال ، فالتقاه جمرة في الحال والتحما في ساحة المجال واشتد بينهما القتال وتجاولا ساعة من الزمان وهم في ضراب وطعان تقشعر منه الابدان. فاختلفت بينهما طعنتين قاتلتين وكان السابق الاوس بن تغلب ... فجاءت في صدره خرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلا وفي دمه جديلا فأخذ عدته وجواده وجد في المسير وهو يقطع البراري والاكام مدة خمسة ايام .

واتفق في اليوم الخامس انه التقى بفارس وهو يجد في قطع القفار كالسهم الطيار فتقدم اليه وسلم عليه وقال له : اين انت سائر والى من تنتسب من القبائل والعشائر .

قال : اني من بني عبس وعدنان اصحاب الفضل والاحسان واني والفرسان في ساحة الميدان . ثم ودع الاوس ذلك الفارس، وجد في قطع سائر الى ديار بني عامر لاستدعي حامينا عنتر فارس الخيل لانه سار من عشرة ايام ليحضر وليمة دعاه اليها عامر بن الطفيل، وفي غيبته غزانا عمرو بن معدي كرب في خمسة آلاف فارس فحاربنا محاربة شديدة ، وجرى بيننا وبينه وقائع عديدة، فارسلني مولاي قيس بن زهير لاستدعيه للحضور قبل ان يظفر بنا عمرو المذكور .

فقال الاوس وتذكر كيف ان عنترة بن شداد فارس العرب قد

اشتهر ذكره في هذه الايام بطعن الرمح وبضرب الحسام وقهر كماة الجبابرة وحارب الملوك الأكاسرة والقياصرة وافتخر على الأبطال والفرسان في ساحة الميدان • ثم ودع الاوس ذلك الفارس ، وجد في قطع البر الأقفر وما زال يقطع البراري والآكام مدة سبعة ايام حتى اشرف على جماعة من العبيد ترعى الاغنام فحياهم بالسلام واخذ يسألهم بهذا الشعر والنظام :

يقول الفتى المضني الفائض ما به … فدمعي جرى فوق الخدود سائح
الا يا عبيد الخير بالله اشفعوا … لصب بعيد الدار ولهان نازح
فجيع وجيع ، مستهام ملوع … تركه البين مضني كثير الجرايح
لقد ضاع لي حرة عفيفة عن الخنا … فهل من يبشرني بها يا فوالح
ويخبرني لاي البلاد توجهت … من اجلها ناري تزيد اللفايح
لقد احرقت قلبي ولبي ومهجتي … وكل عظامي اوثقتهم جرايح

قال الراوي فلما فرغ من كلامه تقدم اليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له : اعلم يا غلام انه من برهة عشرة ايام سبي اميرنا الصنديد ابنة اسمها مي لا يوجد اجمل منها في نساء هذا الحي ، فأراد يتزوجها فامتنعت عنه ، فقيدها بقيود من حديد وهو كل يوم يعذبها عذاب شديد فعسى تكون الحرة التي ذكرتها في شعرك افرج الله همك وغمك •

فلما سمع الاوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان واوعده بالجميل والاحسان •••

وبينما هم بالحديث والكلام واذ بسعد ابن اخت الصنديد قد اشرف في ذلك الوقت ليتفقد المراعي فشاهد الاوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال هذا ابن عم الصبية مي التي عند خالك الصنديد قد جا ليكشف اخبارها ويرجع بها الى ديارها فلما سمع هذا الكلام رجع

الى عند خاله واعلمه بما سمع ورأى واشار اليه يقول :

قال سعد قد اتيتك غارا ... يا خال مني فاسمع الاخبارا
البنت التي غربتها من اهلها ... من خلفها فارس اتاك جهارا
يا خال فارس في اللقا مجرب ... وعيونه يا خال تقدح نارا
ان كان راقت لك ليالي الصفا ... فبصفوها تأتي لك الاكدارا
قد جاء الى عند العبد يسأل ... انبوه فجاءنا كالاسد هدارا
لما سمعت اتيت نحوك عاجل ... هذا الذي يا خال تم وصارا

قال الراوي فلما فرغ سعد من شعره ونظامه وفهم الصنديد فحوى كلامه قال له : فارس واحد •

قال نعم ايها السيد الماجد •

فشتمه خاله وقال : ارجع وخذ روحه من بين جنبيه فانه لا يليق بي ان اركب لقتال صعلوك من صعاليك العرب •

فخرج سعد من عند خاله وقصد الاوس فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليه التقاه الاوس كالاسد وضربه بالحسام المهند فالقاه على الارض قتيلا فاخذ سلبه وثيابه ••• ولما بلغ خاله الخبر طار من عينيه الشرر فركب ظهر جواده واعتد بعدة جلاده وقصد الاوس حتى التقى به وانطبق عليه كليث الآجام واخذ معه في القتال والكفاح • ولم تكن الا ساعة حتى اثخنه بالجراح ••• فولى وطلب لنفسه الهرب فتبعه الاوس مثل السرحان حتى وصل الى الصيوان واحتمى عند النسوان فلما دخل على الحريم قالت له زوجته سعدا : لماذا انت مرعوب كل هذا ؟ ألأجل الابنة التي خطفتها وما نلت المرغوب •

انك تستحق اكثر من ذلك ••• ثم وبخته بالكلام وقالت له : انت تدعي الفروسية على كل احد وتهرب من امام امرد •

هذا والاوس يصيح عليه ويقول اخرج يا لئيم من بين الحريم اجازيك على تلك الفعال يا غدار يا محتال •

فخاف الصنديد وقال لزوجته سعدا اعطيه ابنة عمه واكفينا همه فخرجت زوجته اليه وقبلته وطلبت منه العفو والسماح •• فاعطاهم الامان فجاؤوا له بابنة عمه مي بعد ان البسوها الثياب الفاخرة وذبحوا لها الذبائح وقدموا لها الاطعمة المتكاثرة ، ولما اجتمع بها زال عن قلبه الكدر ومن كثرة فرحه اخذ يسكب العبر وهكذا فعلت مي ، وكان ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد ••

قال الراوي فباتا تلك الليلة في الحلة وعند الصباح اركب مي في هودج وسار معه جماعة من العبيد وتوجه قاصدا دياره • ولما اقترب من بلاده ارسل يبشر عمه الامير مالك بقدومه وشاع الخبر في الحي فخرجت النساء والبنات واكابر السادات• ولما اجتمعوا ببعضهم الى بعض نزل الامير مالك فسلم على الاوس وابنته ، وشكر ابن اخيه على افعاله ••• وعند وصوله الى الخيام حدثهم بحديث عنتر وما سمع عنه من الخبر ••• فقال عمه : والله سمعنا بذكره وانه من افرس فرسان عصره •

وبعد ذلك ذبحوا الذبائح واولموا الولائم ثم زفوا الاوس على ابنة عمه فكانت ليلة من اعظم الليالي حضرها جمهور من السادات والرالي فزادت افراح الاوس بتلك العروس ••• وحظي بذلك الحسن والجمال وعاش معها بأرغد عيش وأحسن حال •

وبعد شهور وضعت له غلاما سماه مالك ••• وله حديث طويل• فاتفق بعد عشرة ايام ان عم الاوس ضعف ضعفا شديدا فمات فحزن الاوس عليه ودفنه بالاحترام والوقار وبكت عليه الكبار والصغار وكان

موصوفا باللطف والايناس ومحبوبا م نجميع الناس •

وارسل الاوس واعلم جده بذلك الخبر فحزن وتكدر فقالت اخته اليمامة ارسل يا اخي واحضر ابن عمك الاوس مع اهله ليجمع شملنا بشمله •

فأجابها الى ذلك وفي الحال ارسل رجلا من بني عمه ليحكم مكانه فجاء الاوس مع اهله وسكن عند الجرو جده وراق لهما الزمان •

واما ما كان من البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فانه كان قد احناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب على اكل الطعام وشرب المدام ، وكان لا ينام الا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زال على تلك الحال حتى برز له اسنان وصار عقله مثل عقل الولد ، وكانت بنات اخيه تخدمه وتداريه ، فاجتمع يوما بالجرو وقال له : يا ابن اخي قد ضاقت اخلاقي من الوحدة والانفراد فاريد منك ان ترسلني مع بعض الاتباع للتنزه في البلاد •

فاجابه الى ما طلب واركبه في هودج واعطاه عبدين برسم الخدمة وجميع ما يحتاج اليه من لوازم السفر ••• فودعه المهلهل وما زال يجول حتى اقترب من بلاد الصعيد ••• وكان العبدان قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من التعب اشد الضيق ••• فصمما على قتله واعدامه ثم يقولان لاهله قد ادركته المنية •

فعرف الزير منهما ذلك فقال لهما : قد دنا حمامي وليس الا القبر امامي فاذا ادركتني منيتي قلت اريد منكما الا ان تبلغا اهلي وصيتي •

قالا : وما هي وصيتك ؟

فعاهدهما على حفظها وتأييدها فحلفا له بأعظم الاقسام بأنهما يبلغونها بالكمال والتمام •

فقال : اذا وصلتم الحي فاقريا اهلي مني السلام وانشدوهم هذا البيت وقولا لهم اني في القبر قد اختفيت :

من مبلغ الاقــوام ان مهلهلا　　لله دركما ودر ابيكما

وكرره عليهم حتى حفظاه ، ولما دخل الليل ذبحـاه ودفناه تحت التراب وورجعا الى ديارهما ، ودخلا على سيدهما الجرو واعلماه بموت عمه الزير فبكاه بكاء شديدا ومن حضره ثم ان العبدين اقتربا من الجرو وانشداه البيت المذكور ٠

فلما سمع الجرو هذا استغربه حيث لا معنى لـه فاستدعى اخته اليمامة وكانت من اذكى نساء العرب ، واعلمها بأمر عمها وانشدها ذلك البيت فلطمت على وجهها وبكت وقالت ان عمي لا يقول ابيات ناقصة بل اراد ان يقول :

من مبلـغ الاقـوام ان مهلهلا　　اضحى قتيـلا في الفلاة مجندلا
للـــه دركمـا ودر ابيكمـا　　لا يبـرح العبـدان حتى يقتلا

ثم انهما قبضوا علــى العبدان والقوهما تحت العذاب والضرب الشديد الى ان اقرا بأنهما قتلاه ودفناه ، فقتلهما الجرو في الحال وهكذا انتهت حياة الزير وقد اخذ ثأره في حياته وبعد مماته ٠

وبعد وفاة الزير وضعت امرأة الاوس غلاما سموه عامرا ولما بلغ سن الرجولة تزوج امرأة من اشراف العرب فولدت لـه ولدا في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو ، فدعاه (هلال) ٠٠٠ وهو جـد بني هلال وكان من اعقل العرب ٠

ولما كبر الامير هلال تزوج امرأة ذات حسن وجمال فولدت لـه غلاما دعاه المنذر واتفق ان هلالا زار مكة في بعض السنين في اربعمائة

فارس كرار وذلك عند ظهور النبي المختار ، وعند وصوله ضرب الخيام وطاف هو ورجاله حول البيت الحرام ، ثم تشرف بمقابلة النبي وقبله بين عينيه فامره النبي ان ينزل في وادي العباس ••• وكـان النبي في تلك الايام يحارب بعض العشائر فعاونه الامير هـلال وامده بالعساكر وقاتل معه القوم في ذلك اليوم ••

فبذلك انتهت هذه القصة العجيبة •

الفهرس

ـ من تاريخنا الشعبي

مجموعة من القصص والتراث الروائي الشعبي المحبب الى قلوب الجماهير قامت مؤسستنا بتقديمها الى القراء بطبعات حديثة ولغة سلسة غير معقدة تختلف كل الأختلاف عن الطبعات القديمة المطروحة في الأسواق .

وقد قدمت منها لغاية الآن :

- عنتر بن شداد في جزئين
- الزير أبو ليلى المهلهل
- تغريبة بني هلال
- شرح المعلقات السبع